

رِيم - بسيوني



ماريو أبو العباس

رواية

دار نهضة مصر



والكل أنت بمعنى لاخفاء به والنور يهجه كالماء في اللبن

طرق الباب

وكنت قد انتهيت للتو من كتابة رواية «سبيل الفارق». أرهقتني، وفتتني، وأخرجت من أنحاء الفؤاد نفساً جديدة لم أكد أنها بها إلا ووجدت الأفكار تتناثر حول عقلي ولا تستقر. فقررت التوقف، وزفر الأنفاس حتى أعتاد النفس الجديدة، ولا أغرق في اليأس كالشاطر حسن في «سبيل الفارق». لعلمت حقائبي وغايتي البحث عن الأثر لا البشر فوجدت نفسي أغرق في حكايات البشر وأتذكر كلمات فرانزيسكو دي تيلدي في الرواية «ينكشف البشر في قصص العبرين». عبرت إلى طائفة وأنا أكره المسافات، لم يعد لي صبر عليها. في العصور الطويل وقت لا انتقاء الذكريات وغريبتها. لم أتوقع حين جلوسي على المقعد الضيق أنني سأغوص في حكاية غير كل الحكايات، وأتعرف على أبطال يفاجئوني بقلوبهم وخيالاتهم وشففهم.

أيقنت حينها أن القصة مثل الرزق تأتي من حيث لا نحسب. اختزلت الحكاية ولم أخرجها إلى النور حتى إنني كتبت بعدها روايتين، ثم طاربتني في أحلامي طالبة الخروج من الظلمات. ثم حان الوقت.

قابلت كريستينا الإيطالية المصرية التي هاجرت إلى أستراليا في ستينيات القرن العشرين أثناء رحلتي الطويلة إلى أستراليا، وانشرح صدي لمعرفتها بكتاباتي ولكن حكايتها كانت قيد الأحلام، بل لم تكن حكايتها؛ فما نحن إلا حراس للحكايات نتسلمها من فم إلى فم، نحملها كالأملة، بعضها يحرفها، والبعض ينساها، والقليلون ممن لا تُريكهم الدنيا يدركون ولا يكذبون الفؤاد. أخبرتني أن لديها حكاية جاءت إلى مصر لتقتفي أثرها من جديد ففي استعادة رحلات الماضي عودة إلى جراءة الصبا ورونقه. هي حكاية تفوق الخيال وتفتح أبواب النور داخل القلوب وتخرق كل

المسافات.

بدأت الحكى مباشرة، أحيانًا يرتجف جفنها أو تشرق أو تزبح دمة كلها تخاف أن تنسى أية تفصيلة في الحكاية. تلقفت حكاية في طائرة من كريبستينا تحكي فيها عن نفسها، وعن ماريو رومي، وعن الفرسي أبي العباس ولي الإسكندرية وعن مدينتي...للحق هي حكاية تحكي فيها كريبستينا عني أنا أيضًا لو تعلمون.

قالت:

- جئت إلى مصر هذا العام أبحث عن صورة وأوراق. معي في حقيبة السفر وجدتها الحمد لله. ماذا يتبقى منا يا ابنتي سوى صور وبعض الحكايات؟ ولكنك متكبين الحكاية أليس كذلك؟

قلت في حسم: هو كذلك.

فقالت: الوقت نسبي كالعمر يمر على البعض ببطء، وعلى آخرين كالنجم الذي هوى. أرحل من وطن إلى وطن، وأبقى غريبة في الوطنين...الحكاية ترافقنا طوال العمر، ولكن ما إن تتلاشى الذاكرة حتى ينفذ البشر من حولك. كنت أخشى من فزع الناس من حولي..ذهبوا جميعًا..ولكنني أتحدى الذاكرة..أبحث عن صورة رسمها ماريو رومي لأبي العباس الفرسي. هل تعرفين حب المراهقات؟ كنت أحب ماريو رومي، بل أعشقه. يعجبني جسده الممتلئ وعقله اليقظ. وكان صديق والدي الذي يعمل في الإسكندرية. هو أعطاني هذه الصورة، أعتقد أنه أحبني كما أحبته. فكيف لا يحبني وقد فاض قلبي وانسكب؟ ولم أكثرث بوجود زوجته. عشق المراهقات أناني دومًا. ولكنه يتدفق كالمياه المحتبسة وراء الجسر. أنت تعرفين ماريو، أليس كذلك؟

بلعت ربقي وقلت في تردد: لا أعرفه. هل كان إيطاليًا مصريًا؟

نظرت إليّ في غضب ثم قالت: وهل تعرفين أبا العباس الفرمسي؟

- بالطبع أعرف مسجده في الإسكندرية. أنا من الإسكندرية. الإسكندرية
نقسم باسمه كل يوم مرات ومرات. هو إسكندراني حتى النخاع. مثلي ربما
أو أنا مثله.

- سأحكي لك ما حكاه لي ماريو، وما حكاه أبو العباس الفرمسي لماريو،
وأصدقاء أبي العباس الفرمسي أصبحوا بعد ذلك أصدقاء ماريو، وتكلموا
معه، وحكوا له. وأحيانًا سأحكي لك ما لم يحكه أيّ منهم ما عرفته وحدي.

حدثت بها في ذهول وشفقة، فقالت كأنها قرأت أفكارني: تظنين أنني
مجنونة. لا بأس.. استمعي لحكاياتهم كلهم، ثم أخبريني لو كنت صادقة، أم
ضل عقلي.

الإسكندرية 1960

قالت كريستينا

جلست أمام ماريو كأنني قبضت بيدي على بريق القمر. لم أستطع أن أمنع
عيني من الشرود في نظارته المستديرة، ونظرة عينه اليسرى الثاقبة، أما
عينه اليمنى فقد أمسكت جفنها، وغفلت عن ذاك الضوء، لأول مرة ألاحظ أنه
فقد الرؤية بهذه العين، مر زمن منذ تقابلنا؛ كأنه قرأ أفكارني فقال: لا تقلقي
أستطيع أن أراك. الرسم هو ما أصبح صعبًا.

وكيف يفترق القلم عن يد الفنان؟ وكيف يتحمل فراقًا كهذا؟ كنت أعاقه
لحظتها، ومنعت نفسي.

قال في بطم: لو كنت تتساءلين عن حالي فقد تعلمت أن الفراق مجبول

بالألم، ولا بد منه في كل حال. جسد يفترق عن روح، حبيب عن حبيبه،
رسام عن أوراقه وقلمه. ما نتعلق به نفارقه لأننا نظن برهة أننا امتلكتنا ولم
نمتلك، وأننا قدرنا ولم نقدر. لكل شيء في الدنيا حق انتفاع لا أكثر.
لم أفهم كلامه بالضبط، ولكنني كنت أكاد أمسح وأطير معاً، وأنا في
حضرتة.

هل يدرك أنني أعشقه منذ عشر سنوات أو أكثر؟ مجرد الخاطر أصابني
بالسقم. قلت وأنا أهرب من نظراته: هذا الحوار لا تعلم منك يا أستاذي، أنت
قدوة لنا جميعاً.

تفحصني بنظرته كأنه يدرك كذبي، ثم قال: حسناً. ولكن لا تكثري الأسئلة.
- أعدك أنها أسئلة قليلة.

هل رأى رجفة أصابعي؟ ربما، وربما لا. كان في الستين، وكنت في الثالثة
والعشرين ولكنه قال في حسم: لا تتكلمي معي عن الدين. أنا لا أجيب على
هذه الأسئلة.

قلت: أعرف.

ثم قلت بلا مقدمات: تلتني إلى هنا كل حين. تجلس في ساحة مسجد أبي
العباس الفرمي. رأيت تصميمك بهيني. بحق الله أنت عبقرى.
لم يجب كأنه اعتاد الإطراء.

قلت مسرعة: عند مسجد أبي العباس الفرمي. هنا تلتني يا أستاذ. مع أن
المهندس ماريو رومي بنى أكثر من 260 مسجداً، وكل مسجد مختلف عن
الآخر. ولكنك تلتني إلى هنا، هنا فقط لماذا؟ ماذا بينك وبين الفرمي؟
انحنى قليلاً، وكان وجهه يقترب من وجهي، وقلبي يختلج، ثم قال:

تحومين حولي منذ زمن. وتدعين أنك تكتبين للجريدة الإيطالية. تكذبين يا كريستينا. اسمك كريستينا، أليس كذلك؟

أطرقت ثم قلت: هو كذلك. أريد معرفتك أكثر ربما.

رمقني بنظرة كلها فهم، ثم ابتسم، وقال: وبعد أن تعرفيني؟

صمت. ثم استعدت شجاعتي، وقلت: ما لك ومال الفرسي؟ أنت إيطالي، وهو إسباني، أم تفضل أن أقول أندلسي؟ من استدعى تاريخ الآخر ومن بدأ الصداقة؟

- أسئلتك تعجبني، أنت مختلفة..

كلمة واحدة مكنت القلب فطمأنته. همست: أرى قلبك دوماً.

رفع حاجبه ثم استطرد: أحمد أبو العباس الفرسي عشرة.. عمر طويل بيننا، صداقة تعدت الأربعين عامًا، هو من بدأ، وهو من كلف واستدعى.

- ولكنه مات منذ سبعة عشر عامًا أو ما يقرب ذلك

- ومن قال إن الأصدقاء موجودون معنا دوماً بأجسادهم؟ ليس للصداقة قواعد؛ كالدينا كلها إبداع وعطايا.

- أريد أن أسمع منك وأتعلم.

- تريد أن تسمعي حكايات عني أم عنه؟ لم توضحي..

قلت بلا تردد: عنك أنت.

أشاح وجهه عني ثم قال: لنترك الحكاية تقرر مصيرها.

وبدأ ماريو في الحكى..

الشفر الأول

حكى أبو العباس الفرمي لما ريو

تونس .. 1242م 640هـ

بسم الله والحمد لله رب العالمين من به نستعين وإليه نفتقر.. اعلم أيها
التائه الغريب الوحيد أنا مُقيدون بصور الأشياء ما لم نُقتل بسيف الحب..

فاطمة المالقية، أمي، كالت تبكي وهي تُمسك ببطنها، ولم يكن بكاء دوار
البحر بل دموع وداع. أمسكت بيدي قلالة: أحمد..

فقلت في قلق: أمي.. بعد ساعات نصل إلى شاطئ تونس. أكاد أراه بعيني،
ضوء الفئار يبرق، ثم يختفي في الليل.

استدارت وأمسكت بأخي ثم قالت: وضوء الأندلس خفت يا بني، لن نراها
بعد اليوم.

ضغطت على معصمها الهش، دوما أراها أرق من أن تخوض هذا البحر
وهذا الطريق. قلت: نذهب إلى الحج كما قال أبي، ثم نعود إلى مرسية. لا
تقلقي.

نظرت حولها في تيه ثم همست: أحمد، لا عودة إلى مرسية.

خرجنا مع والدي قاصدين الحج، وخرج والداي قاصدين النجاة. ولم أدرك
ذلك إلا على شاطئ تونس. قلت في بعض الغضب وفي بعض اليأس:
سأعود إلى بلادي. من هنا نساfer إلى مصر ومن مصر إلى مكة، ثم نعود إلى
مرسية.

أغمضت عينيها وتمتمت: أمسك بيدي.

كنت ممسكا بيدها، لم أر أمي بهذا الضعف من قبل، ولم أدرك حينها أن فقد الوطن يطحن العظام. وضعت رأسها على صدري ثم قلت: لم يأخذ الفرنجة مرمية ولن يستطيعوا. منعود. أبي..

التفت أبحت عنه لأماله. كنت دوماً أتمس الطمانينة من راحتيه. تجارته دوماً تريح، وبيته دوماً عامر ومستقر. أدركت حينها أن بكاءها كان بسبب قرب الوصول إلى شاطئ غير شاطئنا، ووطن غير موطننا، وأشجار غير مألوفة، ورائحة غير رائحة السفرجل التي اعتدناها.

أبقت يدها بيدي حتى نامت في وسط الليل، اقترب شاطئ تونس ولكننا لم نصل. الاقتراب لا يعني قط الوصول.

كنت أغرق على شاطئ تونس أو كنت. انشطرت السفينة أمام عيني نصفين كأنها كسرة خبز يابسة. وأنا بداخلها أصبح مع الريح.

مرحباً بالموت القادم مع زبد البحر كل ما نتمناه أن يراف بحالنا، ويدخلنا على أبوابه بهدوء ولطف، بل نتمنى ألا يترك بيننا يتيقاً تذروه الريح، ولا عجزاً نتحكم فيها الذئاب فلتمح يداك كل الماضي والقادم يا ملك الموت لن أنكر أنني أخشاك بعض الشيء، بل الآن تتصارع أنفاسي وترجو، ويلبي فمي أن يستقبل المياه بحفاوة كما أتمنى. رفعت يدي أدفع بالموجة وأنادي أمي، غريب أن أنادي أمي فقط. مع أن أبي وأخي حولي، كلني أتذكر مصدر الأنفاس، وأرجو شفاعته الرحم من الرحمن. فاطمة.. أين أنت يا ابنة الأندلس؟ هل أغمضت عينيك الواسعتين؟ طالما أسمع صوتك أو صرخاتك فأنا على ما يرام. خرجت كلماتي إلى ربي متقطعة، كلها خجل، ربما كذبت... نعم، أحببت جارة واشتهيتها، خرجت مع أخي نستمع للموسيقى ونستمع بالرقص أمام البحر لا أتذكر ربما لم أفعل. ولكني أرى طفلاً

بجلباب من الحرير الثمين لم يتعد العاشرة يمسك بيد أبيه الذي يسير معه في فخر في طريقنا إلى المسجد في مرسية لصلاة العيد. قال أبي: أحمد أغنى وأفضل صبي في كل الأندلس. تذكر أن أحمد غير كل الرجال. هو ابن عمر الخزرجي أكبر تاجر في كل البلاد. سر في الأرض شامخًا فليس مثلك أحد.

سر في الأرض.. يا أبي.. أين أنت الآن من أمواج بحر الروم؟ صوتك لا يترك أذني، والجلباب الأبيض يضرب عيني، كلما حاولت أن أزيحه التصق بوجهي. ورائحة السمك المقلي تفوح من بين رائحة الملح المعتق والأعشاب المحنطة. مقاومة الأمواج ليست أصعب الابتلاءات، ولكن اليأس هو ما يسيطر في اللحظة والتو، يغمر العين والقلب، ويحرق الكبد المشتاق إلى النجاة. ما فائدة المحاولة وفاطمة لم تعد تصرخ، ولا والده يطلب منه الصلاة، ولا صوت أخيه يوقظه من نومه. لم يعد يسمع سوى صوت المطر الذي لا ينتهي، والغيث الذي يفرق ولا يحيي. لا فائدة من المقاومة.

والده يقول: التاجر الذكي يعرف متى يبيع، ومتى يشتري، ومتى يعطي بضاعته للفقير ومتى يعطيها للغني.

هل حان وقت البيع أم الشراء يا عمر؟ يا أبي. لم يعد للماضي مكان وسط الفرق. أغمضت عيني، ومددت جسدي، وفتحت ذراعي ورجلي، وصحت بأعلى صوتي المكتوم: هيا يا بحر. قلبني كيف شئت. اختبرني..

بعد الفزع تأتي الراحة، وبعد الهول يتلاشى الأرق. الوقت يشفي العليل. امتسلمت للبحر وتركتة يهت بالجسد والكبد. حملني وطرحني أرضًا، رفني إلى أعلى، ثم سقطت من بين يديه إلى أعماق الرمال. أعيتني حيلتي كما تعيي البلية أولى النظر غضبت بعد الرجاء، وتشجعت بعد الفزع، ثم امتسلمت بعد ذلك كله.

رائحة الرمال تختلف من شاطئ إلى شاطئ، ومن بلد إلى بلد، ومن أنف إلى أنف. أدركت أنني لست في وطني، ولم أؤكد من أنني حي. ولكن الجنة لا بد أنها برائحة المسك وطزاجة الندى الذي يعج بالدفء والصقيع مقًا. والنار تحرق بلا هوادة. لا أنا أحترق، ولا أنا أمتنشق روائح الجنة، بل تنبثق المياه من جوانبي، وتكنم الرمال أنفي. خرج معالي ممزوجًا بالملح، وتجمع الناس حولي يبحثون في أمري. سمعت الأصوات: حي؟ بل ميموت .. حي .. سبحانه من ينقذ من الفرق والهلاك.

الهلاك .. وهل هناك هلاك أكبر من هذا؟ تمتعت: أمي .. فاطمة...

التف الرجال حولي يبحثون ثم قالوا: هناك امرأة تبكي على الشاطئ، تنوح، وتضرب رأسها وبطنها. لا بد أنها أمك.

انشرح الصدر. وتحركت المياه متجهة خارج العقل المشتت. مددت يدي، والعينان بالكاد تريان وهمست: محمد.. أخي، أبي.. أين هو.

زحف أخي على ركبتيه في إعياء ثم قال: لم تزل حيًا.

- ربما.

- بل لم تزل حيًا يا أحمد. لا تقل ربما. إياك من كلماتك التي لا أفهمها يا ابن أمي.

- أمك على الشاطئ؛ ساعدني نبحث عنها. والدك أين هو؟

تناثرت الكلمات، ولم أمتطع أن أتحرك. لم ينج أحد من هذه السفينة، يقولون تركوا الأندلس بعد اضطهاد الفرنج وتهديدهم المستمضيقون على المسلمين، أهل مرمية لم يعد لهم وطن، بعد شهور متسقط البلد في يد الفرنج، يعتقدون أن الأندلس من حقهم هم كانت لهم هم لا حول ولا

قوة إلا بالله، هؤلاء الهاريون قصدوا بيت الله الحرام .. بل بعضهم قصد تونس، وبعضهم قصد مصر لم ينج أحد من هذه السفينة سوى ثلاث، هذان الولدان وأمهما. يا سبحان الله، له في خلقه شئون .. أراد للام أن تنعم بأولادها .. أين هي؟ هل تركت الشاطئ؟ كانت في مرمى البصر أين اختفت؟ يا خالة .. هل تتكلمين العربية؟.

جريت بأقصى سرعتي، وكانت أنفاسي تتوقف؛ أخرجت ماء البحر من فمي فتقيأت، اليأس يملكني من أن أصل إلى أمي مع أنها لا تبعد عني سوى خطوات. تختلط علي المسافات، هرولت خطوة وكأنها بألف عام. أمسك محمد بيدي ثم هويينا مفا أمامها. احتضنتها بكل قوتي وقلت في شوق: أمي حمدا لله أنك بخير. لا أعرف ما حدث، بحثت عنك ولم أجدك.. كنت أدور حول نفسي، أغوص تارة وأطفو تارة.. يا أم أحمد.. فتحت عيني ونظرت إليها. التقت أعيننا وماد الصمت. تعرف أمك من رائحتها.. الأم رائحة.

قلت وقد أمت نفسي لأنني لم أدرك أن رائحتها ليست رائحة أمي، ولكنني في غمرة الشوق خدعت كل الحواس: يا خالة..

قالت وهي تنظر حولها: لا أجد ابنائي.. هل تراهم؟

نظرت إلى أخي الذي سقطت الدموع من عينيه، وهو يدرك أن والدته غرقت مع الفارقين، وأن من تقف أمامنا أم فقدت أولادها. سألتها عن اسمها في شفقة وعرفت أنها يهودية، هربت مثلنا من بطش الفرنج، ومقوطة مرمية الآتي اليوم قبل غد. كانت متجهة إلى الإسكندرية، وكنت متجها إلى الحجاز. ورافقتنا إلى السقف المتهالوي وكنت حزنها وهي تردد كلمات من التوراة. لا سألت من نكون ولا أين سينتهي بها الحال.

أنت يا قاهر وقادرياً قريب وظاهر وباطن. يوم ضمرت الألم بداخل
كبدى المحترق، ورثت على كف الأم التكلّى، صاحت في غضب وهي تنظر
إلى السماء: أين عدلك؟ تقول إنك عادل! أقسم لك أنى هجرتك. ولا أتقبل
قضاءك. لا أتقبله.

كنت أفهم لغة الفرنج كما أفهم العربية. وجدت نفسي أخذها بين ذراعى
وأبكى. أنا أبكى على والدى وبلادى التى تركتها، وهي تبكى على كل ما
ملكته أو شئت لها. طلبت منها أن تهدأ، ولكنها أبعدتني وهي ترمغ وجهها
فى التراب، وتصرخ وتضرب نفسها. أمسكت بيديها، التف الناس حولنا،
غابت هي عن الوعي فأخذوها إلى بيت أحدهم وأعطوها الطعام والدواء
إلى حين.

أما أنا فكلماتها رجت النفس رجاء. أين عدلك؟ إلهى، كيف تجرؤ اليهودية
على الحديث معك هكذا؟ ولكنك عادل، أليس كذلك؟ لا أشك فى وجودك.
أعرفك طوال عمري لكننى رأيت اليوم قسوة وألماً لم أر مثلها من قبل.
هل جاءت منك؟ أعوذ بالله أن أغضبك. لا أجرؤ ولا أستطيع. أتعرف لماذا؟
لأننى أصبحت أخافك أكثر وأكثر.

أمرتني اليهودية بصراخها وكلماتها ويديها اللتين تدمهما فى التراب بحثاً
عن ضاع منها ومن انتزعته الأيام من حايا صدرها. أصبحت أعودها كل
أسبوع مرة أو مرتين. لا نتبادل الكلمات، أبقى معها فتهز رأسها، وتطرق
وتجفل ثم تغمض عينيها. أضع بنفسى الطعام أمامها. وأحياناً أتكلم بعض
الكلمات، لا ثجيب. أخرج وأعود إلى حياتى الجديدة فى القيروان. وجد
أخى صديقاً يعرف أبى، طلبنا المال من العم والخال. ترك والدى الكثير
وأخذ معه الكثير ثراء عمر الأنصارى الفرمى معروف فهو من أمهر التجار.

زنى ولذيه على أكمل وجه؛ على العلم والدين والعمل.

ولكنني غير محمد؛ كنت دوماً غريب الأطوار. بعث بي أبي إلى مدرسة حفظ القرآن وتعليم الفقه منذ كنت في الخامسة. أغلقت عيني وأذني. وعندما كان الشيخ يأمرني أن أفتح يدي ليضربني كنت أفعل بلا تردد؛ كان الضرب محبوب لدي، وكلمات الشيخ تؤذيني. اشتكى الشيخ لأبي، واستمر الحال عامًا وعامين. وفاطمة أمي مقتنعة تمامًا أنه محرم من أحد الجيران. يحسدونها على الولدين وثرأء الزوج. تتمنى النساء الزواج منه. «وأحمد لا يفقه شيئًا. ربما لا أمل في تعليمه. يعلم الله حاله». رأتني أمي وأنا في السابعة أكلم أشجار الزيتون، فشهقت في فزع ولم تواجهني. اقتربت لتسمع ما أقول، كنت أحكي لها عن الشيخ ونفاقه وكذبه وقسوته. كنت أشكو لها أنني لا أفهم كلمة مما يشرح، وأني أغلقت قلبي عن كل هؤلاء. لا صديق لي سواها، ها هي تتفتح أمامي وتسمع. الأشجار خير مُستمع وأبلغ فقيه. بلغت الأم ريقها واقتربت ثم همست: ابني.. أحمد.. هل تكلم الشجرة؟ أطرقت ولم أجب. فقالت في شفقة: لو كنت تكره الشيخ نبحث لك عن غيره، ولكن محمد تعلم كل شيء، ولم يشك منه قط؛ فما الذي لا يعجبك فيه يا بني؟

تمتت: كاذب.

- أعوذ بالله، لا تنطق هذه الكلمات على أحد رجال الله.

فقلت في ثقة البراءة: لكنني أعرف أنه كاذب.

صمتت في يأس وذهبت تكلم زوجها. هو الحسد أصاب الولد. مستنبح الذبائح وتوزعها على الفقراء. قال الأب في حسم: لنبحث عن رجل يستطيع أن يعلمه.

قالت في ألم: أحمد غير محمد يا عمر. أحمد يتكلم مع شجرة الزيتون.

تمتم بدعاء سمعت منه كلمات: اللهم لا تبتليني في ابني.

ذهب إلى الطبيب يسأل عن حال ابنه؛ إن كان قد أصيب بمس من الجنون أم بلعنة جارٍ سفلي.

قال الطبيب: إن الولد بخير يهيم في الخيالات ربما أكثر من غيره، ولكنه بصحة تامة.

بحضنا عن شيخ آخر، عن رجل يستطيع أن يتعامل مع طفل يتكلم مع شجرة زيتون. سأل أبي شيخًا وشيخين، وكلما حكى لأحدهم قصة شجرة الزيتون فزرع وابتعد. حتى وجد شيخًا في الثمالين من عمره، يتحرك ببطء ويتكلم بهناء ذكره هو نفسه بشجرة الزيتون. لجأ إليه وحكي له فابتسم ثم قال: آتني به.

أمسك أبي بيدي الصغيرة وهو يقول: يا أحمد، لا تخذلني. ابني لا بد أن يتعلم، وأنت في السابعة ولا تقرأ ولا تكتب ولا تحفظ آية واحدة. يا بني.. لم أنطق. ترقرت الدموع في عيني ولمت نفسي على غبائي وبلادتي.

الشيخ القرمزي غير كل الشيوخ، الصدق يفوح من بين أضلعه، وروحه تفيض بالخير. هكذا رأيت، ولا أعرف كيف في أقل من نصف عام حفظت كتاب الله كله، وقرأت وكتبت. تشهد أبي وهو يظن أنها معجزة من الله. ثم همست له أمي: أحمد يرى ما لا نرى.

فقال: أعوذ بالله من هذا الكلام. هذا الكلام من الشيطان.

- كأنه يرى الكذب كما نرى الشمس. قبض على الشيخ الزنواطي اليوم يا عمر، كان يشهد الزور. هو رأى هذا؛ لذا لم يتقبل منه العلم.

قال مسرعاً: لا تتكلمي بهذا الكلام أمامه. لو أراد أن يعيش في دنيانا فلا بد
ألا يرى سوى ما يظهر له كالشمس.

هذا ماضٍ. اليوم أخي بدأ تجارته بالقيروان، وكتم الأحزان والخرط في
الدنيا. ولكني لم أمتطع.

لم أزل أزور الأم اليهودية الهاربة في الملجأ الذي استقرت فيه في القيروان
مع يهود آخرين ولم تزل تصمت في حضوري، وتهز كل جسدها كأنها تهم
بالخروج من الدنيا، ثم تعدل عن ذلك أضع الطعام أمامها ثم أرحل طفت
الشفقة واشتعل الخوف، جلست أمام البئر أنتظر دوري لحمل المياه إلى
البيت الجديد، الهم لا يبرح الأضلع، لست أول من يفقد أبويه، ولكني ربما
كنت أتعامل مع تشويش أخطر؛ حمل ينوء عن حمله العقل المحدود، كنت
أكلمه.. وألجيه.. ولكم غضبت منه على امتحياء، ولكم ارتعبت من قهره
في خفوت. هو.. ربي.

تذكرت قصة موسى عليه السلام وأنا أنظر إلى الفتاة التي تحاول أن تحمل
المياه مع الطفل الصغير ولا تعرف كيف؟ تُحزك الجرة في كل الاتجاهات
ترفع يديها وتنحني وتنتفض يأساً. هرولت إليها.. ثرى هل سأقبل والدها
وأعمل معه؟ هل سأبتر الوحدة التي تتوغل في الانحناءات؟ نظرت إلى
وجهها لحظة ثم أمسكت بالجرة قائلاً: أساعدك يا سيدتي.

التفتت إليّ وابتسمت في براءة وامتنان. قسيمة.. هذا هو اسمها. جميلة
الوجه، عيناها تناديان، وتستغيث، وتبذر الشوق في ماعدي.

تكلمت معي طوال الطريق. سألتني عن مكاني وعملي. حكيت لها ما كان.

ابتسمت في خجل ثم قالت: أنت أندلسي من مرمية سمعت عنها كثيرًا.
يقولون إنها كالجنة، الأشجار تكاد تصل إلى السماء، والنساء بعيون المها
وشعر كالحرير. يخرجن دون غطاء للرأس، دينهم غير ديننا هناك.

قلت في هدوء: مسلمون يا سيدتي.

قالت في لهفة: قل يا قسيمة. لكم تمنيت أخًا مثلك. أنا وحيدة والدي وهو
شيخ جليل يُدرس للآيتام القرآن والفقه.

تعطقت وتشببت بكلماتها بلا تفكير قلت مسرعًا: أنا أساعده.

- ظننتك تعمل بالتجارة يا أخي.

- هذا لا يمنع أن أساعده.

جلس الشيخ عبد الجبار والد قسيمة يرتل القرآن دون أن يلتفت إلي. حكى
له ابنته كيف ساعدتها، ثم تكلمت عن رغبتني في مساعدته. بدا لي الموقف
مختلفًا كل الاختلاف عن قصة النبي موسى. ولكنني انجذبت إليه هو وابنته
كانني أبحث عن غطاء أتلحف به من صقيع الغدر والتهيه. بدأت أساعده في
تدريس الآيتام. انقبض قلبي منذ أول يوم ولم أع السبب. عندما كنت طفلًا
كنت أكثر صدقًا وأكثر شجاعة. أغلق عقلي عن كل كذب، وعندما أصبحت
فتى بلمة سوداء، طمر الضلال كل حوامي. أصبحت لا أثق في قلبي ولا
أحدثه. هجرته لأنه يفضب ويثور والثورة ضياع هذه الأيام. عقلي يؤكد
أن الشيخ عبد الجبار رجل صالح، وابنته زينة البنات. ربما استقر هنا
وأتزوجها. ولكن قلبي يتسامل عن الحزن الذي يخترق الأحداق، وهل لا بد
منه على أية حال؟

لم تعجبني طريقته في تدريس الأطفال. تكلم عن عذاب القبر والنار، تكلم عن الكره والخيالة. رأيت أعين اليتامى تقفز من بين الأجفان رعبًا. أخبرهم عن ضلال اليهود والنصارى، وعن فتنة الشيعة الكفار. انقبض قلبي ولكن عقلي طلب مني التمهّل. بعد أن انتهى، جلست أمامه وقلت في هدوء: سيدي.. هناك أم يهودية فقدت كل أولادها. هلأ شرحت لي ماذا جنت لتتحمل كل هذا العذاب؟

قال بلا تفكير: ضلت الطريق وهذا عقاب الله، لعلها تعود إليه. ادعها إلى الإسلام يا بني، أو توقف عن زيارتها.

بلعت ريقِي ثم قلت: وماذا عن الأم المسلمة التي فقدت أبناءها؟

قال في هدوء: عقاب على ذنب اقترفته أو بُعد عن الله.

- وماذا عني أنا؟ فقدت والدي.

- أنت تسأل كثيرًا يا أحمد وهذا لا يروقني. التلميذ يتبع الشيخ بلا كلمة.

تحرك أحد الأطفال من مكانه، فرفع الشيخ يده وهوى بها على وجهه بقوة حتى تركت كفه علامة حمراء واضحة قلت: هذا لا يجوز يا سيدي.. الرفق مع الأطفال..

قال في حسم: كنت أعاملك كبنِي، لا تجعلني أغير رأيي فيك.

عدت إلى بيتي والهم لا يتركني وأخبرت أخي بما حدث. فطلب مني أن أترك هذا العمل وأضع كل جهدي في التجارة. ولكنني كنت منجذبًا للتدريس.

أغمضت عيني وأنا في الجب. كان جبًا تحت الأرض ولم يكن حلقًا. انتهى بي الأمر إلى السجن. هذا أيضًا لم يكن حلقًا. لم يمر شهر على عملي مع

الشيخ وعلى تقرب ابنته لي حتى انهزم عقلي أمام قلبي هزيمة نكراء،
فرايت الأهوال. قسوة مع الأيتام ثم مرققات لطعامهم وملبسهم. تكلمت مع
قسيمة. العفن يطفئ الشوق دوماً. همست لي: لديك أجمل عينين رأيتهما،
تعرف أبي أحبك يا أحمد.

بلغت ربقي في خجل ولم أنطق. كنت أنوي الزواج منها. لا شيء يعييبها
وأنا في بداية العشرين فلا بد من الزواج. ولكن كل شيء تنائر من حولي
وأنا أراها تضرب الأولاد بعصا مميكة بلا رحمة. أمسكت منها العصا وطلبت
منها التوقف، ولكن قسوتها تنسكب من بين كل أطرافها، أربعتني. أردت
الهروب بأقصى سرعة، ولكنني شعرت بالمسئولية تجاه الأطفال. أخبرت
الشيخ بما رأيته، طلبت منه في رفق أن يتوقف عن أخذ الطعام من نصيب
الأيتام. عرضت عليه أن أعطيه بعض أموالي من التجارة. ولكنه بدأ يشك
في نواياي، وكان على حق. عندما لم ينته هددته فامتهزاً بالتهديد. هرولت
إلى الوالي أشرح له وأطلب منه إنقاذ الأيتام. ولكن الشيخ سبقني واشتكى
مني إلى الوالي. قال إني أسرق أموال الأيتام! من يصدق الوالي؟! الشاب
الغريب القادم من مرمية أم الشيخ عبد الجبار؟ انتهى بي الأمر إلى السجن
لكن ولا أدري ما القادم.

لم أندمش لأصدقك القول. ولكني صرخت بأعلى صوتي: إلهي.. أين عدلك؟
أنت عادل.. تذكره الظلم ولم أر منذ قدومي هنا سوى الظلم، لا عدل هنا،
ولكن ربما توقعت الكثير من عمر ضائع لا محالة. هبط آدم إلى الأرض عقاباً
له، ونحن ندفع ثمن خطيئته، لو لم أولد لكان أفضل. ليتني كنت نسيًا
منسيًا. ترى هل سأبقى في مجني بقية عمري؟ لأنني لم أصمت عن قول
الحق؟ ترى أنتخب صبري أم قلبي؟ ما أكثر القتلة! البعض يقتل البدن
والكثيرون يقتلون الروح.

تمت وأنا أستلقي على الأرض: لا إله إلا الله.
حاولت النظر إلى يدي ولكن الظلام طغى على كل شيء.

ثم خاطبته.. هو..

إليك أنت.. أتكلم معك اليوم وأنا مسجد بين يديك والخوف ينتفض بين
أحشائي.... منك..

أصبحت أخافك أنت المنتقم الجار.. ولكن لم تنتقم مني؟

أقسم أنني ارتعد منك. أعرف أنك موجود، ولكنني لم أعد متأكدًا أنك
تعرفني أو تسمعني.. أو تهتم بي أصلاً.. أخافك..

أخذت أغلى ما عندي بلا هوادة، وتركتني كالنبته المعلقة في جبل موسى
قبل أن تتجلى له ويهوي..

وليس لي أن أسألك أو أعترض. ولكن ظلام الحزن لم يتزحزح ليسمح
للضوء بالدخول.. فلم تحزني كل هذا الحزن؟

كنت أطيع أو أملك.. حفظت كتابك ودرست شريعتك، وبينما يلهو الشباب
كنت أسجد لك إيمانًا وتقديرًا. هل هذا جزاء طاعتي؟ تأخذ جذوري
وتقتلني وتلقي بي في السجن؟

هل هذا جزاء طاعتي؟ تنصر عليّ الكاذب القاسي؟ تنائر الفضب حولي
حتى إنني لا أدري لم ولدت ولم لا أموت؟ أتريد أن تحرقني بنار الشوق
للغالب؟ أم تلقي بي إلى المعصية؟ حسناً.. هذا ما تريد؟ أن أصبح مثله
وأتزوج ابنته؟

تعرف ما في نفسي، فما فائدة الكذب؟ أصبحت أخافك وأغضب منك. نعم
أنا غاضب، أصلي بغضب، وأسجد لك اضطراراً. تريد الحقيقة وتعرفها..
أغضب منك، وأخاف غضبك، وأحاول أن أتذكر ذنباً يستحق ما أعاني. لم أر
سوى عذابك. أين رحمتك؟ وأين أنت؟ هل تراني؟ هل أستحق كل هذا
العقاب؟

شعرت بأول لكمة غائصة في العتمة ولم أصرخ. مدت يدي أحاول الدفاع
عن نفسي. كانوا عشرة أو أكثر ركلة وضربة بعصا، ثم ركلة وضربة
بالسوط، صرخوا في: كيف تجرؤ.. الشيخ عبد الجبار.. تهين الشيخ يا كافراً
تمتت لنفسي: كنت أتكلم مع شجرة الزيتون.. هل تعرفونها؟

لو أستطيع أن أدافع عن نفسي، ولكن كيف أدافع عن نفسي في الظلام،
والأيادي تسيطر على جسدي، واللكمات والركلات تأتي من حيث لا أتوقع.
ما أبشع الظلام! تتبلور فيه كل الأشباح وكل الهواجس، وتترى على العرش
اللكمات ومسيوف الأعداء.

اشتد غيظي وتذوقت الكره لأول مرة في عمري. فالكراهة له طعم من
الحنظل لا يترك اللثم، ورائحته تسد الأنف عاقماً أو بعض عام، يضيء نازاً
ويكوي الجوانح. تخيلت نفسي أضرب الشيخ عبد الجبار، بل أحياناً كنت
أتصور نفسي ألوح بسيفي فيركع طالباً العفو. رأيت أمامي أحمد غير الذي
أعرفه. ولكنني عشقت صورتي الجديدة؛ كالكأس الممتلئة بالخمير الفاسد
الذي لم يزل يُسكر ويقطع الأمعاء مقاً.

يقولون إن الشيخ عبد الجبار كله رحمة. يريد العفو عني مع أنني أستحق
أن أجلد ثمانين جلدة على الادعاء الكاذب. جاء ليزورني وكانت معه شمعة.

وضع يده على فمه ليكتم رائحة الأحجار التي نما حولها الفطر الإسفنجي.
لا أدري لم تتسم السجون بالعفن. هل لأنها تتوغل في العقل فتفقد براءته؟
أم لأنها تنزع من على جدار القلب شغافه؟ يقولون: إن الشيخ عبد الجبار
رحيم، جاء بالشمعة وحوله الحراس. ربما توقع أن أقبل يديه وأطلب
المغفرة، ولكنني لم أفعل. لمحت أخي وراهه أو شبه لي.

قال الشيخ في صوت هادئ: يا إخواني، هذا الزنديق جاء من الأندلس، من
مرمية بلد ابن عربي الكافر وابن رشد أيضًا. لا بد أنه تأثر بهما. هل تأثرت
بهما؟

لم أجب، وللحق لم أكن أعرف الكثير عن ابن عربي أو ابن رشد، ولكنني
سمعت أن أحدهما فيلسوف، والآخر صوفي، وأن الصوفية والفلسفة ربما لا
تجتمعان إلا على الكفر عند الشيخ «الرحيم» عبد الجبار.

هممت بالكلام فنظر لي أخي في عتاب، فقال الشيخ: يا أخي كنت أنوي أن
أزوجه ابنتي مع أنه بلا أهل هنا غريب بيننا، ولكن رحمتي به جعلتني
أأخذه ولذا، وها هو الجحود يتفشى من جسده. طلب منه أخي في رفق أن
يعفو عني، مد يده فقبلها أخي في وجل قائلاً: تقبل أسفي يا شيخ، هو
صغير أتم العشرين للتو، وكان دومًا غريب الأطوار.

مد الشيخ يده لأقبلها لكنني أشحت بوجهي، فركلني الحارس في احتقان
فلم أمتسلم، بل وجدت كل جسدي ينتفض، يرد الضربة بضربة والركلة
بركلة وكأني فقدت عقلي، وأخي يصيح في وجهي والشيخ يردد الآيات
بلا فهم والحراس يستغيثون .. كل الكره بداخلي انبثق من أطرافي
ووجدتني أدفع بالشيخ إلى الحائط، ولو كان معي سيف لحظتها لغرسته
في قلبه بلا تردد. فصرخ بأعلى صوته، وانهالت على رأسي عصا ففبت عن
الوعي.

لم أشعر بنفسي إلا وأنا نائم على الأرض في بيتنا الصغير وأخي يعتنني في شفقة. نظرت إلى النافذة قللاً: كيف خرجت؟

قال في رفق: يا أخي، لا بد أن تتعلم كيف تحيا، نحن لسنا في بلادنا، لا عائلة تحمينا ولا عشيرة ما تركه والدنا من مال هو كل ما نملك وأنت تعرف أن مرسية على وشك السقوط في يد الفرنجة أود أن أنصحك أن تتوقف عن الكلام مع الأشجار وتتعلم الكلام مع البشر.

قلت في يأس: ربما من الأفضل أن أعيش مع الأشجار.

- أنت لم تعد طفلاً ولن أستطيع أن أنقذك مرة أخرى. اضطرت أن أدفع للشيخ نصف أموالنا ليغفر لك.

- الله فقط من يغفر لعباده.

- أول ما تفعل هنا هو أن تثير عداوة شيخ كبير في القيروان! ماذا تنوي؟

لم أجب. لاحت الصور حولي، تارة أضع خطة لقتل الشيخ، وتارة أضع أخرى لخطفه وتعذيبه. وبدت كل الخطط ممكنة. ما أروع قدرة الفلة! وما أخطر خيال المظلوم!

تذكر أنك حملت رواية ماريو وأبو العباس حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة والنادرة.

والظلم ينمو كما حشائش البرية، والخير يُضمر تحت طيات الطين اللزج. ثرثرت الألسنة، وشاعت حكاية الغريب الفرمي الذي يتحدى شيخ المدينة، يدفع بي شاب وآخر يوبخني. ولم يجروا أحدهم على سؤال الأطفال. تحملت بعض الوقت ثم التفت حولي أبحث عن يسبني كل يوم، وجدته

شالاً قوياً اقتربت منه فجفل، أمسكت بتلابيبه محذراً فلكنني في وجهي،
لكمته لكمة بين راحتيها كل نفوري وغيظي للشيخ وله ولهم جميعاً. سألت
الدماء من فمه ووقع على الأرض، لم أدرك حجم قوتي حينها، قلت في رفق
وأنا أساعده على القيام: ابتعد عن طريقي تسلم.

السفر الثاني

انطلقت بفرسي وسط حقول القيروان، وكل ما أتمناه أن أبتعد عن كل
البشر وكل المصائب والظلم. صرخات الأم اليهودية لم تتركني، وصوت
الشيخ عبد الجبار وهو يأمرني أن أقبل يده ينهال على أذني كما المطارق
مجموعة. وضربات السوط بطعم القهر. وأقسم أنني لم أشعر بالرغبة في
القتل مثل اليوم. رددت الاستغفار ووغزت الفرس بقدمي ليسرع حتى
كدت أطيء في الهواء. فتحت فمي ليدخل الهواء البارد فيفرق عنقيد
الحقد من كبدي. تركت يدي، ومددت راحتي لعلي المس ذرات الهواء
المستعصية على الرؤية. صحت أمراً الفرس أن يسرع، ولكنه كاد يتعثر
ويسقطني من فوقه. هاج وماج ورفع قدميه الأماميتين خلفاً من حصان
يقف أمامه فيسد عليه طريقه. لم ألتفت لمن يمتطي الحصان، ولكنني قلت
في حدة: تقطع طريق فرسي يا سيدي. تحرك.

فقال الرجل في هدوء: فرسك يتألم يا أحمد وأنت لا تشعر به، لو مرض
الفرس فلن تصل. ما أسهل خوض الطريق بسرعة ثم التعثر سنوات! لتأكد
من عدتك قبل السير يا أحمد.

ارتبكت كما لم أرتبك من قبل. نظرت إلى عينيهِ وإلى عمامته البيضاء. لا
أعرفه ولم أقبله من قبل فكيف له أن يعرف اسمي؟ ولكن هذا يحدث،
نحن غريباء هنا، ربما مأل عنا، ربما كنا جيراناً ولم ندرك. ولكن عيناه

اخترقتنا صدري بلا هواة. بلغت ربيقي ثم قلت في صوت أقل حدة: يا سيدي..كيف عرفت اسمي؟

ابتسم ابتسامة هائلة مطمئنة لم أر مثلها منذ ولدت، ثم نزل من على حصانه وانحنى وأمسك برجل فرسي وتفحص أسفل قدمه وبدأ ينزع الشوك والفرس يتأوه ثم قال: انظرا فقد حدوثه عندما غاص في الطين، ثم اخترقت قدمه الأشواك لا بد يا أخي أن تراقب أين يغوص الفرس وليس فقط كم هو سريع.

قلت وأنا أحاول أن أنهى هذا الوهل الذي التلبنى: هل تعرف الكثير عن الخيل؟

أكمل والابتسامة لا تتركه: أعرف القليل، لا أحد هنا يعرف الكثير.

- هنا تقصد القيروان؟

- أقصد الدنيا.

صمت برهة أبحث عن الكلمات ولا أجد سوى الصمت. ويبدو أنني بقيت صامتا مدة طويلة حتى قال هو: تذوقت الكره فلم لا تتذوق الحب؟ ألم تخف من مسخط الشيخ وأنت تقف أمامه وتعارضه؟

مسيرة عبد الجبار كانت كفيلة بعودتي إلى الدنيا التي تركتها ربما لثوان فقلت: لم أخف.

- لا تخاف في الحق لومة لائم.

- لست متأكدا ما لو كان هذا إطرأ أم ذمًا.

- الصدق دوما هو الطريق إلى الله.

قلت في جفاء: وكيف وجد الشيخ عبد الجبار طريقه يا ترى؟

- ومن قال إنه وجدته يا أحمد؟

قلت بتأكيد: أقسم لك أنه لم يجده.

- لا تقسم ولا ترتكب الذنب. فأنت لا تعرف نفسه ولا نفسي ولا حتى نفسك.

- كيف تعرف اسمي؟

فرد قللاً:... ادع له بالهداية. سألتني من قبل.

- ادعو لمن؟ تقصد عبد الجبار؟ فليحترق في نار جهنم هذا الفاسق.

ساد الصمت برهة ثم قال: أرى قلبك صافياً ولكن الغضب كالغبار يحجب الرؤية.

- لا أفهم كلماتك يا سيدي.

فقال الرجل: كنت خائفاً يوماً أتوقع أن يقتلني السلطان، ثم ذكرني العليمان لا سلطان غيره، فخجلت من نفسي واستغفرتة. يومها يا أحمد توقعت السجناء أن تقطع أطرافهم من خلاف، كنت أردد أن غضب السلاطين كله جهل والجهل قسوة وعقاب وأنا غريب في هذا البلد مثلك كنت -يا بني- غريباً. لم أدرك حينها أن الغربة تتبع كل بني البشر وهممت أن أدعو عليه ولكن جاملي هلف من نفسي خائفاً قللاً: «إن الله لا يرضى لك أن تدعو بالجزع من مخلوق». وألهمني الله أن أدعو قللاً: أسألك للإيمان بحفظك؛ إيماناً يسكن به قلبي من هم الرزق وخوف الخلق. فطلبت من ربي أن أقرب منه فيحجب عني كل شر طلبت منه أن أقرب فأغيب في حضرته وأقوى، وليس أقوى من الملك لو تدري. لو ظلمك سلطان تلجأ للملك ومن

يعرف الملك لا يصاب بالخوف أو الغم أبدًا. ولكن هل تعرفه؟

قلت بلا تردد: بالطبع أعرفه وأحفظ كتاب الله.

- لم أسألك عما تحفظ بل عما تبصر. لا يعرف أحدا أحدًا إلا عندما يقترب.

دعوته وأنا منتظر السجن وقلت حينها: إني أسألك أن تغيّبني بقربك مني حتى لا أرى ولا أحس بقرب شيء ولا يبعده عني، إنك على كل شيء قدير.

التقت أعيننا من جديد، قلت بلا تفكير: أنا قريب من الله.

- بل هو قريب منك ولكنك لم تقترب بعد.

- وكيف تعرف هذا؟

- من غضبك.

- أي غضب؟

صمت من جديد وأخرج من جيبه دواء وضعه على قدم الفرس وهو يقول:

راع فرسك حتى لا تفقده. يقول تعالى: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾. كيف تسجد؟

- كل يوم في صلاتي.

- حبًا أم خوفًا؟

- ألا نخاف منه جميعًا؟ أم أنك مستقول لي ما قاله عبد الجبار إنني جئت

من بلاد الكفار وإني لا أعرف شيئًا عن ديني.

- حاشا لله أن أحكم على دينك يا أحمد، من أنا لأحكم عليه؟ لا يحكم عليه

سواه.

قلت: ولا تظن أن الله يعاقب الأم اليهودية بقتل أولادها؟

قال في هدوء: يقول في كتابه: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}. وفسرها الشيخ الأكبر بأن كل ما تحت العرش مرحوم؛ رحمته وسعت كل شيء، هو لا يعاقب أحياه ويرحم كل مخلوقاته.

- ولكن .. ما الرحمة في موت الأبناء؟ وهل يرحم الله اليهودية؟

- مهما ضيق البشر الرحمة فهي واسعة، هو يرحم كل عباده. استفت قلبك يا أحمد عندما يعجز العقل عن الوصول.. سرُّ القدر يعيا العقل عن إدراكه، وفي الاعتراف بالعجز عن الإدراك إدراك. اطمئن له لتقترب. هل يقترب منك شيء؟ من إنسان أو حيوان إلا عندما تطمئن؟ ثِقْ به ولا تثق بغيره.

- من أنت؟

- اسمي علي.

- من أي مكان؟

- من الدنيا ولكني أبغي وجه الله.

فتحت فمي في ذهول: ماذا تعمل هنا؟

- عبد فقير.

- لا تبدو لي فقيرًا يا سيدي من ملابسك ومن فرمك.

- بل كلنا فقراء، ومن يعترف بفقره ينبجُ أنا هنا لأؤكد أن فرمك بخير وأنه لن يفوص مرة أخرى في الوحل ولن يفقد حدوته أمتانك في الانصراف وألقي عليك السلام يا مرسي

- حيرني اللقاء كما حير الفرس المتهور فرسي ومكن أم أن الحدوة الجديدة أراحت قدميه من عناء الغوص في الشوك والطين الرث؟ ولكنني

تناسيت أمر اللقاء وركزت في أمر تجارتي مع أخي كأنني لم أقابل الشيخ عبد الجبار ولا ابنته. ازدهرت التجارة وأحببت رغد العيش وجمع المال. ازدهرت بسرعة النجوم، ولكن قسيمة لم تتركني أنسى. جاءت بعد حين، دخلت عليّ الخان ورفعت خمارها والدموع تتساقط، وحكت لي كيف أنها حاولت نسيان حبي ولم تستطع. التقت أعيننا برهة ولم أمال نفسي أصدقت أم لا. حتى وجدتها تقترب مني وتضع يدها على لحيتي وتمررها عليها وهي تهمس: ننسى الماضي ونتزوج.

قلت في بطن: قسيمة هذا لن يحدث.

قامت ونظرت إليّ في غضب ثم خرجت من الخان بلا كلمة. أغمضت عيني حينها ورأيت وجه الشيخ الذي كان يدرس لي القرآن وأنا طفل، هو الزيف نفسه والرياء نفسه. ثم وجه الشيخ الذي درس لي القرآن بعد الثامنة تذكرت صدقه وتدفق الكلمات من حلقه بلا تصنع. وكنت قد أغلقت قلبي عن الكذب حتى جاء أخي مهرولاً يخبرني في حماس أنه ينوي الزواج من قسيمة. قابلها ورأى جمالها وأخلاقها الحميدة لا تذر وازرة وزر أخرى، ما فعله الأب لا تدفع ثمنه البنت. ثم ماذا فعل الأب أصلاً؟ تأجج الفزع بداخلي وقلت له إن هذا مستحيل سألني لو كنت أريدها لنفسي ولكنني أخبرته أنني لا أوافق، ومع أنني أخوه الأصغر إلا أننا كل ما تبقى من عائلة والدنا ولا بد أن تبقى مقابلات خطوات الجفاء بيننا أخبرني أنه سيفكر في الأمر وازداد التوتر منذ ذلك الحين.

كنا نقف معاً في الخان ولا ينظر أحداً إلى الآخر. نبيع القمح ثم نضع الأموال في الصندوق ونقسمها في صمت.. نعود إلى بيتنا بلا كلمة.

دخل عليّ شابٌ يصغرنى بعدة أعوام وقال في ثقة: إنه يريد شراء القمح له ولكل بلدته وطلب مني أن نوfer له كمية كبيرة. فأخبرت أخي وأنا أتحاشى

النظر إليه. جلس الشاب ثم حرك عينيه ناحية محمد ثم ناحيتي ثم قال:
أنتما أخوان أم يعمل أحكما عند الآخر؟
قلت: أخوان.

فقال: حسنًا ما أجمل حظكما!

- عن أي حظ تتكلم؟

- أنتما في القيروان مدينة مباركة.

قلت في تهكم: نعم مدينة مباركة.

فنظر إليّ في امتياع وقال: ولكنك لا تعرف السبب يا أخي، هل تعرف
السبب؟ وهل متبيع لي القمح بثمن باهظ طمعًا في مكسب أكبر؟

قلت في حسم: نحن لا نفعل هذا.

ردد أخي: نحن أبناء عمر الأنصاري أكبر تاجر قمح في مرسية.

- نعم مرسية.. ثرى هل مستسلم للفرنجة ظنًا منها أنها مستنجو حينها؟ لا
شيء يخدع صاحبه مثل الأنفاس، لا أمان لها. الفرنجة مستدمر أثر البلدة.
أنت تعرف يا أحمد.

قلت في مرارة وهذا الحديث لا يستهويني: أعرف.

- الفرقة تؤدي إلى الهلاك، هكذا علمنا ديننا، وما هي الأندلس تتفكك كما
قطعة اللحم العفنة.

التقت عيناى بعين أخي حينها ورق قلبي حتى كدت أعلقه، وتمنيت رحيل
الشاب بأسرع وقت لأتكلّم معه. وكأنه سمع ندائي قام قائلًا: ولكنك لا تعرف
لَمْ أصبحت القيروان مباركة ولم تسأل.

قلت: لم؟

- لأن بها الشيخ أبا الحسن الشاذلي.

- البركة لا تأتي بوجود شخص ما.

قال وهو يقوم: البركة تأتي يا أخي بالنفوس الجميلة. هلا أتيت معي لدرس الشيخ أبي الحسن الشاذلي؟

أطرقت برهة ثم قلت: لا أعرف.. لا تستهويني الدروس، تعلمت وكفى.

ابتسم لي ثم ردد في استهزاء: تعلمت وكفى... يقول تعلمت وكفى! الدرس غداً فكرر في الأمر.

عانت أخي بلا كلمة ثم شرحت له خوفي وما حدث بيني وبين قسيمة منذ البداية بكل صدق. استمع إلي ولم ينطق فقلت في تأكيد: هل تعرف عني الكذب؟

خفت حينها على كسرة قلبه وقد بدا تعلقه بابنة الشيخ عبد الجبار. فقلت في حسم: أخي لن يفرق بيننا شيء، فقطع ما هو موصول من الله ليس من سمات الشرفاء.

ليلاً فكرت في أمر أبي الحسن الشاذلي. كلما أطل الفضول على رأسي تذكرت عبد الجبار فنفرت من كل الشيوخ. صليت صلاة استخارة وولمت ليلتي وحلمت حلماً لم أفهمه ولم أحكه لأحد.

كانني في بيتي طفل صغير أخاطب شجرة الزيتون أشكو لها ضياع الأهل والوطن. أحدثها عن وحدة ووحشة وسط المدينة، فأومض الضوء من زيتونة خضراء، ثم تبعها ثلالية، وثالثة، ورابعة، وخامسة. استمر الضوء

يخفق كما القلب النابض يدنو وينأى، يحجب ثم يتكشف للبصر كأنه أضاء
الدنيا أو بالكاد أضاء قلبي. انفرجت قضبان على صدري وذابت من حرارة
النور. لبرهة أصبت بشيء يشبه صحوة الموت ولا أعرف كيف أشرحها.
كلّني أغوص في بحر من الحرية والنور. وآية واحدة تتردد في نفسي (ـ)
نور على نور (ـ). لم تستمر اللذة المحيرة سوى دقيقة أو أقل، ولكن ضوء
الثمار لم يخسف. امتيقظت ونظرت حولي وصليت الفجر ثم عدت إلى
النوم والقلق لا يخفت. ثم حلمت من جديد كلّني أتسلق جبل زغوان
وحددي، وما إن أصل إلى قمته وأنا ألّهت حتى أجلس وأنا أصبح باسم الله.
بدت الدنيا محدودة بهية من حولي وجاملي صوت، فالتفت وكان هو
«علي» الذي رأيته يوم فقد فرسي حدوته. يرتدي عباءة خضراء وعمامة
بيضاء وينظر إليّ وهو يقول: عثرت على ما أبحث عنه. كنت أبحث عنك
أنت.

فتحت عيني وقد عزمت أمري على الذهاب لمقابلة الشاذلي.

ما إن دخلت على الشيخ أبي الحسن الشاذلي حتى تسمرت قدماي وفقدت
القدرة على النطق. إنه هو علي؛ من حلمت به أمس، ومن أخرج الشوك من
قدم الفرس. قام واستقبلني ببشاشة غريبة كلّني ابنه الذي تاه أعواما، ثم
أجلسني على رءاه الأخضر وقال: عثرت على ما أبحث عنه.. أنت يا أحمد.

الكلمات نفسها التي سمعتها في حلمي. لم أفهم ما يقصد لسنوات بعدها.

اقتربت لأقبل يده فنزعها في قوة قلألا: أنا العبد الفقير تعال إلى درمي
فريما نتعلم معا.

- ماذا تقصد يا سيدي نتعلم معا؟

- نجاهد النفس ونفهمها طالما حيننا. أحيانًا تومض النفوس الطيبة كالبرق بالمعرفة فتضج على غيرها.

فلتأت إلى درمي لربما استفدت منك. كل يوم تدفع بنا الحياة لموجة جديدة فتتبدى لنا النفس أكثر وفي مواجهة الأمواج تترك نفسك لتطفو. لا تظن أنها قادرة على المواجهة بدونه. اسجد حينها حبًا وليس خوفًا.

- أنت الشيخ الشاذلي ..

قاطني: الشيخ يفتح لك الباب، ولو نظرت بالداخل فلم تجد ما تبحث عنه لا تدخل. رحلة المعرفة رحلة وحدة كما الموت والحب.

بحث عني الشيخ الشاذلي قبل أن أبحث عنه، لكل عمر رحلة ووصول، ولكل نفس ما تبحث عنه وتتوق إليه. كنت أبحث عن طمانينة ومعنى للعيش. كانت الدنيا أمام عيني كالأحرف بلا حركات أو نقاط فالتبست لدي الكلمات وارتبك الهدف ذاته. لم بغيث التدريس للصغار ولم أبحث عن شيء أعمق من الحروف؟ للإيمان بالله يكفي فلم تؤرقني علاقتي به؟ أريد القرب والاطمئنان، أريد السكينة والسعادة. ربما قادني نحو الشيخ طموح بريء إلى الرضا ولم أدرك حينها ما أروم إليه ولا مخاطر الطريق.

* * * * *

السفر الثالث

شاطئ الإسكندرية

1245م 643هـ

الغربة كما الندبات التي تحيط بشغاف القلب، والوحدة لا تترك الصدر ولا تريحه. رأيت مدينتي أمامي تدنو وتنوء، يمحو الفرنجة معالمها فتهدم

المساجد ويفر الخلق ما بين حيران ومذعور وخائف ومترقب. ما أقبح
البشر وما أبشعهم! سفر البحر ينكأ الجراح، والأمواج تثقل علي الأحمال. لم
أر من بني آدم سوى البؤس والجهل.

وأنت يا هو يا الله، إليك أنت الجأ. قريني إليك فمحاولتي لا تبدو نافعة.
تركت طيب العيش ولبست الصوف، ذكرتك محزونًا في الغار وبين ثنايا
الجال، خفت من مخطك ولم أفز برضاك. ماذا تطلب مني؟ كيف لي أن
أعرف أنني اقتريت؟ وكيف لهذا الشيخ أن يطيب له العيش بين سفك
الدماء والغدر؟ أرى الاطمئنان في كلماته القليلة، والرضا في الأحداق
والتسليم بين الجوارح. ها أنا أحمل من مدينة إلى مدينة.. من مرسية إلى
القيروان، ومن القيروان إلى الإسكندرية والغم لا يتركني. أحمل غريتي
ووحدي لا أكثر. مات بداخلي الوطن وأنا أدرك أنه لن يُبعث، فلا فرصة
ثالثة ولا توبة هنا.

يا قريب، أنت القريب وأنا البعيد. قُربك مني أيامني من غيرك، وبعدي
عنك ردي للطلب منك. فكُن لي بفضلك حتى تمحو إرادتي بإرادتك يا قوي
يا عزيز.

تفحصت الشيخ وهو مسبورغ بالرحمة والرضا، خرج من تونس وهو يعرف
أن الحاكم لن يتركه لحاله، ترك وطنًا من المسلمين كما تركت وطني
للفرنجة. وما الفرق بين شاطئ وشاطئ والبحر كله أسماك يأكل بعضها
بعضًا؟ لو عدت اليوم إلى مرسية أقابل الأسماك المتوحشة بأنيابها الفتاكة
وعشوائية بطشها، ولو عاد أبو الحسن الشاذلي إلى وطنه يقابلهم أيضًا.
تغير عليه الحاكم وأصبح مصيره السفر أو السجن والموت.

دلني على الطريق يا ربي فقد أرهقتني القسوة وأضناني طول الأمل.

قال الشيخ وكله يسمع مناجاتي وعيناه تتجهان إلى ضوء الشمس النائي

من شاطئ الإسكندرية والسفينة تقترب كأنها نهاية الرحلة: يا أحمد.. ألق
بنفسك على باب الرضا وانخلع عن عزائمك وإرادتك..

وكان غبار الشمس يعبر سبر الأحداق فترقرقت الدموع لأول مرة والتفت
إلي وقال: أحمد لِمَ أنزل الله آدم للأرض؟

قلت بلا تفكير: جاء إلى الأرض ليسفك الدماء وينشر الفساد.

- هذا كلام الملائكة.

- رأيته بأم عيني.

- ولكن الله رأى القلوب ورأيت أنت الرسوم والصور.

- نقطة سوداء داخل النفس تدمر الأرض وما عليها.

فقال أبو الحسن: بل نقطة خير داخل النفس تقيم الأرض وما عليها، انظر
حولك.

- أرى الحروب والضلال.

- وأنا أرى الخير والحكمة.. الأثر والعلم، الرحمة والكرم، صفاء النفوس
ورضا الجوارح ورقة الأفئدة.

- يا سيدي ...

- أنت مثل الملائكة أعلم بأمور السماء عنك بأمور الأرض، ولكنك لا تعلم
بعد أمور الأخلاء والأحبة. لا تكثرث للشر.. أنت تعطيه أكبر مما يستحق. يا
أحمد..

- نعم يا سيدي.

- ثرى ماذا ينتظرك في الإسكندرية؟

- زهدت في الدنيا وما عليها.

- لم يخلقنا الله للسخط، الزهد أكبر من لبس الصوف. الزهد هو أن تثبت مع تقلبات الحال بنفس راضية، وتجعل الدنيا في كف يدك وليست في قلبك. لو لبست الصوف لأنك غاضب فلا قرب، ولو زهدت في الدنيا وهي في قلبك فأنت لم تعرفها. اعرف الله وكن كيف شئت.

- أعرفه يا سيدي.

- تصلي وتصوم وتدعوه بصدق أعرف، أعيتك الجبل، تهول للاقتراب منه خوفاً ورغبة في النجاة. اقترب لتفرح بقربه، اقترب ثقة وطمأنينة بلا مطالب وبلا خوف. لم أنزل الله آدم إلى الأرض؟ قلت بلا تفكير: ليعاقبه.

ابتسم ثم قال: آدم خلقه بيده، وأمجد له ملائكته وأمسكه جنته، ثم نزل به إلى الأرض؛ والله ما أنزل الله آدم إلى الأرض لينقصه، ولكن نزل به إلى الأرض ليكمله. ولقد أنزله إلى الأرض من قبل أن يخلقه بقوله تعالى: ﴿إِلَّيَّ جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. ما قال في السماء ولا في الجنة؛ فكان نزوله إلى الأرض نزول كرامة لا نزول إهانة، فإنه كان يعبد الله في الجنة بالتعريف، فأنزله إلى الأرض ليعبده بالتكليف، فلما توافرت فيه العبوديتان استحق أن يكون خليفته. وأنت أيضاً لك قسط من آدم، كانت بدايتك في سماء الروح في جنة التعريف، فأنزلت إلى أرض النفس لتعبده بالتكليف. فإذا توافرت فيك العبوديتان استحققت أن تكون خليفة.

لا أدري لو كنت أعي حينها تداعيات كلماته ولكنها سكبت على الفؤاد دواء محرراً، فسألت الله حينها في لهفة: بم تكلفني يا ربي؟ وكيف لي أن أعرفك

عندما يغيب وطن الطفولة لا بد من بناء أركان في الذاكرة، زوايا لأماكن خاصة بك وحدك حكراً عليك دون البشر كنت أفضل الوحدة على مصاحبة الناس منذ الصغر. كل فجر أخرج من باب البحر إلى فنار الإسكندرية، عند الفنار أشاهد من يغادر ومن يصل، وأرى الضوء الخافت للقمر تارة وللفنار تارة. أطارد الضوء أينما كان. ولعي بالأضواء جعلني أقضي كل أوقات فراغي هنا عند الفنار، هو أطول بناية رأتها عيني. كأنها تتضرع إلى السماء. أهل الإسكندرية يقولون إنها أقدم منارة في الكون. هنا أضاء أول ضوء ليرشد السفن الحائرة. ليس من العجب أن يختار اللاهث اللجوء إلى هنا، ولا من العجب أن التصق بنوافذها كما الغريق الهارب من بطش البشر. كنت أصعد إلى أعلى المنارة كل يوم أحياناً جرياً وأنا ألهث، وما إن أصل إلى القمة حتى أختلي به. عند قمة الفنار يستقر الفانوس الضخم منبع الضوء للسفن والمسافرين وعند قمة الفنار أبحث أنا عن ضوء أكثر اتساعاً وحرية من ضيق البحر وحدود العالمين.

في الطابق الأول من المنارة تتعدد النوافذ وتمتص نور الشمس والقمر معاً. الطابق الثاني مئمن الأضلاع والثالث دائري، ووسط فراغ الدائرة يكمن السر الذي أبحث عنه. ولكنني لم أجده بعد، ولكني حاولت وينست وصرخت ونجيت الراحلين كما الطفل التائه. هذه المنارة عجيبة؛ ليلاً يرى المسافر نورها من بعيد، ونهاراً تنعكس المرأة المعدنية على الشاطئ لتنبه السفن بنهاية الرحلة. هذه المرأة قرأت عنها وولعت بها. تمنيت واحدة داخل نفسي ترشد وتدل. كل يوم أحاول فك لغز المرأة ولا أعرف. بدأت تسيطر علي حتى أتيت بالكتب القديمة وحاولت تعلم لسانها ولم أحجج إلى الكثير من الوقت. كنت أتقن لغة الفرنجة، ولغة القدماء قريبة منها. بحثت بلهفة عن كيفية نقل الخشب إلى أعلى الفانوس، وتعلمت حينها أن العلم يقف عاجزاً

عن فهم الماضي. هل تحركت الحمير ظلوعاً ونزولاً بالخشب لإشعال
الفلانوس؟ أم أن هناك ابتكاراً استعصى علي فهمه؟ ومن هو الحاذق في
الهندسة الذي بنى هذه المرأة المعدنية؟ أصبحت أقضي يومي أحاول أن
أفهم من النور المنتفخ من أسفل إلى أعلى. أغمض عيني وأسمع أصوات
السفن وحركاتها. أحياناً تتمثل أمام عيني سفينة تغرق بأمي وأبي، وأخرى
تحمل فارين من بلادي. كم سفينة أتت من بلادي إلى الشاطئ أرشدتها
الأنوار إلى الإسكندرية! من يأتي هنا يعرف أن العودة مستحيلة كان العمر
قصير على عبور البحر مرتين. أثر يمحي وآخر يبني، هذا يدنو من النور
وهذا ينوء.

كنت أجلس عند الفناء كل فجر كأنني أنتظر سفينة تحمل معها النجاة ولم
تأت بعد. مر عام وراء عام، قضيت أيامي في التجارة والقراءة، أصبحت
القراءة هي سلوأي عن كل غربة، أقرأ عن الحساب وعن المنطق وعن
الهندسة، كما أقرأ كتب الشيخ الأكبر وحجة الإسلام والقشيري وأبي طالب
المكي. ولكن عندما قام شيخي من نومه وهو لا يرى، تسرب الخوف ثم
استقر. فقد أبو الحسن الشاذلي بصره وفقدت أنا الطمأنينة التي اكتسبتها
خلال السنوات القليلة في الإسكندرية؛ لماذا؟ ماذا فعل أبو الحسن الشاذلي
ليستحق هذا البلاء؟ مآل ماورني كما الومواس.. فرددت: كل قضاء الله
خير. وكان الشيخ ممعني فوجدته يردد: ذهب العمى وجاء البصر..
قلت في شفقة: يا سيدي..

- يا أحمد انظر ببصر الإيمان واليقين تر الله في كل شيء. أما الحواس فلا
يعقل عليها. خلق لنا الروح والقلب والعقل؛ لأنه يعلم قدرنا عنده ويتوقع
منا كل جميل.

قلت في ألم: يا شيخي..

- قضاء الله خير يا أبا العباس، انعكس بصري على بصيرتي فأصبحت كلي مبصرًا.

ثم أملاني الرسالة لأكتبها إلى أصحابه في تونس والذهول لا يتركني من رضاه بالقدر وشكره على القضاء: «أكتب الكتاب إليكم من الثغر حرمه الله ونحن في سوانح نعم الله نتقلب، وهو بفضلته وبوده إلينا يتحجب، قد ألقى علينا وعلى أحبنا كنفه، وجعلنا عنده، فما أطفه! ندعوه فيلبينا، وبالعطاء قبل السؤال ينادينا، فله الحمد كثيرًا كما ينبغي لوجهه الكريم وجلاله العظيم. وأما الأهل والأولاد والأصهار والأحباب ففي سوانح نعم الله يتقلبون، ويأحسونه ظاهرًا وباطنًا مغفورون. نسأل الله المزيد التام العام لكم ولهم أجمعين، وأن ينوب عنا في شكره، إنه أكرم الأكرمين».

ولكن الراحة التي تكلم عنها شيخي لم تكن تطرق خاطري إلا قليلًا. لم يزل القلق يسيطر على أيامي وانتظار الخطر يورقني، وجاء الخطر كما توقعت. خرجت من بلادي قبل أن تقع في يد الفرنجة ولكن وثب ورأى الخطر فلا مفر. هجم الفرنسيين على مصر ظنًا أنهم يرفعون اسم الله عاليًا. اضطرب المصريون وازداد يأثمهم عندما استقر ملك الفرنسيين في دمياط واتخذ مسجدها كنيسة. كأنني أرى بلادي مرة أخرى وأهلي والخراب الذي ميعم. الحروب لا تخيفني ولكن يفزعني القسوة باسم الرب والمحو باسم الورع. خرج أهل مصر يدافعون عن بلادهم وخرج معهم الشيخ أبو الحسن الشاذلي.

تذكر أنك حملت رواية ماريو وأبو العباس حصريا ومجلانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة والنادرة.

السفر الرابع

المنصورة

1250م 648هـ

في لحظات الخطر تتصرف اليد باستقلالية مفزعة. بارزت الفارس
الإفرنجي بكل قوتي، ضغطت على سيفه، دفعت بجسده إلى الأرض،
صارعته عندما هم بلکمي، راوغته وهو يهاجمني، تملصت من قبضته وهو
يهم بغرز الخنجر في يدي ثم أغمضت عيني وارتجفت شفتي وميضي
ينهاه على صدره.. إلهي لقد كزّته إلى قتل النفس التي خلقتها، ولكن لا
مفر اليوم؛ إما أن أقتله أو يقتلنا جميعًا. يا رب، لو فعلت ما يفضيك
فرحمتك واسعة.

شهد لي كل أمراء المماليك منذ قدومي مع الشيخ أبي الحسن الشاذلي إلى
المنصورة أنني أسوأ مقاتل راوه. فلنا أتردد وأنا أصيب السهم، أفكر وأنا
أغرس السيف، يختلج صدري وأنا أرمي بالرمح. قالوا: هذا رجل لم يُخلق
للقاتل الحشي، يجاهد نفسه نعم، ولكن ما باله بجهاد الفرنجة؟. بعد إعلان
النفي العام أصبح من واجب كل إنسان أن يقاتل. أمسكت بيد شيخي
ومررت به على كل أزقة المنصورة ثم حدود دمياط، يدعو الشاذلي الناس
لقتال الفرنج والسيف في يده. تمكن الفرنج من دمياط قبل عام. قالها
الملك الكامل في الماضي: المسلمون في ضلّقة، وإذا أخذ الفرنج الديار
المصرية ملكوا إلى حضرموت. وردها الأمراء. ولكن الملك الصالح نجم
الدين أيوب يحتضر اليوم في الديار المصرية أو ربما مات منذ أيام. كنت
أحكي لك عن كرهني للقتال. قضيت السنوات السابقة في الإمكندرية أتعلم
وأناجر وأحارب نفسي وغضبي. كنت أبحث عن الجمال ومسط القبح،
وأساعد المندب قبل التائب. أزور السجناء وأستمع إليهم، أخفف عنهم

وأدعو لهم. بدأت أرى ذرات متناثرة من الخير وسط العفن. واليوم عند بحر
أشعوم لا أرى سوى القبح. لو كنت تختبرني يا ربي فلا أعرف إذا كنت
سأنجح. إليك أنت يا الله أدعو، سامحني لو قتلت عبدًا من عبادك فكلهم
عبادك الكافر والمؤمن. واغفر لي كرهى اليوم لجهل البشر وكبرهم، حاولت
أن أكره أفعالهم ولا أكرههم ولكني لا أدري إذا كنت أستطيع.

كنت أحكي لك عن هجومنا على الفرنجة من حين إلى حين وتمركزنا
جميعًا عند المنصورة. طالما بحر أشعوم يفصل بيننا وبينهم فلا دخول لهم
إليها. لو دخلوا من دمياط إلى المنصورة وانتصروا ضاعت مصر ومعها كل
البلاد. اليوم خرجت مع بعض الجنود لنقوم بهجوم مفاجئ على عسكر
الفرنج المستعدين للقتال. واليوم غرمت سيفي في كتف الجندي.. واليوم
تغيرت حياتي.

سمعت الصراخ والجندي يهوي على الأرض وكنت أن أفقد لتزالي حتى
إنني لم أدرك هل جاء الصراخ من ورائي أم أمامي. فتحت عيني أنظر إلى
الجندي الملقى على الأرض.. لم يأت الصراخ منه. أدت وجهي فرايت
فارمًا يرفع يده بسهم بعد أن رمى بآخر للتو فاستقر في صدر أحد جنود
الفرنجة. لوهلة اختلط علي الأمر أعدت كل المشهد أمام عيني. كنت
أصارع جنديًا همّ بقتلي فضربته بالسيف، ثم جاء جندي آخر من جنود
الفرنجة لقتلي وكاد يغرز سهمه في ظهري، جئت مع مرب من الجنود
ولكنني لا أرى أيًا منهم. لم يكن معي إلا فارس ظهر كأنه جن سليمان. لولا
الفارس الملتئم الذي باغت جندي الفرنجة بسهم في صدره كنت مأسبح
ميثًا. انتزع الفارس السهم من صدر جندي الفرنجة في قوة وبلا أي تأثر
وأعاده إلى جهته ليستعمله من جديد. من الصعب شرح ما يحدث في
الحروب.

متى اختفى من حولي السرب؟ ومتى ظننت أنني منتصر؟ فوجدت أن
الخطر ليس من السيف في يد الجندي الذي أمامي، بل من السهم المصوب
خلفي. ولم أزل غريبًا أقاتل وحدي. حدثت في الفارس ومرارة القتل
تصيبني بالدوار وأنا أستغفر ربي بلا توقف. فقال الفارس في حدة: لقد
أنقذت حياتك للتو، هيا انزع سيفك من كتف الجندي وارجل من هنا. ما
طلبه مستحيل، كيف أستطيع أن أنزع السيف وأنا لم أزل أعاني من غبش
ليل القتل؟ تملكني الدهول فجأة وأنا أسمع صوت الفارس. لا بد أنني
فقدت عقلي لحظة القتال. التقت أعيننا أنا وهو ولم تخطئ أنذائي ولا
عيناي. من يتكلم معي ليس بجندي ولا برجل بل امرأة.

أغمضت عيني وأنا أظن أنني في سكرات الموت ثم فتحتهما وقلت وأنا
أنظر حولي: كيف..

قالت في نفس الثبات: كيف ماذا؟ كيف أحارب كالرجال وتتردد أنت في
قتل الجندي؟ لأنني أعرف مصير البنات في يد جنود الفرنسيين يا رجل.
ولكنك ستحتاج إلى أن تؤمن ظهرك بعد ذلك، ابحث عن السرب الذي تنتمي
إليه.

قبل أن تكمل وقبل أن أفكر أمسكت بيدها ودفعت بها إلى الأمام لاتفادي
رمحًا قد أتجه ناحيتها، ثم جريت بها حتى كادت تتعثر وأنفاسها ترج
الأرض رجًا وورامًا ثلاثة جنود دفعت بها إلى أحد البيوت وطلبت منها أن
تصعد إلى سطح البيت وتختبئ هناك، فأبت ومدت يدها بسيفها وهمست
وهي تستقر وراء عمود البيت المظلم: سيجدوننا الآن. قلت لك: خذ سيفك
ولم تطاوعني؛ خذ سيفي أنا إذا ولا تتردد ولا..

قاطعتها: توقفي عن إعطاء الأوامر وجوبك هنا خطأ أصلًا.

- لقد أنقذت حياتك.

- ولكنك امرأة!

نزعت الفطاء من على وجهها، نظرت إليها في الظلام وأكاد أقسم أنني رأيت كوكبا دريا يبرق في عتمة الليالي؛ وجهها المستدير وعينيها الواسعتين والشموخ في لحاظها والكرامة في فيها. سقط قلبي أو كاد. نسيت أين أنا وماذا أفعل. لهنيهة جفلت، ثم غفلت وتملكني صحوة الموت فقلت: وجودك هنا خطر تعالي أعيدك إلى أهلك.

قالت: عد أنت إلى أهلك، فلا قدرة لك على القتال، أما أنا فقد تدربت طوال عمري.

- يا سيدتي..

- ابحث عن السرب الذي تنتمي إليه.

وضعت يدي على فمها في تلقائية ففتحت عينيها في فزع ولكنها أدركت ما يحدث أمام البيت المهجور. دخل جنود الفرنجة يبحثون عنا فسمعت حسيشا كأنه حسيس النيران. لم أعرف بالضبط هل أحرقوا البيت بنا أم أن أقدامهم نيران تحرق النفوس. حركت جسدي حتى تكون ورائي وبحثت حولي عن أي سلاح، فأعطتني السهم وانتظرت، ثم أطلقت السهم فنفذ إلى الصدر مباشرة، ولم أعرف إن كنت قد أطلقته أنا على قلب العدو أم أخذته بنفسه من يدها ليرموه في فؤادي. سقط الجندي أمامي فحاول آخر أن يرمي بسهمه فتفاديته وأخذته وربطته إلى صاحبه فأصاب كتفه. عم الصمت. بعد برهة تسالت خارج البيت فلم أجد سوى جندي ميت وآخر جريح يتأوه. أمسكت بيده وجررته ورائي إلى داخل البيت وأمسكته على العمود القلام وأنا أنظر إلى جرحه فقالت في غضب: ماذا تفعل؟

- لم يزل حيا.

- لكننا سنموت لو لم تتركه، لا وقت لدينا لهذا، أصحابه يعالجونه.

قلت في تأكيد: بل لو تركه يموت.

نزعت عني قميصي وربطت به الجرح الذي أغرق ذراعه وقلت بلفظه التي
أتقنتها منذ الصغر لأنها كانت لغة أمي أيضًا في مُرسية: لا داعي لهذه
الحرب، تعرف أنه لا داعي لهذه الحرب، الطمع نهايته الفناء.

لا حروب باسم الرب يا أخي، الله في كل مكان اعبدہ حيثما تكون، لا تسافر
المسافات بحثًا عنه، فلو لم تجده في قلبك فلن تجده.

قاطعتني في استهزاء: لقد فقدت عقلك! ماذا تخبره؟ إنه عدوك!

قلت فجأة: أين بيتك يا اختاه؟

- هذه المدينة بيتي.

- أريد أن أحميك..

- أحم نفسك لو استطعت يا شيخ.

- وكيف عرفت أنني شيخ؟

- تتقن الكلام ولا تفرق بين من يسمع ومن لا يسمع.

- لأننا لا نعرف أي كلمة تصيب القلب.

ابتسمت وأمسكت بشعرها لترفعه وترتدي العمامة مرة أخرى وقالت:
أخش على قلبك يا شيخ أن يصاب في هذه المعركة. أما أنا فلا تخف علي،
أعرف كيف أحارب.

ثم اتجهت إلى الباب فقلت مسرعًا: ما اسمك؟

ابتسمت وقالت في رقة لأول مرة: لطيفة.

خرجت من البيت فتتبعته بعيني وخرجت وراها والخوف عليها ينتشر في الأحشاء وقلت: لطيفة، لا تخرجي وحدك.

رفعت سيفها ثم قالت: لا تقل لي هذا مرة أخرى يا شيخ.

- ما الذي أغضبك في كلامي؟

- من أنقذك؟

- أنت.

- إذن لا أحتاج إلى حمايتك.

- كل الجنود تحتاج إلى الحماية.

- إلا لطيفة. السلام عليك يا شيخ.

جرت بأقصى سرعة حتى غابت عن عيني ونهاوى وراها الفؤاد. نظرت حولي أفكر كيف أصل إليها، فجريت بأقصى سرعة لألحق بها.. لكنني لم ألحق بها وتلاشت وسط الفوضى.

كنت أكره القتال.. نعم، ولكنني رأيت أهوال الحروب متمثلة أمام عيني، وأطعمتني الحرب رائحة الكره والدم فلفظت كل ما في جوفي. أراد الفرنسيين أن يتوجهوا إلى القاهرة مباشرة وحدثت الخيالة. الخيالة تحدث دومًا، تعلمت هذا في سنواتي الثلاثين. كنت أقول لك إن ما منع الفرنسيين من دخول المنصورة هو بحر أشموم. ولكن للبحر أسرار

ومفاتيحه، بل أحدهم الفرنجة على مختلض وسط البحر يمكنهم العبور منها إلى المنصورة. فهربت أسراب من الفرنسيين والإنجليز مُحقلة بالسلاح والخيول وأذهلوا جيوش بني أيوب في الجديلة. حتى دخل الفرنسيين قصر الأمير فخر الدين يوسف وكادوا يصلون إلى شجر الدر زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب. سمعت صرخات النساء وأصبح القتال أمراً لا مفر منه، أتى المصريون من كل فج عميق وهم يدركون الخطر المحيط بهم.

هرونا لإنقاذ نساء القصر وحراسة زوجة السلطان أم خليل شجر الدر. ها هو الأمير قد مات والملك مات أيضاً. أخفت شجر الدر الخبر وأمسك أمراء المماليك بقيادة الجيش وبالمعركة وبمصر. كنت أعرف الأمير بيبرس البندقاري، دريني بنفسه وأظن أنه لم يحب ترددي ولا طريقي حتى إنه شكاً إلى شياخي قلاً: أتركه يعظ الناس فهو لا يصلح للقتال.

لكني رفضت. لو قاتل كل المصريين كيف لي أن أعظ؟ ومن أعظ؟ هذا خطر يحتاج إلى الحرب وليس العظة. كنت أفكر في لطيفة كل يوم وكل ساعة بين أنفاسي ولحظاتي وحركة يدي. كيف يجتاح الحب المعارك؟ وأي حب يحيا وسط كل هذه الدماء؟ أسهر على حراسة القصر ويسهر بجانب صديق الحرب محمد البوصيري. تنعس عيني بسنة الكرى فأسمع صوته يحكي عن حبه لآبنة الأمير فخر الدين الأيوبي التي استغاثت به عند موت والدها هنا في الجديلة.

أقول في تهكم: تحب أميرة يا أخي؟ ماذا تروم من هذا الحب؟

فيجيب البوصيري: وهل للعاشق أن يختار؟ أحببتها وتمنيت أن أدثرها بأحشائي من كل خوف، قوت القلوب ملكني يا أحمد.

قلت في شفقة: وهل لك أمل في الزواج من الأميرة؟

فردد: الحب لا يعقل الآمال ولا يزنها ميزان العدل.

- كلماتك كما كلمات الشعراء يا محمد يا بوصيري. يا أخي، سقمي من سقمك، وشففي كما شففتك، ولكن من أحبا تبدو كفار من جان يختفي كلما دنوت، ويتملص من بين ساعدي كلما طويته.

المنصورة 1250 م

كلام الحروب لا يُعَوَّل عليه. سمعت السب والشتائم، سمعت من يصرخ باسم ربه وهو يفوص في لجج لا نجاة منه. رجل يفقد ذراعيه، وآخر يفقد عينيه، وثالث يفقد أولاده. سيف يترك كل الأمالي، ومهم يثقب أغوار الفرح. سمعت بأذني بعضهم يصيح: أين أنت يا رب؟ تقول إنك موجود وتتركنا بين يد الفرنجة ينتصرون؟

أعرف هذه الأنفاس وهذا خاطر وتلك العينين؛ رأيتها تداوي الجرحى وكأنها هي ولكنها ليست هي. فقد تبدلت الشجاعة بالحيرة والجرأة بالتوجس، اقتربت مني وبدأت تنظف جرح ذراعي، نطقت اسمها لأطمئن نفسي: لطيفة..

التفتت حولها ثم تظاهرت أنها لا تعرفني ولم تجب. قلت من جديد: أحمد الله أنك بخير يا أختاه.

نفزت ذراعي، فتأوهت، فقالت وهي تقطب حاجبيها: اثبت يا رجل، هو جرح بسيط.

فتحت فمي لأتكلم فقالت في حسم: أنا لا أعرفك، أتركني أضمد جرحك، هناك الكثير من الجرحى.

وأخفت عينيها عني ثم ابتعدت قبل أن تقترب.

فتحت فمي وعدلت عن الكلام. رأيت أمامي طفلة خلفه واجتاحني الحنين. كنت أراقبها عن بعد خوفًا عليها من الأذى. ليلاً رأيته تخرج من خيمة الجرحى، تلتفت حولها وترت على السيف في رداها. ثم هوت إلى الأرض وعضت على أصابعها بأمنائها وممعت صوت تشنجات البكاء. جلست موازيًا لها وقلت وأنا لا أنظر إليها: هل أهلك بخير؟ أنت بخير؟ لم تجب.

فقلت: لو أخبرتني ما الذي يخيفك أساعدك. ابتسمت بين دموعها قلالة: إذا كنت أنا من أساعدك وأنقذت حياتك. قلت وخفقات قلبي تملأ المساء: أنت أشجع مني هذا أكيد. نذهب إلى بيتك، أنت لست بخير.

- لا أريد الذهاب ولا أمتطيع.

- والدك غضب منك؟

- هو لا يعرف شيئًا.

ممعنا صوتًا يقترب من بين الأشجار. شهقت واحتضنت نفسها ونظرت إلي مستغيثة، ولولا خوفي على صونها لطويتها بين ذراعي وأبقيت عليها إلى أبد الأبد.

قالت في صوت متقطع: سأبقى هنا حتى الصباح، لا أريد أن أبرح هذا المكان. هل تبقى معي؟

قلت بلا تردد: أبقى معك ولكن لم تبقيين هنا في الصقيع؟ ادخلي خيمة الجرحى.

قالت في حسم: لا ولو أردت الذهاب فانهب.

خلعت لها عباوتي وافرشتها لها فجلست في ترقب وابتعدت أنا عنها خجلاً وعيني لا تترك ظلها. أدركت حينها أن للحب تعريفاً واحداً، هو أن يجتمع الناس حولك ويتفرقوا وأنت غالب عنهم، لا زمن ولا مكان يقيدك، حالك في مقتلتيه وروحك تحوم حول أنفامه.

قالت بعد برهة: أنا أعرف من خان..

لم أندعش، كنت أشعر منذ رأيت حبال الخوف تتخلل قلبها النافذ الجريء. قلت: تقصدين أنك تعرفين من دل الفرنجة على المخلّض في بحر أشموم؟ هو ليس بغريب عنا، هذا أكيد، وليس بمسيحي كما يدعي البعض.

التفتت حولها في يأس وقالت: لا أعرف اسمه ولكني رأيت.. ورآني.. سيقتلني قبل أن أخبرك.. أو أشهد عليه. لو قتلني أخاف حزن أبي. عندما رآني وهو يتفق مع الفرنجة هرول ناحيتي فجريت بأقصى سرعة ولكنه توعد بقتلي. لقد سمعته.

شهدت على تردد أصابعها وقبضتها على قلبها كأنها توبخه ثم قالت: أنا لا أخاف، أنا أخاف على أبي، لكنني أحارب مثل الرجال، ربما أفضل.. طالما معي ربي وميافي لا أخاف.

كتمت ابتسامتي فنظرت إلي في غضب وقالت: هل تسخر مني؟

- بل أعلم منك الشجاعة.

التقت أعيننا فقالت في إحباط: كنت أتوقع أن أكون أكثر شجاعة.. ها أنا أرتجف كالنساء.

- بل كالنساء.

- أنت..غير باقي الرجال هنا..

- كما أنك غير كل النساء هنا..

تحركت من مكاني فرفعت يدها وأمسكت بقميصي بلا تفكير وقالت في رجاء: لا تتركني..

- لم أكن أنوي تركك، لا أستطيع.

نظرت إليها وإلى أصابعها التي تشبث بقميصي فجفلت هي، ثم ابتعدت قليلاً وقالت: ليتني لم أر ما رأيت، كل هذا الدمار ما أبشع البشرى وما أقساهم!

فقلت: ولكن هناك بشر مثلك لا تنسي.

- قليلون من يجودون وقت الخطر ويرحمون في لحظات الخوف.

كنت أعرف شارعها وهذا يكفي. عند انتهاء الحرب أريدها لي. كلني أريد أن أقبض على الحرية التي شعرت بها في أحداقها، وعلى الحيرة التي تصاحبني وعيني لا تنظر إليها. ساعات قضيناها مقتربين مبتعدين، نختبر الكواكب ونخاطر بالطير للنجوم. لا تسألني عن ماذا تكلمنا حتى اقترب الصبح.. ربما لم نتكلم، ربما حاولنا فقط أن نبقى على لحظة الانسجام التام وجمال ضوء الطمانينة وسط الثجى. ثرى لِمَ يحاول الإنسان دومًا أن يقبض على لحظات الرضا والأمان؟ أرى أننا خُلقنا للرضا لذا نبحث عنه، ولكننا نبحث حينما لا يسكن. هذه الطاقة للبحث هي ما لا أفهمه أو ما لم أفهمه بعد. قبل انتهاء الليل جاء الفراق المصحوب بالخطر.

فهذه الأشجار لا تتحرك عبثًا، سمعت صوت صياح الجنود المصريين ورأيت المعسكر محاصرًا بجنود الصليبيين. كنا مائة ما بين جريح ومريض، ومعنا

عشرة جنود لا أكثر وخمس عشرة امرأة تساعد المرضى. لم يكن هناك أمل في النجاة.. هجم الصليبيون على المعسكر.

رأيت سيوف الصليبيين حول رقاب الجنود وأيديهم تقترب من النساء. سمعت أصوات الجرحى تحوم في الهواء وعرفت.. اقترب مني الجندي أو كاد، لم يزل بعيدًا، ولم يزل هناك لحظات تفصلنا عنهم. أمسكت بها.

قبل انتهاء الساعة سيفصلون النساء عن الرجال ومتصبح هي جارية عند الصليبيين. كنت أدرك هذا. اقتربت منها وأنا أنظر حولي ثم قلت: هل تثقين بي؟

حركت رأسها لتنظر إلي فقلت مسرعًا: لا تنظري إلي، أهمني بما تريدان.. - تسمع جيدًا يا أحمد.. حتى وسط الضجيج، أنا لست خالفة. الله معنا. أم تخاف يا شيخ؟

قلت في مرارة: أقول لك الحق.. أخاف عليك..

رأيتها تغلق عينيها ثم تنتفض ضلوعها وهي تقول: أريد أن..

قاطعتها: هي محاولة.. انظري إلى هذا الفرص البائس أمير في يد الجندي.. أريدك أن تمتطي الفرص بأقصى سرعة وتهربي..

فتحت فمها في فزع: مستحيل.. وسط الجنود..

- عهدتك مؤمنة..

- ماذا تنوي؟

- لا تسألي.. عند موائلك الفرصة أهربي ولا تنظري خلفك ولا تبحثي عني..

عديني أن تهربي، أموت ولا أراك بين يدي الصليبيين..
- أنت..

قلت في حسم: تنفيذ ما أطلبه.. لا تنظري وراءك..

ثم رددت وهي تبتعد وتلفت إلي: لا تنظري وراءك..

قبل الانتهاء من الكلمة اندفعت بكل همتي ناحية الجندي الذي يسير أمام
الفرس، وألقيت بنفسي عليه بكل ما أوتيت من قوة ونزعت سيفه ووضعته
على رقبته فترك زمام الفرس من يده... هاج الجنود وتمتموا بالكلمات.
صحت بالإفرنجية أنني لن أترك الجندي إلا بعد تحرير كل النساء. شعرت
بها خلفي تمتطي الفرس وتختفي من جديد.

ما إن جرى الفرس حتى احتشدت النساء الواحدة تلو الأخرى يجرين
ويصرخن..

مر الوقت لا أدري كيف، وكلما حاول الجندي أن يتحرر سيطرت عليه بما
أوتيت من قوة في لحظتها، كانت معجزة ربما. اقترب آخر فركلته، وآخر
فعلت نفس الشيء. مرة وثلاثاً وأربعاً. كانت قوتي حينها تكاد تحيط
بمعسكر الجنود والمنصورة ودمياط. خرجت أنفامي واثقة.. والخوف
يوقظ الهمم أحياناً.

انقضّ عليّ جندي قللاً في قوة: اقتله وينتهي الأمر.

حاول أن يدفع بي إلى الأرض فلم يفلح. نظرت حولي فوجدت الفوضى
تعم والنساء ما مكنت أن تجري بأقصى سرعة حتى اختفى أثرهن. قلت:
هات حصاناً.. لو فعلت أتركه..

قربوا مني الحصان.. تركت الجندي وامتطيته، وقبل أن أهم بالتحرك

انهالت عليّ مهام الصليبيين، انضيت ويدي تمسك باللجام والأخرى على
رأسي ووغزت الفرص لعله يجري ولم أشعر بشيء بعدها. خيم ظلام يتسع
مرة ويضيق أخرى.

غمر الألم كل الجوارح، حتى الآه أصبح نطقها مستحيلاً، لكنني شعرت
بهينيه تخترقان الجروح وصوته الجاف الساخر يقول: أصيب الشيخ العابد
كان الكرامات حقيقة يا أخي.. كيف لمثلك أن يعيش، لا أدري! ولكنك أنقذت
كل نساء البلد من الأمر والذل. ثرى.. هل أخطأت في حكمي عليك يا
أحمد؟

قطبت ما بين عيني ولم أنطق فقال في صوت حاسم: أجب يا أحمد عندما
يسألك القلاد. انظر إلي.. من ترى..

حاولت فتح عيني بصعوبة ثم قلت في بطء: بيبرس..

- ها هي مكرات الموت تأتي محملة بالشجاعة.. بيبرس فقط.. بلا أستاذ
مثلاً. قلادك بيبرس، أستاذك يا جندي..

جلس بجانبني والصوت يزعج الجروح وقال: أحمد ليس أي جندي.. أحتاج
إليه معي، لا بد أن يستعيد عافيته لأن الحرب لم تبدأ..

قلت تلاتها: هرين؟

ابتسم في حذر ثم قال: كأنك تريد السؤال عن واحدة بهينها يا رجل.

لم أستمع النطق ولكني تيقنت أنني حي، واجتأضي خوف مظلم بأنني لن
أراها بقية عمري ولن أعرف هل نجت أم لا. الخاطر لم يسكن القلب ولكنه
أصاب الفؤاد ففتته.

وضع أمراء المماليك خطة مختلفة، تقهقروا داخل البلد وادعينا الهزيمة وانتظرنا دخول الجنود إلى أزقة المنصورة، هنا انقضضنا عليهم. رأيت العامة تحارب بقوة الملائكة وجرأة المماليك، ارتبك عقلي، تارة أذكر قبح الهزيمة، وتارة أشهد على جمال الشجاعة. كنت أفكر فيها ولكنني كنت أفكر في مصر وفي مرمية وفي شيخي وفي نفسي. تغير الحال وأصبح جيشنا هو المنتص قتل أمراء الفرنجة الواحد تلو الآخر كنت أحارب وعيني عليه هو، جندي من الفرنجة ليس كأي جندي، يتلأأ الهدف بين لخطه، وتبرق يده التي تمسك السيف. هو الملك.. ملك الفرنجة. يضرب بإخلاص من اقتنع بهدفه وتواري داخل بغضه. لم أستطع كرهه ولكنني أشفقت عليه. اجتمع الجنود المماليك حوله وكانوا يقضون عليه، وهو يستمر في حربه ولا يبالي، يحارب للرب وباسمه، أو هكذا تبدى لي. صحت بهم: أوقفوا القتال.. هذا الملك.

هرولت ناحيته لحظة اقتراب السيف من قلبه وصحت للجنود بالتوقف. رفع الجنود السيوف التي كانت مستتقر في صدره، فقلت بلفظه: الأمر أفضل للملوك.

قال في تحد: لو كنت تتكلم لغتي لم تتبع هذا الكفر؟ هؤلاء كفار.

قلت: عندما نجتمع عنده سندرك أننا قاتلنا هباء. فغايات الطرق كلها تؤدي إليه. ولكنها لا بد أن تكون ممثلة بالرحمة. اطلب الأمان حتى لا يقتلوك.

نظر إلي برهة ثم قال: أنت قس مسلم ولكنك على ضلال.

لم أجب فرفع سيفه في وجهي فرفعت يدي قائلاً: هذا ملك الفرنج وقد استسلم.

نظرت جانبي ورأيت أحد الطواشي يدعى جمال الدين محسن الصالحي

وقد قيد الملك بقيد من حديد ثم ذهب به إلى دار القاضي فخر الدين إبراهيم بن لقمان. أوكل إلى الطواشي صبيح أن يتحفظ عليه. وهولوا يخبرون الأمير ببيرس البندقداري. ولكنهم أيضًا هتفوا باسمي وهللوا بأني أمسكت بالملك وأمرته. تنمو الحكاية من أطراف الحكاية وتنتفخ النفوس وتصاب بالتخم. صاح الناس باسمي.. أبو العباس... أحمد، من جاء من بلاد بعيدة.

اخترقتني الأعين وتسلسل الزهو إلى نفسي فوغز الضلال أطراف عقلي.. يهتف من حولي، الجندي أحمد أبو العباس، من جنود الحلقة، أمر ملك الفرنجة، يتكلم لغتهم، يفهمهم، هو شيخ وجندي، له كرامات، انظر كيف طوع الملك نفسه، يا أحمد..

خرجت الأنفاس من صدري ثقيلة كالمغشي عليه. يهتف لك الناس يا أحمد فماذا أنت بفاعل؟ يظنون أن لك كرامات، يا من تدعي الزهد في الدنيا. هل تشعر بالزهو يا أبا العباس؟ هل تشتعل نفسك بنيران البطولة يا صوفي؟ دارت أقدامي حول الأرض في بطاء فالتفتضت نفسي تقاوم القهر والهزيمة. رددت لنفسي، كرامة الولي أن يتخلص من أوصاف نفسه يا شيخ.. تذكر كلني أفقد الرؤية أمام الجموع. أمسك بي أحدهم وحملني على كتفيه وجرى بي ووراءه البقية إلى خيمة الأمير ببيرس. قبض الشيخ على ملك الفرنجة..

سار الطواشي جمال الدين محسن الصالحي وكان الملك مقيدًا بين يديه، والهتاف لا يتوقف. رجل يمسك بيدي ليقبلها، وآخر يمسح على رجلي ليأخذ البركة، وقلبي منقبض كأنه سيتوقف، وعيني زالفة، والضعف نذير المحن. أفئدة أم ابتلاء تلك؟ رددت اسمه وتكلمت معه.

وضعوني أمام الأمير ببيرس وهو ينظر إلي في تهكم ثم قال: أحمد مرة

أخرى! كيف حالك يا شيخ؟ أنت دوماً في خاطري.

قال رجل في حماس: هذا ملك الفرنج يا مولاي الأمير بيبرس. أمسك به أحمد أميرًا، وها هو بين يدي الطواشي..

نظر إليّ بيبرس فقلت في هدوء: مولاي.. الملك بين يديك ولو أننت لي أعود إلى الإسكندرية وأنا أعرف أنه لن يُقتل.

- تدافع عن ملك الفرنج؟

- العهد دين.

- هل عاهدته؟

- الأمير لا يُقتل يا مولاي.

- الممالك لا تغدر في الحرب يا شيخ. الملك لن يُقتل، ولكنك بلوت بلاء حسنًا.

نظرت حولي ثم قلت: إذا سمح لي مولاي بكلمة.

صرف بيبرس الحضور ثم قال: ماذا تريد أن تقول يا أحمد؟ هل مستطلب المال أم الولاية؟

ساد الصمت برهة ثم قلت: لو سمح لي مولاي أن أعود ليلاً إلى الإسكندرية مع شيخي. أحيانًا يبحث الناس عن بطل وقت الخطر عن فارس قادر ورع وحليم، يزداد الحماس حينها ويفقد الفارس الهدف والمراد. فتنة حب الناس أبشع من فتنة ازدرائهم.

- ماذا تقول؟ أي كلام هذا؟

- أحمد لم يفعل شيئًا، حارب مثل كل أهل مصر. من جاء بالملك إلى هنا هو

الطواشي جمال الدين محسن الصالحى.

- ولكنك أنت..

قاطعه في رفق: أنا رأيته يحارب كملك يظن أنه قديس لا أكثر. اسمح لي أن أرحل.

- تريد أن تتجنب فتنة الغرور أم تخاف من غيرة السلطان توران شاه؟

- الله هو عالم بالقلوب. ليت حربي كانت بالسيف والرمح. هناك حروب أوعر وأقسى تنتظرني.

- تحارب من؟

- أحارب نفسي.

أصيبت نفسي فلا مفر لمست كلمات الإطراء أطرافي كأنها أيدي الساحرات الفاتنات، ولم أعرف الدواء بعد. لجأت إليه لجوء الفقير ولكنني لم أكن متأكدًا أنني لا أفتخر بالإطراء ولا أرضى بكل هذا الإعجاب.

في الطريق إلى الإسكندرية كنت هالفاً حائزاً؛ مرة لأن الإطراء أصاب النفس، وأخرى لأن الحب أصاب القلب. ظننت وأنا في الخامسة والعشرين بأنني وصلت إلى المعرفة والحب. تقبلت قضاءه بصبر واختليت به في الظلام وقرأت كتابه ودرسته، ثم ماذا؟ وأنا في الثلاثين تبدت لي طرق لم أدرك وجودها، قالها حجة الإسلام: من لم يفهم إلا حب المحسوسات، كيف يؤمن بلذة النظر إلى وجه الله تعالى وما له صورة ولا شكل. أدركت أن أمامي ميّزاً وجهاداً لأعرف. أدركت جهلي فبدأت طريق المعرفة أو كدت. نعم انتهت الحرب وحن موعد العودة إليها. وجاءت اللحظة التي انتظرتها

منذ البدء؛ لحظة التقاء الروحين بلا فراق. ذهبت إلى شارعها مهرولاً أبحث عنها، فلم أجد أثراً لأي بيت. ناح الفؤاد وكذب ما رأى. استفتت بكل الجيران أخبرهم عن صفاتها وشكلها، لطيفة، تدعى لطيفة، تحيا في هذا الشارع. قالوا إن كل من في الشارع هرب أو قُتل.. لا أحد يعرف. ولم يسمعوا بهذا الاسم ولا يعرفون من يسكن هنا. تغيرت الأحوال وقت الحرب وتقلبت الأماكن كقلب يونس في بطن الحوت، ولم يعد للطيفة أثر. ولم ألو العودة دونها.

* * * * *

السفر الخامس

التحم القلق بداخلي بالإرادة. سأجدها حتى لو عبرت كل شواطئ البحار وعاصرت هبوب الرياح على كل جبال الأرض واخترقت القفار دون قمر ولا دليل. عيناى تبحثان في العالمين، أدعو الله جهراً ومراً ثم أخرج باحثاً بين ثنايا الدنيا. عدت إلى دمياط، إلى المنصورة، أبحث عن دليل واحد، أي شيء. أوبخ نفسي على غفلتها وعقلي على غشاوته. لا سألها من تكون، ولا تأكدت من شيء سوى شارعها. ظننت أنني أعرفه؛ كنت أعرفه. لم أخبر شيخي ولكنه عرف ولم يواجهني. رأى ببصيرته الندم في مقلتي والحزن والسقم يدثران جسدي. لم أكن أستطيع الشرح له بعد. خلوت إلى ربي أحدثه، طلبت منه أن أجدها في دمياط كل مرة أرحل إلى هناك أبحث واليقين يصاحبني وأعود والغضب يطفو على السطح يا ربي لم يعد لي سوى أخ وحيد! أنت قذفت الحب إلى قلبي فساعدني أن أتغلب عليه أو أطفئ نيران الغضب التي تضطرم في الفؤاد.

إليك أنت أشكو همي، رافقتني هي يوماً أو أقل وكنت حينها أتوق إلى العيش وأنطلق كالحمام بلا خوف ولا حذر.

مر شهر وراء شهر استمرت في التعلم والقراءة والتجارة ومرافقة الشيخ، والقلب لا يهدأ ولا يفيق. لم أتوقف عن البحث ولا تركني الأمل.

ناداني الشيخ أبو الحسن الشاذلي اليوم.

جلست بجانبه في بطن، اللهم يسري بين أنفاسي ويبرق من بين أضلعي، وكنت أعرف أنه يعرف. ربت على يدي وقال بصوته العميق وهو يرفع يديه إلى السماء: يا عزيز يا رحيم، يا حكيم يا غني يا كريم، يا واسع يا عليم، يا ذا الفضل العظيم، اجعني عندك دالقا، وبك قلقا، ومن غيرك سالقا، وفي حبك هالقا، وبِعظمتك عالقا، وأسقط البين بيني وبينك حتى لا يكون شيء أقرب إلي منك، ولا تحبني بك عنك، إنك على كل شيء قدير.

مرت قشعريرة في كل جسدي وشعرت بضالة حي أمام حبه وبضالة همي أمام يقينه. ثرى هل أصل لهذا المقام يوما؟

أكمل: اللهم هب لي من النور ما يجعلني غنيا بك عن تجديد النظر لشيء من المعلومات. إلهي افتح علي وأظهر لي الحق حقًا والباطل باطلا. اللهم ارزقني من كنز لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها كنز من كنوز الجنة، واضربي بها ضربًا تمحق بها من قلبي كل قوة؛ وأغني بذلك الرزق عن ملاحظة النفس والخلق، وأخرجني به عن ذل الفقر والتدبير والاختيار وعن الغفلة والشهوة ومشينة النفس والقهر والاضطرار، إنك على كل شيء قدير.

رددت الدعاء وراءه ثم ساد الصمت دقايق. ولطالما ساد الصمت المستنير بيننا. كان يفهمني وأفهمه. قلت بعد حين: أفعلت ما يفضبك يا سيدي؟

قال في هدوء: لا أغضب منك أبدًا يا أحمد، إنما خلقت لتكون أنت أنا وأنا أنت.

شهقت في وجل وقلت: يا سيدي أين أنا من علمك ويقينك؟!

- مفاتيح القلوب بيد الله يفتحها إذا شاء كما شاء بما شاء، هكذا قال الإمام الغزالي.

أطال نظره إلي ثم قال: تكلم معي عن الحب.

أطرقت برهة ولم أنطق. فقال: كل مُحِب مُقيد بما يحب. هكذا قال الإمام وهكذا تعلمت. لا تجعل لك محبوبًا ولا معبودًا سواه.

قلت في أمسي: يا سيدي.. أمرنا بالحب لعباده.

- تحب كل مخلوقاته على علم لا على جهل. تحبها لأنها مخلوقاته، ويبقى هو معبودك، ويبقى هو صاحب القلب والمتحكم به.

لم أنطق. قطبت حاجبي فقال: أعرف ما يجول بخاطرک، كل خطوة تخطوها تقربك من الحقيقة، ويوم تستوي لديك الأقدار وتطمئن النفس تدرك بعضًا من الحقيقة وليس كلها.

صمت الشاذلي ساعة أو أكثر ثم قال: ماذا تنوي يا أحمد بعد أن أنتقل إلى ربي

قبل أن أنطق قال وكأنه يقرؤني: تريد أن تهزل الناس وتتعبد إلى ربك، أعرف.

قلت في رفق: يا سيدي، لم أخلق للخطابة في المساجد، وأخاف من الذنب أكثر من خوفي من الفقر والفراق.

- أبو العباس أحمد الفرمسي، قضاء الله نافذ، جئت إليها بتكليف من الله وليس لك اختيار في تكليف الملك. بعد بضع سنين تقعد مكاني وتتكلم

بلساني وتزيد.

لم أنطق، وكنت أكره الحديث أمام الناس، وأكره الظهور والرياسة، وأخشى
الكبر والتمسك بموطن الرحلة.

قال في حسم: تتكلم عن نفسك وكأنك تملكها، ولكنها ملكه هو يفعل بها ما
يشاء. كأنك يا أحمد تخاف على نفسك ولا تأبه بنفوس الآخرين. لكل زمن
رجل صالح يعبد الله على عيان ومشاهدة، يراه ببصيرته ويعرفه بفؤاده
وليس لهذا الرجل اختيار واجبه أن ينشر الضوء، وأن يذكر الآخرين
بالجوهن، ويخرج اللؤلؤ المكنون، ويهدي إلى ربه من يريد الهداية ويطلبها
منه. أنت هذا الرجل.

- أين أنا من المرابين الآخرين؟! حتى نفسي لا أسيطر عليها. درس معك
عبد الباري أكثر مني وهو أعلم مني.

- أنت غير كل الآخرين. الصفاء يملأ قلبك، جلوته بنور المجاهدة والرياسة،
ولكنك لم تصل بعد، أعرف.. تحتاج إلى المحنة، وبعد المحنة يأتي التمكين.
قلت في أمي: كل أيامي محن يا سيدي.

- بل كلها نعم يا أحمد، ولكن المحنة كسواد القلم تطفى على الصفحة
البيضاء. أريد أن أخبرك بشيء.

- أستمع إليك يا سيدي.

- بعد أن أستمع مع ربي لن يصبح الصديق صديقًا ولا العدو عدوًا. سينقلب
عليك البعض طمعًا في الرياسة، وميخونك أعز الأصدقاء. حب النساء فتنة
يستطيع الرجل السيطرة عليها أحيانًا، وحب المال أيضًا، ولكن حب السلطة
والقوة والرياسة يذهب بعقول الرجال، هو أكبر الابتلاءات ويصاحبه

الحسد والبغض. لا تبال ولا تكره، ادعُ ربك أن يقويك. هو ربك القلم عليك.
هو القيوم وهو ربك الذي رباك على رحمته ولطفه. أمسك الرسالة ولفعل
بها ما تشاء. أنت مكلف يا بني، لا تجعل ضيق العيش وغدر البشر يوقفانك،
ولا تجعل رغد العيش والعز بين الناس يضللك. ابق كما أنت أحمد الأعم
بأحوال السماء عن أحوال الأرض.

أمسك عبد الباري بيدي قللاً: الشيخ يأمرك بالكلام يا أخي.

ابتسمت له. صديق رأيت منه كل خير منذ اصطفت شيخاً وهو معنا
يستمع في حماس ويحفظ ويساعد ويعمل في التجارة مثلي تماماً، ولكنه
يتاجر في الأقمشة وأتاجر أنا في القمح.

فتحت فمي أبحث عن الكلمات.. الكلمة فتح وهبة من الله، رزق كما الرحمة
في القلب ونطفة الشوق في الصدر. تكلمت ولا أدري ماذا قلت بالضبط.
تلهم لساني أمام الشاذلي وخفق قلبي وارتعد. عند الانتهاء اقترب مني
عبد الباري وقال: هذه أول مرة. في المرة القادمة تكون أكثر شجاعة.
قلت مسرعاً: أتمنى ألا يكون هناك مرة قائمة.

ناداني الشاذلي فذهبت إليه، أمسكت بيده وأمسكته ليقوم فقال وهو ينظر
إلى الأفق ببصيرة نافذة: أتخاف من الكلام في وجودي يا أحمد؟ ترتجف
وشيخك في المكان أو ماذا ستفعل عندما تقف بين يدي الله يا بني؟
بلعت ربقي ثم قلت: فليعطني الشجاعة لهذا اليوم.

- تخاف الوقوف بين يديه؟

- علمتني أن الرحمة تنتصر على الغضب، والحب ينتصر على الخوف.

- ها أنت تتكلم بالأنفاس، ولكنك لم تكن تريد الحديث اليوم.

لم أجب. فأكمل الشيخ: لقد جاء زمن زيادة النيل، أريدك أن تقيم بمسجد المقص بالدكة خارج باب البحر في القاهرة. هناك حجرتان فوق المسجد تتخذهما بيتًا لمدة ثلاثة أشهر وتخطب بين الناس وتقيم الدرس بدلًا مني.

- يا سيدي..

- هذا تكليف يا أحمد.

- ولداك أحق مني بهذا.

- ولداي يعرفان كلام الله ويدركان معنى التكليف. لهما رزقهما وعملهما في هذه الدنيا ولك عملك. تكلم بصدق كما تفعل دومًا.

رحلت إلى القاهرة مضطربًا متذمرًا. أدت البعد خشية الفتنة، فوجدت نفسي محاطًا بالأثم.

خطبت بين الناس في حماس لم أتوقعه وزالت الرهبة. ولكن الغم والشوق إليها لا يتركاني. سأبحث عنها في القاهرة. هذه مدينة كبيرة، ربما غادرت مع أهلها خوفًا، وربما لم أستطع نطق الكلمة ولكنها نفذت إلى عقلي.. ربما مللت، وربما أخذها الفرنجة أسيرة. ولكنهم أعادوا الأسرى؛ هل أعادوا كل الأسرى؟ الشك أعظم ألما من الخوف وأكثر وطأة على الجسد من المرض.

تردد اسمي في القاهرة.. قالوا: تلميذ الشاذلي الشاب له كرامات، يعرف السر ويتقنه. يقولون: أتى من بلاد بعيدة نحتاج إليه في هذا الغم وهذه الشدة.

وجدت الناس يلتفون حولي لأول مرة.. أم تدفع بابنها الرضيع إلى صدي قللة: سيدي، بارك هذا الطفل الوليد بنفحة من ثناياك.

فقلت مسرعًا وأنا أعيده إليها في رفق: تصدقي يا أختاه الصدقة بركة.

- ولكن بركتك تعم كل الدنيا.

- أنا عبد فقير تطلبين من ميت ومعك الحي الذي لا يموت!

ثم جرى نحوي عجوز يقول في وهن: أعطني دعاء يشفي المرض.

- لكل داء دواء، ابحث عن دواء عند الطبيب، ولو لم تجد فتوكل على الله
ومسلم له في مقدوره، ولكن اسمع أولاً ثم مسلم.

- سيدي، حار الأطباء، لا علاج لي، أعطني أدعية بخطك أو رقية.. الشيخ
الخضر يفعل هذا..

استغفرت ربي ثم قلت: عليك بفحص الداء ثم طلب الدواء، ولو لم تجد
فلتصبر وتشكر الله أن داءك كان في البدن لا في القلب. تطلب من ميت
ومعك الحي الذي لا يموت!

جامني شاب قللاً في يأس: ازداد الغم بي ولم أعد أعرف الطريق.

- طريقه سهل، وصبره طويل، وحلمه ليس كمثل شيء. تطلب من ميت
ومعك الحي الذي لا يموت!

- أي شيخ أنت؟ لا كرامات لديك!

- كراماته تنتظرك أنت.. لو لم تحجب عنه ولو برهة ورأيت في كل شيء.
الكرامة هي الاستقامة. استقم كما أمرت تجد الرضا. جاهد نفسك ووهبك
وطلبك الرياسة والفخر المجاهدة صعبة وطلب التملأ والأدعية سهل.
وبلا مجاهدة لا وصول إلى الباب. قالها الشيخ الشاذلي: ينست من نفع
نفسي لنفسي، فكيف لا أينس من نفع غيري لنفسي؟!

انتفض الناس من حولي في حيرة. أبو الهامس غير الشيخ الخضر لا
يطلب الهدايا ولا ينتظرها ولا يملك مفاتيح محربة وليس له معجزات.

انتاب أهل القاهرة الحيرة.. أي شيخ هذا؟ ولكن كلماته تهدئ الوسواس.

في الصباح ألح علي عبد الباري في طلب ابنة شيخي ولكنني لم أجب.
خرجت مرة أخرى بحثًا عنها؛ لطيفة. مررت في طريقي على بليس أخلو
في حدائقها وأدعو الله وأصبح باسمه، وهناك قابلت صديق الحرب
والجهاد؛ البوصيري. التقت أرواحًا في حب مستحيل؛ فأميرته بعيدة عن
ناظره وقدرته، ولطيفة لا أثر لها كلها أضغاث أحلام. لم أكن أتوقع أن أرى
محمدًا البوصيري يعمل في الحسبة في بليس، تأملته وهو يحارب بين
الأرقام ويتوه في الحساب كما يتوه الطفل في مسالك بغداد. بعد أن انتهى
رحب بي ودعاني إلى بيته، تزوج وامراته تحمل أول طفل لهما. قال لي في
أمني: لم أزل أشكو من شظف العيش وقلة الرزق ولكنها أيام أفضل من
حرب المنصورة، هذا أكيد.

ردت: كل أيام الله جميلة.

- لم تزل صوفيًا كما رأيتك أول مرة، ولم أزل أنا محمد البوصيري، أعجب
بك وبالصوفية ولا أجد طريقي إليها. العلم غير العمل.

- صدقني يا أخي، طريقي أنا أيضًا يحتاج إلى حروب كحرب المنصورة
لكنها أشد وأخطر فلا ممالك تنظمها، ولا خطة تفبر أسوار النفوس.

- تتكلم كما شيخك. وما أجمله وأجملك! هل وجدت المحاربة التي ملكتك؟

ساد الصمت، فقال في رفق: يا أحمد الرزق مقسوم، أنت تعرف هذا، تبحث
عنها منذ أكثر من عام. ربما..

قاطعه مسرعًا: لا تقل هذا.

- أخشى أن تسير وراء أوهام نفسك.

- بل أمير وراء صدق الفؤاد.

- تزوج وعش حياتك.

- لا أستطيع أن أكذب أو أظلم.

- من يدري؟ ربما تحب زوجتك. لم لا تعتبرها ماتت؟ فقد اختفت واختفى مسكنها، ولو ماتت فمن حَقك أن تعيش أنت وتقوم بواجباتك.

- أعيش وأعمل وأتعلم، ولكني لا أكذب على نفسي، لا أستطيع.

- كأنك لا تريد الزواج من ابنة شيخك. هذا شرف كبير.

- شرف لا أستحقه.

عدت إلى القاهرة وحضرت بين يدي شيخي.

طأطأت رأسي فقال الشيخ مباغتاً: لا تريد الزواج من ابنتي زينب، أليس كذلك؟

قلت بلا تفكير: حاشا لله يا سيدي، أنا لا أجرؤ على طلبها، ولا أرتفع لهذا المقام، ولا أعتبر نفسي أهلاً لابنة شيخي وأستاذي وأبي.

- الصدق لا يتركك يا أحمد منذ رأيتك أول مرة.

فهمت ما يعني فقلت: القلب مهموم، هم من الشيطان، ولكني أعرف مقامي ومقام ابنتك يا سيدي.

- عن أي مقام تتحدث؟ عن عبد لا يملك شيئاً، فقير ذليل أمام ربه من يخدع من يا بني؟ كلنا فقراء أمام غناه، وكلنا عاجزون أمام قدرته. أحمد.

كنت تبحث. بلغت ربي وقلت وأنا أعرف أنه يقرأ أفكاري: كنت
- تملك قلبك المحاربة.

قلت بصدق: مفاتيح القلوب بيد الله، هكذا علمتني.

- ها أنت تردد كلمات الإمام الغزالي وتفهمها. الإنسان يتملكه الوهم فيضل
وسط شوقه ولوعته؛ لأنه مقيد بوقته وزمائه.

- علمتنا أن من لم يحب لا يصل إلى الله.

- صدقت يا بني في اليقين طمأنينة، ولكن بعض العذاب واجب. يظهر
النفس ويزكيها. لم تخبرني من قبل؟ عامًا كاملاً تحملت وحدك
لم أجب.

- لكنني كنت أعرف. رأيت نيران الحيرة تضطرم بين أضلعك وتضيء
وجهك.

نظرت إلى عينيه الهائمتين فابتسم وقال: قلت لك من قبل، فقدت البصر
وأصبحت كلي بصيرة. هذا أيضًا من خير الله علي، كل أمر بني آدم خير

قلت في أمي: هل أنت غاضب مني يا سيدي؟

- بل أنا فرح بك لأنك صادق، لكنك تحتاج إلى الوقت. لا حجاب إلا الوقت.
امسح وأعمل ثم اترك نفسك بين يديه.

- أحاول

وتكلمت معه..

إلهي، سترت عني مكالي منك حتى عصيتك وأنا في قبضتك، واجترحت
ما اجترحت فكيف لي بالاعتذار إليك؟ إلهي، جذبك لي أطمعني فيك،
وحجابي عنك آيسني من غيرك، فاقطع حجابي حتى أصل إليك، واجذبني
جذبة لا أرجع بعدها لغيرك.

يا ربي، يا الله، أشهدي كرمك على بساط رحمتك وأرضني بقضائك،
وصبرني على طاعتك وأوزعني شكر نعمتك وغطني برداء عافيتك حتى
لا أشرك بك، إنك على كل شيء قدير.

انتهيت من صلاتي وكلماته لا تترك أنني: قد يرحل المرء لمطلوبه والسبب
المطلوب أمام عينيه.

في الصباح ذهبت إليه أسأله عن مقصده بحماس فقال: شيخك من علمك
كيفية السؤال لا من أعطاك الإجابة. شيخك يشير إليك بالمسلك ولكنك
تسير فيه وحدك، في علاقتك به تسير وحدك دومًا. لا تقيد نفسك يا
صوفي بإنسان أو دنيا أو شيء، كلها لا وجود لها، شيخك يوصلك للباب
وأنت تطرقه وتدخل وحدك.

تركني أكثر حيرة وأكثر فضولًا، خلوت بنفسي أياها في فئارة الإسكندرية.
أحيانًا تخترقني الدنيا، وتارة أغيب عنها ويتخللني الوجد إليه وحده.

الشوق على قسمين؛ شوق على غيبة لا يسكن إلا بقاء الحبيب، وهو شوق
النفوس، وهذا أعرفه وأعيشه، لكنني اليوم لوهلة قصيرة تذوقت شوقًا
آخر شوق الأرواح على الحضور والمعينة. اشتقت إلى حضرته، اشتقت أن
أهيم حوله مطمئنًا به وبرحمته. كنت أصل ولم أصل. كنت أعرف ولم
أعرف. كنت أجد سرائر الأزل لكنني في حيرة من أمري. خاللت مرّي
محبه مثل إبراهيم، ولكنني لم أملك رضا إبراهيم بعد ولا تسليمه. كنت
أعرف وكنت أطلب مقامًا غير ما أنا فيه ولا أصل؛ تارة يصيبني اليأس،

وتارة أعاود المحاولة. أبحث عن سرائر الأزل وسط فناء الدنيا فأجد نفسي متعلقًا بالعلائق لم أزل، ولكنك هنا يا الله داخل الجسد والروح.

عدت إلى شياخي وقد عزمت أمري، أريد أن أتعلم أكثر وأقرأ أكثر أما زواجي من ابنته زينب.. فقد عزمت أمري أيضًا.

أدخلني عليه ابنه محمد قال إن الشيخ ينتظرنى ويعرف بمجيئى.

جلسنا مقًا صامتين ثم قال: جئت تخبرني أنك تريد العلم.

- المعرفة يا سيدي كما علمتني تؤدي إلى الجنة. ليس أسوأ من مقام الجهل للمؤمن. أن أعرف الله على علم ثم أقوم معه بعد ذلك هو هدفي.

ربت على يدي ثم قال: وجئت تخبرني عن قرارك من الزواج من ابنتي.

قلت في تردد: تعرف ما في نفسي دون كلام.

ابتسم ثم قال: أحمد أعلم بالسماء عن الأرض، لا يكذب على نفسه ولا يقوده الوهم. قررت أن تتفرغ للعلم والعمل ولا تريد الزواج من ابنتي.

قلت في ارتباك وقد قرأ خاطري: سيدي لست أهلاً لها، تستحق من يعطيها وقته وقلبه ويخلص لها بروحه وليس بجسده فقط.

ساد الصمت برهة ثم قال: تعرف أن الإنسان مقيد بجسده.

- أعرف.

- وأن الإنسان مقيد بعقله أيضًا.

لم أفهم قصده، فأكمل: يقول الله في كتابه إنه يرزق عباده من حيث لا يحتسبون؛ لأن خيالهم لا يدرك ما الخير لهم وما الشر. العقل قيد نتحرر منه

فقط عندما نتقرب من الله في لحظات القرب، والحب حرية، ولكنها لحظات شئنا أم أبينا، فهي دنيا كالسجن. نتحايل عليها ونفدي أنفسنا من القيد ودوما نطلب عفو.

بقيت ساكنا، لم أستطع أن أخبره أنني أدرك أن ابنته رزق ولكنني لست أهلا لهذا الرزق ولا أستحقه، لم أر زينب طوال عمري، خجلت من زيارة شيخي وهو مع زوجته وابنته حتى وأنا صديق لولديه.

سمعت دقا على باب الحجرة فقال لي الشيخ: قم يا أحمد وافتح للطارق، لا تؤاخذني يا بني..

قمت مسرعا وفتحت الباب والتفت إليه قلنا: أمرك سيدي، فتحت الباب.. هل للنظرات أن تتواصل مع الأطراف والأنف والأذن وأن تصل إلى أعماق الوجدان؟ لم أحتج إلى النظر أمامي ولكن الشهقة التي خرجت منها جعلتني أنظر أمامي وأتسمر في مكاني لا أستطيع النطق.

وضعت يدها على فمها وارتجفت كفها وكأنها تود أن تمدها إلي تلتقط بها فؤادي. والتقت أعيننا. هي لطيفة.. في بيت شيخي. ليست في دمياط ولا أميرة عند الفرنجة.. ماذا تفعل هنا؟ هذا هو السؤال.

قال الشيخ في بطم: زينب تعالي يا ابنتي..

هويت إلى الأرض جالسا بجانب الشيخ حتى لا ترى ارتجافة أطرافي. واقتربت هي من والدها وجلست بجانبه، مد يده وأمسك بيدها ثم قال: ماذا بك؟ ترتجفين؟ هل تشعرين بالصقيع؟

قالت في صوت مبحوح: لا يا أبي.

قال وهو يشير إلي: هذا أحمد أبو العباس من مرمية. هو كالابن لي، كنت

قد عرضت عليك الزواج منه، هل تتذكرين؟ منذ عام وكل يوم كنت أطلب منك أن تفكري ورفضت. الغريب يا ابنتي أنه هو أيضًا لم يوافق. يبدو أن الفبار قد أصاب بصيرتي، كأنني شعرت به سيوافق، وبأنك تريدونه كما أريده لك، ولكنني ربما أخطأت للأسف. فاحمد يا زينب.. يا لطيفة..

قال وهو ينظر إلي كأنه يراني: زينب لها اسم آخر تناديه بها والدتها، لطيفة. تفضل هي هذا الاسم على زينب، هل تصدق؟ أردت فقط أن أقول إنني أفهم أن الوفاق أهم شروط الزواج؛ لذا فقد.. قاطعته: سيدي، اسمح لي.. أتمنى.. بل هذا شرف لا أستحقه لو قبلتني زوجًا لابنتك.. لو..

قال وهو يضغط على يد ابنته: وكيف أقبلك وأنا أعرف أنك تحب محاربة في مياط؟ قلت في لهفة وعينايا لا تتركان عينيها: لا هي هنا.. كانت أمامي وقادني الوهم، فلم أبحث.. أعذرنِي، تعلمت الدرس. أعذرنِي يا سيدي، أقسم إنني لا أريد غيرها في هذا العالم وإن..

- هذا لا يستحق القسم يا أحمد.. هي أيضًا لم تكن تريدك..

قالت في صوت مبحوح وهي تقاوم خجلها: أبي.. أوافق.. هذا أحد تلاميذك و..

- تريدونه لأنه تلميذ لي؟ ولكنك لا..

قالت في رجاء: بل أوافق.. أوافق ليس فقط لأنه.. تلميذ لك..

ضربت بكفي على رامي كأنني أفيق من غبش أو سُكر. كيف لم أفهم ولم أبحث؟ كيف لم...؟

قلت مسرعًا: لو تسمح لي بالزواج منها يا سيدي..

ابتسم قليلًا: مافكر في الأمر. أعطني بعض الوقت استشير إخوانها

ووالدتها.

رايتها تنطق اسمي.. رأيت شفتيها تتحركان بلا كلمة وصاحت عيناى بكل كلمات الحب الممكنة. أغمضت عينيها وخرجت دمة فمسحتها بيدها ثم أعادت يدها ليد والدها فقال: أتبكين يا زينب؟ لو كنت ترفضين الفرسي.. قالت: لا يا أبي.. أوافق.

- ولكنه أبكاك حتى قبل أن يتزوجك، وأنت قرّة عيني.

قلت وعيناى لا تتركان عينيها: هي في عيني يا سيدي. داخل مقلتي أحفظها إلى أن أموت. ولا أتكلم معك إلا الصدق.

قال وهو يريت على يد ابنته: يفعل الله الخير يفعل الله الخير

فقلت: لو.. أمكن يا سيدي.. أن أتزوجها مريفاً.. فقد..

- تصبر..

- أصبر.. ولكن أصبر كم يوماً..

- قل كم شهراً، كم عامًا..

قلت في رجاء: أصبر.. ولكن أتمنى منك الرحمة.

- اطلب منه هو لا مني أنا.

كنت أعرف أن الحديث بيننا انتهى. هرولت إلى بيتي ومسجدت لله وقلت في صدق: يا رب.. نقت الحب على يدك.. وعرفت حيي لك كما لم أعرفه من قبل.. اجعلها لي.. ارزقني إياها.

زينب أو لطيفة ابنة شيخي.. تربت مع ولدين رافقاها كظلها طوال العمر.. لا لعبت بالعرائس كما البنات ولا تعلمت الطبخ. تصارعهما في الحقول وتجري معهما في البساتين. ابنة غير كل البنات. لاحظت أمها اختلافها فأخبرت والدها بقلقها عليها. ولكنه قال: إن لكل نفس رسمًا وشكلًا، وهذه نفسها وهذا رسمها، نتقبلها ونشجعها، ففيها ما لا يوجد بغيرها. يُعرف عنها الجسارة والقوة، تركها تتعلم السيف والرمح مع أخويها. تركها تكون ما تشاء، وعندما سافر إلى المنصورة صحبتها في حماس كما صحبه ولداه، وأخبرته أنها تريد أن تساعد المرضى وتداويهم. رفضت أمها واثارت.. قالت له: هذه ابنتنا الوحيدة، لو وقعت أميرة في يد الفرنجة أو ملئت، فماذا يحدث؟ ولكن الأب قال إنها ابنته الوحيدة، ولكنها ترى نفسها أهلاً لهذه الحرب، فلا بد أن يصطحبها. لم تخبره أنها تنوي المحاربة مع أخويها، ولا أنها أخذت معها السيف والرمح وهي راحلة معهما من الإسكندرية. لا تسألني لم وافق الشيخ ولم تركها تغامر. لم تخبره بغرضها الحقيقي من السفن ولكن لا بد أنه أدرك. هل أدرك؟ هل تركها تحارب؟

ذهبت إليه في حماس أطلب منه أن يتعم زواجنا بسرعة، فطلب مني الصبر. حاولت معه مرة ومرتين ولكنه ألح علي بالصبر. ثم تجرات وطلبت رؤيتها فصمت ثم أجاب: يفعل الله الخير دوماً.

قلت في ضيق: يا سيدي..

فردد في حسم: يفعل الله الخير، تعلم الصبر وراوض النفس واجمعها.

خرجت مع عبد الباري نسير في الأسواق وعقلي شارد أجاهد نفسي قدر المستطاع، أعرف شيخي وأعرف تأديبه لنا، يقول دوماً: إن علينا تهذيب النفس والسيطرة عليها، نتحكم فيها ولا نتحكم فيها. ولكنه الحب. هو

يعرف، بل الله يعرف.

رأيت يومها عيني عبد الباري تنظران إلى خنجر بيد مصنوعة من الذهب
في خان الذهب، كانت نفسه تذوب من فرط شوقه إلى الخنجر. عرفت
خاطره وشعرت به. قلت بلا تفكير: اشتريه

فقال في حزن: لا أستطيع.

قلت مسرعًا: أساعدك على شرائه.

نظر إلي مليًا ثم قال: ولكننا زاهدون يا أخي.

- ألم تسمع شيخنا يشرح معنى الزهد؟ هو ليس في لبس الصوف ولكنه في
معرفة الله؛ أن تجعل الدنيا في يدك وليس في قلبك. لو سيطر عليك
الخنجر فمن الأفضل أن تقتنيه ولا يغير خاطرك أو يقيد أيامك. متفكر فيه
وتشتيه، لو معك المال فاشتريه..

أخرجت من جيبي بعض المال وأعطيته له فنظر إلي مليًا وقال: لن
أشتريه يا أحمد. أستطيع أن أسيطر على نفسي مثلك تمامًا.

ابتسمت ووضعت يدي على كتفه قائلاً: أنت أفضل مني، هذا أكيد.

لم نتكلم أنا وهو على الخنجر أخذه. هل احتفظ به، أم تصدق؟ لا أعرف.
ولكنه كان قريبًا إلى قلبي بعفويته وحرصه على الدرس. لم يكن لدي الكثير
من المال، أحيانًا تزدهر التجارة وأحيانًا لا. تزوج أخي بنتًا من الإسكندرية
وامتقر فيها معي.. ترى هل يمكن للشيخ أن يخاف على ابنته من الفقر
معي؟ ماذا سأعطيها؟ لا مال يعينني ولا زهو ولا قوة. ولكنه الشاذلي،
يعرف عن الدنيا ما لا نعرفه. بالطبع لا، هذه ومومة شيطان تحل بي لأنني
لا أستطيع الصبر.

كل يوم أحضر درمه وأرافقه، ثم ألح عليه في خجل فلا يجيب. مر أسبوع ثم شهر. يومًا أقرر ألا أتكلم معه فريما يضايقه كلامي وأنتظر منه أن يبشرني فلا يفعل، ومرة ألح عليه فلا يفعل. كنت أريد فقط رؤيتها. فكرت أن أراقبها، أنتظرها لأراها ولكن نفسي أبت هذا دون إذن شيخي. قضيت كل الليالي بين ضيق من الصبر ودعاء إلى الله. ولكنها هنا بجانبني، وهذا شيخي وأبي. لو وثقت من هذا تطمئن النفس بعض الشيء.

بعد مرور ثلاثة أشهر بدأ الأرق يبدو على ملامحي وشحب لوني ونبل وجهي. نظر إلي كأنه يراني ثم قال: زواجكما غذا بإذن الله.

لم أصدق ما أسمع، رددت كلماته كأنني أنقشها على صدري، وقلت: يا سيدي ماشتري لها هدية اليوم، واشتري الخشب والشمعدان و..

قاطعني: لا تشتري أي شيء، قالت لي: إنها لا تريد شيئًا.

ولكنني جمعت كل ما أملك لأشتري لها قطعة من الذهب. لم أكن أملك الكثير كنت قد اشتريت قبلها الخنجر لعبد الباري. وبخت نفسي على تسرعني، ها أنا أعطيه هدية أكبر مما سأعطيها للطيفة، ثم وبخت نفسي على اتباع الهوى. ها أنا أقسم أموالي على هواي.. أندم على أنني خدمت صديقًا، وأريد أن أعطيها كلها لمن أحببت.

القلق لا يتركني ممتزجًا بالترقب والدعاء، أتمنى فقط أن تصبح لي. أصبح العالم كله في لحظة اللقاء. تم الزواج وأنا لا أنظر إليها وهي لا تنظر إلي خشية رؤية الناس ما في العيون.

تسارعت أنفاسي وتأجج العشق واستقرت جلست على السرير أنتظر دخول العروس وصوت الزغاريد ينطلق من حولي كما استغاثت جواني المشتاقة.

مبحت بالذاكرة إلى كل البحور رأيت أمي تضحك ضحكها الصافية، وأبي يعود إلى بيتنا ليلاً وهو محمل بالعنب والخبز بالسكر الماضي يزين الدنيا كما الولد والمال. وأصبحت الآلام بلا ندوب، والجراح لا تن، واستوت الأيام، وخرج وجه الشمس مُرحباً بالإسكندرية كلها.

فتحت الباب ودخلت، ثم توقفت على بعد خطوات وطأأت رأسها ولم تنبس. قمت من مكاني واقتربت منها، أزحت خماراً أبيض من على وجهها الذي أعرفه. فكم من ليالٍ قضيتها مستيقظاً أراها تتعذب ولا أستطيع إنقاذها! الخيال قاس أحيلًا أقسى من بعد الأحباب والفقد ذاته. أمسكت بذقنها ورفعت وجهها إلي ونظرت إلى عينيها. كنت أظني أقرأ العيون وتنجلي لي القلوب، ولكنني وقفت حائراً كما الصبي الذي تركوه في البر بلا خطيئة. خرجت أنفاس الشوق تخرج رأسي. مررت بكفي على وجهها، فأمسكت بيدي تبقّيها على خدّها والصقتها بفمها برهة، لا هي تقبلها ولا هي تتركها. كأنها تتأكد أنني معها، ربما، ثم لثمت كفي، وأنفاسها تخرج ممزوجة بعذاب مضى، فدنوت منها ووضعت رأسها على صدري، وجلست وأجلستها معي على مخدعنا.

أبقيت رأسها على صدري. كان فؤادي يستغيث أن تتلحف به وتنام بقية العمر الفاني وهي ملتصقة به. حاولت أن تتحرك فأبيت وطويتها بين ذراعي، أحاطت رقبتني بذراعيها ثم همست: كأننا في حلم.

مررت بيدي على شعرها، احتبست الكلمات واستغاثت ولكنني لم أحررها ماذا أقول؟ إن شوقي لها أحرق كبدي، وإنني بحثت عنها كأنني أبحث عن

بقايا طفولتي وأيامي ماذا أقول؟ إن عينيها لم تفارقا نومي، وإن الأرق لا يأتي فرادى بل ينهال على النفس كبيض الهند ورماح الصليبيين. أحيانًا يكون الصمت كلمات لا قدرة للسان بترجمتها.

قالت أم لم تقل.. قالت بنبضات القلب إنها ظنت أنني مٌث، إنها تمنّت أن تعرف لو كنت حيًا لا أكثر. قالت بعينيها إنها حارت مع الساعات والأيام واستنجدت بربها تدعوه أن تطمئن عليّ لا أكثر. تمنّت أن تعرف أنني حي ثم لا تراني مرة أخرى. جاد الله علينا برحمة لا نستحقها. بحثنا بعيدًا فأدركنا العجز والتسليم. تعلمنا تألمنا.. أذهلني أنها لم تنطق، لا طلبت أن تسمع مني كلمات الحب التي جهزتها منذ أيام ولا أن تخبرني بها. هل تعرف كيف يصبح الحب عصيًا على الكلمات؟ أنا أعرف. كل ما فعلته زينب أو لطيفة هو أنها حركت ذراعيها فأحاطت ظهري بهما، تشبعت بظهري ثم ازدادت قبضتها واستحكمت قبضتي.

تغير لون الكون وأشرقت الأنوار وأصبح الليل نهارًا يضيء بظل الأحبة وومضات برق الشوق.

عند الفجر تحركت من جانبها لأغتسل وأصلي، فالتفتت تساعدني، فقلت مسرعًا: اعتدت مساعدة نفسي.

ثم قبلت جبهتها قبلة طويلة تحاكي النشوة التي لم أذقها حتى اجتمعنا. لا تكلمنا عن العشق ولا الفضا الذين أذهبا عقلينا ليلاً، ولا نار الشوق التي ما تلبث أن تنطفئ لتشتعل من جديد.

صليت وصلت خلفي، وما إن انتهينا حتى بدأت أنا قراءة القرآن وهي تنظر إلي بلا كلمة. قمت من مكاني وخرجت من الحجرة حتى لا تتعلم الكلمات

من إدراكي. انتهيت من القراءة ثم عدت إلى الحجرة. استلقيت على
مخدعنا وشدتها لتنام على صدري وأصابعي تمر على شعرها ووجهها.
فتحت فمي قللاً:

لطيفة..

وضعت إصبعها على فمي وقالت: والدي يقول إن بعض الحقائق يصعب
شرحها، ولو استعملنا معها اللغة ن ظلمها فتصبح كآليات الشعر العربية
الفصيحة بين يدي طفل أعجمي ينطق الحروف بلحن ويفقد كل المعاني.
ساد الصمت فقلت: كأنني سمعتك تقولينها لي.. يوم المعركة..

- قتلها لنفسي يا أحمد. بداخل القلب.

أمسكت بكفها ووضعته على قلبي.

كأنت على حق.. ليس للكلمات مكان بيننا، فقد خلقنا في السماء ما بين
الفناء والبعث؛ تارة نستسلم للوجد، وتارة نتغذى على محو الجراح

لم أتوقع أن أرى الشيخ واجفاً اليوم، ولكنني ما إن رأيته حتى اتصل عقلي
بعقله وتوقعت كلماته. قال في هدوء وعيناه اللتان لا تريان تسبران كل
الأغوار: عندما يقع المال في يدك يكون أول شيء تفكر فيه هو دنيالك..

بلغت ربقي وقلت في تردد: يا سيدي زوجتي لم تحظ بأي شيء؛ لا بيت
جديد ولا ملابس ولا ذهب.. كنت..

قاطعي: ابنتي تعرف أنها تزوجت أبا العباس ولم تتزوج غيره. تكلمت معها
ووضحت لها الأمور. استمتع بدنيالك، نعم، ولكن والله نُضِبَ عينيك. هل
فكرت فيمن يحتاج إلى هذا المال؟ في أم مسكينة أو مسجين لا أمل له في

عمل؟ فيم فكرت يا أبا العباس؟

صفت في حيرة، فأكمل: خلق الله لنا الأنبياء ومحمد هو خاتم المرسلين، ثم خلق لنا الأولياء؛ رجالاً لا تلهيهم تجارة ولا دنيا عن ذكر الله. والذكر ليس باللسان بل بالقلب، والنفوس بالبذل يا أحمد. الولي غريب في الدنيا وغريب في الآخرة لأنه مع الله.

قلت: يا سيدي كنت سأرتدي الصوف وأزهد ونصحتني ألا أفعل.
- كأنك لم تفهم بعد.

كلماته أصابت الفؤاد صعقاً.

أكمل: نفسك تروضها كما الحيوان المفترس في كل نبسة وكل خاطر تعرف ربك بعد أن تصدق مع نفسك، ليس لمثلك أن يقوده الوهم.

لم أفهم ما يقصد. فأكمل: تحب زوجتك وهذا رزق من الله إليك، ولكن لا تجعلها في خاطرك ليل نهار لأنها من فناء الدنيا.

- تطلب مني ما لا أستطيع، أنا بشر يا سيدي..

- ها أنت تنطق أخيراً. ظننتك متكذب علي وتطيع أوامري بلسانك وقلبك
ثالث.

أعرف أنك بشر ولكنك لست ككل البشر هي مجاهدة لا تنتهي. في اللحظات التي تتحرر من بشريتك تنطلق روحك مُحلقة إليه. ليس كل الناس قادرين على هذا. أنت اخترت طريق المعرفة وهو محير وصعب، ولكنه الطريق الوحيد بالنسبة إليك لا خيار لك. زوجتك لا حاجة لها بالذهب ولكن غيرها يحتاج. فكر فيمن وكلك الله لمساعدته أولاً، واكف بيتك وأولادك أيضاً. هذا صعب، وحكم هذا الجسد صعب أيضاً، فيه عقل ونفس

وقلب وجوارح، لكل جزء منه عليك حق. يا أحمد أوصيك.. تحكم في غضبك، ولا تأمن لنفسك، واعشق الواحد الحي حتى لا تشقى. من يتسع قلبه لحب الموجود لا يجد لغيره وجودًا.

بعد عدة أشهر طلب مني الشيخ أن أرحل إلى القاهرة مرة أخرى، كنت مترددًا لا أدري هل أرحل وحدي أو أخذها معي، ولكنها رجعتني أن أخذها معي. كانت حاملاً في شهرها الخامس، ولأصدقك القول لم أكن أطيق فراقها أعطيت الدروس ثلاثة أشهر في القاهرة ثم عدت إلى الإسكندرية، ووضعت زوجتي ابننا الأول عليا، ولو كان حبي لها ساعدني على أن أنتمي إلى البشر فحبي لعلي ساعدني على أن أجد وطنًا مؤقتًا في هذه الدنيا ذكرني بأمي وأبي ومربية، ذكرني بالأعصاب والنخيل وأشجار السفرجل البهيجة. جمع كل الماضي في يديه الصغيرتين ونثره على رأسي وعيني، ولكنني أبقيت كلمات الشيخ بذاكرتي. فكان هدفي أن أعلمه ما تعلمت، وأفرغ عليه الحب والمعرفة في نفس النفحة والضمة. قسمت وقتي بين التجارة والبيت والدراسة وإعطاء الدروس. كل فيضان للنيل أرحل إلى القاهرة ونبقى معا في حجرتين أنا ولطيفة وعلي الصغير ثم أعطاني الله من رزقه جمال الدين محمداً، وأحمد، وبعد ست سنوات رزقت بقرّة عيني بهجة فاض الحب كما الفيضان، وخشيت أن أمتقر في الدنيا أو أتغير مع الأحوال كنت أخلو بنفسي كل يوم؛ تارة تتجاذبني الدنيا وتتنازعني، وتارة أغيب عنها وأصبح بكليتي معه وتارة أطلب منه الخير في الدنيا وفي الآخرة، ولكنني دوماً أطلب منه ألا يُقيّدني بالأشياء ولا العلائق، وأن يعفو عني ويجذبني إليه، فلا إرادة لي ولا قدرة.

في البدء ظننت أنني حاربت نفسي وانتصرت، ثم تذكرت أن جهاد النفس يستمر باستمرار الأنفاس هبت رياح الفيرة على قلبي لأول مرة، كانت بطيئة تكاد تتخفى وسط الشتاء كنت جالساً أدرس في القاهرة ثم طلب مني أحد الشيوخ أن يتكلم، فبدأ في الكلام والتف الناس حوله ونسوا أمري تمامًا. مكنت في مكاني وأنفاس غريبة تتخلل القلب، همت وجرت، ثم قمت وذهبت إلى البيت. لمت نفسي وعاتبته، كنت أغبطه، نعم لحظة ربما، أو هالف مَر ولم يستقر. تعال يا شيخ لترى مريدك يغار كالذين لا يعلمون. يومها استغفرته وصليت، وفي الصباح عدت إلى المسجد وكان حاضراً، جلس أمامي يستمع فقلت له في حسم: يا سيدي تعال وتكلم. نظر إلي في ذهول فقلت: كلامك أمس مس القلوب. تعال اجلس مكاني وأنا أستمع لك.

سمعت الهمسات في المكان ثم قال الرجل: هل غضبت مني يا أحمد أمس؟ قلت وأنا أمسك بيده: بل تطعت منك، هيا، اليوم أنت تتكلم وأنا أستمع لك. وغداً أتكلم أنا. ما زلت أتعلم.

قام في تردد ثم جلس أمامي وبدأ يتكلم والناس تستمع في حماس، أطرقت رأسي واستغفرت ربي.

عندما عدت إلى الإسكندرية ناداني شيخي وقال: أن تغار من أحد أو تغضب ممكن، لا تعتقد أن الولي ليس ببشر ولكن أن تسيطر على غيرتك وتلوم النفس، وتغفر عند الغضب وتُحْكَمُ العقل وترحم من لا يرحم، فهذه الصفات من كرامات الله عليك يا أحمد.

لم أسأله كيف عرف ولكنني قلت: أتعلم يا سيدي.

- ستتعلم طوال عمرك. كل نفس تأخذه تتعلم فيه. الفرق بيننا وبين غيرنا

أنا لا نتوقف عن التعليم ولا عن الجهاد لا مواسم لنا ولا أيام مخصصة في كل ساعة ويوم حتى لقاء الله نتعلم اخترتك أنت ولم اختر غيرك؛ لأنك ترى نفسك كما يرى السبع وجهه في مياه النهر الصافية تجليها وتصفيتها باستمرار الغفلة مرض يستعصي على كل الأطباء.

بعد مَولِد بهجة طلبت من لطيفة أن تبقى في الإسكندرية، وأن أرحل هذا العام وحدي ولكنها أبت، ولعلي كنت أفضل مجيئها مكثنا في الحجرتين أسبوعًا ثم قررت أن أمتاجر لهم مكثًا أكبر فوجدت بناية من ثلاثة طوابق في الفسطاط، فامتاجرت الطابق الثاني. سكن فوقي شيخ من مُدرسي مدرسة الملك الصالح. كان غليظ الطباع، يكره صوت الأطفال وجريهم. اصطحبت معي عليا وهو في السادسة إلى المسجد ليستمع إلى شرحي ويحفظ القرآن. بعد أسبوع قررت أن أترك البيت مخافة إغضاب الشيخ عدوي جارنا. طلبت من لطيفة أن تجهز أشياءنا ونعود إلى الحجرتين. ذهب صباحا أتفقد الحجرتين وأنقل بعض الأغراض، وعندما عدت تغيرت حياتي أو انتهت، لا أدري.

علي ومحمد وأحمد يهرولون صعودًا ونزولًا على سلم البناية، والشيخ عدوي يصرخ فيهم، ولطيفة تُرضع بهجة. خرج الشيخ من بيته والأولاد الثلاثة أمامه يهمون بنزول السلم، وصيحاته تزيدهم تأهبًا للعبة مختلفة وخطيرة، فأمسك بهم ودفع بهم على السلم وهو يسب ويلعن. تقلب الأولاد الثلاثة الواحد تلو الآخر وهم يصرخون أو يضحكون أو يخافون.. لا أحد يعرف. نهض محمد، ونهض أحمد، وجريا إلى والدتهما، ولكن لم ينهض علي. بقي ساكنًا أمام بيتنا.

حينها رأيت كسوف الشمس والقمر معاً، عمّ الظلام حتى قبل أن أعود إلى بيتي. سمعت صرخته في خيالي مع أنه لم يصرخ، كأنني شاهدته يستغيث بي وكأنني خذلته. عدنا إلى الإسكندرية ولحن خمسة لا ستة. مرت الأسابيع كأنها الدهر كاملاً. ندم الشيخ عدوي وشرح للقاضي أنه لم يكن يقصد قتل الولد، لقد دفعهم فقط، وقال إنه مستعد لدفع الدية. لم أدرك حجم حزني ولا شعوري بالعجز حتى وأنا ملجأ بين يدي الله.

تكلمت معه بلا تحفظ ولا رسمية. قلت الكثير.. ها أنا مثل السيدة اليهودية، كل ما أحبه يتلاشى أو بعضه. كان أغلى من اقتراب مني، كان وطني ودياري. علي بالذات أعاد لي الانتماء إلى بيت ومكن.

إليك أنت...

إليك أنت.. ها أنا تائه بين شبر ونصف، أدور حول نفسي يا الله. أصارحك وأصدقك القول لو استطعت. الألم يحرق الأحشاء والشوق يمزق الأطماع. لا أقول إلا ما يرضي الله، ولكنه العجز الذي توغل واستقر والتيه الذي وجد المسكن بين الطلل وعلى أعطاف الغربان. يا إلهي لم كل هذا الألم؟ ليس مؤالي غضباً، كيف أغضب منك وأنت أعطيتني إياه؟ لكنك أخذته مني أيضاً. لم أتمتع به سوى ست سنوات، لو أعطيتني سنتين زيادة أو ثلاثاً.. لو تركته بين أضلعي بعض الوقت..

عند السجود انهمرت دموعي وتفشى البؤس. قلت له: أغثني، فقد غرقت في اليأس. ها أنا عدت وحيداً، لم تحرمني منه؟ ولو حرمتني فلم لا تأخذني معه؟ ماذا يتبقى لي هنا؟ لا شيء يذكر ولا شيء يبقى. كل حالي ومنيتي لقاءك ولقاؤه. نعم أصابني العجز وضلل عقلي الحزن. أنت تعرف. لم لا ترفع الحجاب عني لأرى؟ كل هذه الأعوام أحاول ولا أستطيع. أتلهف للقلبك وقربك وأعود متلهفاً حولي باحثاً عن اليقين.

إلهي، إن القضاء والقدر غلبني.. إلهي.. اقطع حجابي حتى أصل إليك،
واجذبني جذبة لا أرجع بعدها لفيرك. لا تتركني في التيه أكثر من هذا. قل
صبري والهزم أمام هذا الفقد. إلهي.. حجابي عنك آيسني من غيرك، فاقطع
حجابي حتى أصل إليك، واجذبني جذبة لا أرجع بعدها لفيرك.

تارة ألجأ إليه لجوء الطفل الغاضب من أمه المشتاق إلى طمأنينة حضنها،
وتارة ألجأ إليه لجوء المذنب قليل الصبر الذي ادعى الحكمة ثم عثرت
قدمه عند الابتلاء.

بكلّي كان مرًا بيني وبينه، أما أمام الناس فكنت ثلثًا. وضلال الشوق كان
وسط الظلام بين طيات النفس وحول جلاله.

عدت إلى بيتي لأواجه غضب محاربة فقدت للتو قلبها؛ زوجتي. كنت
أعرف. ولكنني في هذه الأثناء ناديت باسمه الفحشي أن يحييني بعد أن
مت، وأن يكون فنائي به وفيه وليس في دنيا متنقلة كالسحاب. لن أكمل
الكلام فلم يعد في نفسي رمل.

السفر السادس

قالت لي كريستينا في الطائرة: سأحكي لكما لم يحكه أبو العباس.. لأنني
أعرف.. أو أكاد..

صاحت لطيفة بأعلى صوتها والخنجر لا يبرح الصدر: انتقم لابنك.. هو
قطعة منك، خذ حقك من القاتل وإلا أخذته أنا.

بقيت ساكنًا. ارتعدت وهي تبحث عن مسكين، أمسكت بها واتجهت إلى
الباب ولكنني كنت أمامها، قلت في صرامة لم تعرفها من قبل: اتركي ما في

يدك وادخلي حجرتك.

لأول مرة تهابه. زوجها الذي طالما يتبسط معها ويتحمل دلالها. لأول مرة لا تفهم عينيه، قالت في تحدٍّ: مآخرج ولن يمنني أحد. لو كنت لا تستطيع أن تأخذ حق ابني أخذه أنا. النار تحرقني، ألا تشعر؟! ألا...؟!!

أشار لها بالتوقف عن الكلام وقال في حسم: عودي إلى حجرتك واتركي السكين هنا.

ربت على كتفها فازاحت يده والجمر يتسلل إلى الصدر واليدين، أمسك بمعصمها في قوة وقال: لطيفة.. توقفي..

هوت إلى الأرض وهي تبكي. حاول الاقتراب منها فجذعت وقالت: إياك أن تقترب مني، لست زوجي من اليوم. لم أعد أريدك.

حملها وهي تقاوم وتزيج مساعدته، ولكنها لم تقو على الالتفات من قبضته. وضعها على مخدعها ثم أحاط كل جسدها بذراعيه وهو يقول: اهبطي.

رددت من جديد: لم أعد أريدك أكرهك يا أحمد. هل تسمعني؟
- أسمعك.

- لا تلمسني ولا تضع يدك عليّ منذ هذه اللحظة.

امتزجت الأنفاس وقال وهو يضرر رأسها داخل صدره: نتكلم بعد أن تهدلي.

توقفت عن البكاء فجأة ومسحت عينيها وكأنها وجدت مفتاح الفرج، ثم قالت: هدأت، أتمنى فقط أن تبعد عني.

التقت العينان. تركها وقال وهو يجلس على الأرض بجانب مكدعها:

ماكون بجلايك لو احتجت شيئًا.

لم تُجب. عذمت أمرها.. في الصباح سترحل عنه.

عند الألم يخر العقل وينهزم، لو تركته تنسى ما كان. في هذه اللحظة لم تر سوى ابنها ساكنًا أسفل السلم. قتله العدوي وزوجها كاله لا يبالي، كاله ليس بابنه. لو رحلت عنه فريما تهدأ الجمرات أو لا.

عند الفجر خرج ليصلي فأيقظت أولادها ورحلت من البيت إلى بيت والدها.

استقبلتها أمها متسائلة ولكنها لم تجب. لم يسأل والدها، رحب بها كعادته ولأطف أحفاده. دخلت حجرتها واحتضنت أولادها دون علي، ولم تهدأ النفس بل تضاعف الخزي وامتزج بالحيرة. بعد مرور أسبوع جلست بين يدي والدها بعينيها المنطفئتين، تبدو للغريب أنها فقدت بصرها، بينما ارتد له بصره، اتجه بعينه إليها ثم قال: الصبر والتسليم ثم الرضا.

قالت في تردد: أحمد.. هل جاء اليوم ليراني؟

صمت.

فقالت: أعني هل أراد أن يراني؟ مر أسبوع ولم يسأل عني أو عن أولاده.

مد يده وأمسك بيدها وقال: أنت بضعة مني في قلبي. الحزن دومًا يبدل النفس.. يطفئها ويخبثها والله يحب المختبين.

قالت في إصرار: كنت أسأل عن أحمد.

- ولم تسألين عنه؟ لقد قلت لي إنك لا تريدينه.

قالت في فزع: أبي.. هل أخبرته بهذا؟

لم يجب. فقالت في ترج: أبي.. تخطط الأمور علي هذه الأيام. و..

قال في بطم: جاء أحمد. هو يسأل عنك كل يوم.

قالت وهي تمسك بقلبها كأنها لا تقوى على تحمل فراق جديد: هل جاء ليشكوني إليك؟ هل أخبرك بما قلت؟

- لا.. جاء ليعيدك إلى بيته.

فتحت فمها ثم عدلت عن الكلام، فأكمل الأب: ولكنني رفضت.

قالت في صوت مبحوح: لماذا رفضت يا أبي؟

- لأنك جئت يارانتك ولو أردت العودة فستعودين يارانتك.

- ولكن.. اسمح لي.. أبي..

- تكلمي..

- كنت ماعود معه، ربما. لم صرفته؟

- قلت لي إنك لا تريدني.

- كنت أكذب.

- ابنة الشيخ لا تكذب.

- سأطلب المغفرة. الله رحيم يعلم ما في قلبي.

- ولو كنت تعرفين أنه رحيم فلم لا تتقبلين قضاءه؟

- أتقبل قضاءه ولكني أريد العقوبة لمن قتل ولدي.

- لو أنك وكلته في أمرك وتركت قاضي الحاجات يحكم بنفسه، ما تأكل قلبك ولا طمر الغضب روحك هو يعلم ما في نفس الشيخ العدوي، هل تعلمين ما في نفسه؟ ولو أخذت السكين وقطعت رأسه فماذا سيتبدى لك؟ دم وشحم وعروق أما ليته فيعلمها خالقه.

قالت بلا تردد: أقسم لو استطعت لقطعت رأسه مئات المرات. كل يوم عشرين مرة.

- لا حول ولا قوة إلا بالله! اللهم أعف واغفر..

أتوب إليك بك، ولولا ما شئت ما تبت إليك، فامح من قلبي محبة غيرك، واحفظ جوارحي من مخالفة أمرك. وثالله لئن لم ترعني بعينك، وتحفظني بقدرتك، لأهلكن نفسي، ولأهلكن أمة من خلقك، ثم لا يعود ضرر ذلك إلا على عبدك.

قالت في حزن: هل أنت غاضب علي؟

وضع يده على رأسها وقال:

يا من بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه، أنصربي بالخوف منك، والتوكل عليك، حتى لا أخاف غيرك، ولا أرجو غيرك، ولا أعبد شيئاً سواك. أشهد أنك على كل شيء قدير، وأنت قد أحطت بكل شيء علماً.

تساقطت الدموع من عينيها وشهقت ثم تحول بكاءها الصامت إلى نواح. ضمها إليه وردد: لا حول ولا قوة إلا بالله! الصبر منه هو، والتوبة منه هو. أنا لا أغضب يا زينب، أنت قرّة عيني.

مسحت دموعها بكفيها ثم قالت من بين شهقاتها: ألن يأتي مرة أخرى؟

- نعم.

- لماذا؟

- لأنني قلت له ألا يأتي.

- ألن يرى أولاده؟

- بعد حين ربما آتي بهم إليه.

- ولن يراني؟

- إذا أردت أن تقابليه فعودي إلى بيتك.

- هل تريدني أن أعود يا أبي؟

- افعلي ما تريد أنت.

احتضنت نفسها ثم قامت بعد أن قبلته.

حكى أبو العباس لماريو

تبث أمام لطيفة ولكن قلبي انفطر كما اللوح الزجاجي لما تمثل أمامي علي رأيت معه أمي فاطمة المالقية تتكلم بلسانها الأعجمي، كنت طفلاً مسيحياً حينها أو هكذا شبه لي أنا أمسك بيدها اللينة وهي تقطف العنب وتضحك، وكنت أقول: ما شكل الجنة يا أمي؟

فتقول في يقين: كما هذه الحديقة بأعناق تنتظر من يجففها ويعتني بها.

- ولكن لمَ تنتظر الجنة لو كالت بين أيدينا؟

أطرقت برهة ثم قالت: لأن ما بين أيدينا يرحل والجنة لا ترحل، تبقى الأعناق هناك إلى الأبد، لا تذبل ولا تتغير مع تغير الفصول. هل مستساعدني

على تجفيفها؟

- متى ستصبح زينا لاكلها؟

- الصبر يا احمد..

- حتى جنة الارض تحتاج إلى الصبر؟

- هي جنة الارض ما تحتاج إلى الصبر يا بني..

يتطلب وجه أمي ووجه علي ابني، وتتناثر حبات الزبيب من حولي.. صفاء مياه الطفولة جبلت بحضن التجربة والشباب.. ناديت من جديد.. اختليت به في البيت الذي هجرته زوجتي..

غيبني بحبك عن أمي وعن حيرتي وعن الكره الذي ينخر فؤادي كل حين.. مرارة النفوس أصبحت تطفئ على طيب مخلوقاتك.. لا تكني لنفسي فهي عاجزة..

جلست أمام شيعي ثابثاً فاخترقت عيناه المظلمتان عيني كله يراني أو رأني..

قال الشيخ في ثبات: لا حجاب إلا الوقت.. تنتظر منه الإشارة كل يوم، أليس كذلك؟ تريده أن يخبرك أنك على صواب وتمشي في الطريق الصحيح.. تريده أن يطمئنك كما الطفل المنتظر كلمات الثناء من والده.. تنتظر الفتح تخلصه في الجبال وبين حايا الظلام وأنت تريد شيئاً منه.. الفح لا يريد ولا ينتظر.. ها أنت تدعي محبة ثم تسخط منه عند أول قضاء يؤلمك.. من يذع المحبة يثبت مع الحبيب في كل حال.. قالها الشيخ ابن مشيش: وحب الله قُطب تدور عليه جميع الخيرات.. ادعيت أنك تحبه فاثبت معه حتى لو خطر الغضب والخوف واليأس على قلبك.. تمنى الموت أليس

كذلك؟

نظرت إليه في ذهول لأنه قرأ أفكارى. فقال: يا أحمد. تريد الموت لأنه يخلصك من الألم مع أن الأنس بالله يزيل كل هم الولي يا بني لا يحيا في دنيا لأنه مع الله يريد لقاءه نعم، ولكنه يصبر على الدنيا لأنها طريق إليه يومًا ما يا أبا العباس مستقبل الموت لا لترى الأحباب الذين اشتقت إليهم، ولكن لتلقاه هو، فكل الأوبة من صنعه، وكل الجمال اجتمع بين يديه وحوله، هل تفهم كلماتي يا أحمد؟ اخرج من حولك وقوتك ومن نفسك وتذكر تكليفه لك.

ربما لم أفهم ما يقصد حينها، فقلت كما الطفل الباس: لو أعطاني هذا الحب لعلي فلم يأخذه مني؟

- لا تسأل عن سر الغيب بعقلك المحدود. اليقين لا يحتاج إلى السؤال.
- لن أصل إليه إذن..

- جاهد نفسك وعلمها الصبر.. أتدري ما سر الكلمة؟ هي كلمة واحدة.. اليقين. عندما يفتح عليك الله بها ستعرف بلا كرامات ولا معجزات. هي عين الرحمة والعفو، هي الغاية من الوجود. ولكن لا يقين بلا حب.

- كان الوطن الذي محا الفرنج أثره.

- لم أدر ما غربة الأوطان وهو معي.. قالها سلطان العاشقين، ولكن ليس على ولد من دمك بل عليه هو.. انتسب إليه ولا تنتسب لغيره. أنت أعظم من أن تنتسب لغيره وأكرم. المحبة هي الرضا بما قضى لك. أبت المحبة أن تستعمل محبًا إلا فيما يوافق محبوبه.

قلت في يأس: لعلي لا أصل أبدًا. وربما لا أريد أن أكون مختلفًا عن غيري.

ساد الصمت.. ندمت على كلماتي ولكنه قال في رفق: أحمد اطلب منه أن يفتيك بحبه عن كل شيء. هو القادر وليس أنت. يريد أن يملكك في الدنيا والآخرة ولكنك مقيد بحالك. بحثت عن لطيفة وهي حولك لأنك لا تعرف الغيب، تعلم واصبر من قال لك إنه طريق سهل؟! هو طريق واضح ومستقيم ولكنه لا يستوي إلا لمن ترك حموله عليه. بعد المحنة يأتي التمكين لمن هم مثلك.

- لست نبيًا يا سيدي.

- ولكنك ولي من أولياء الله.

- بل عبد عاجز.

- لذا فأنت ولي لأنك تدرك عجزك، ولكنك تحتاج إلى تهذيبها والسيطرة عليها، والمجاهدة مستمرة إلى يوم لقائه، وما أجمل يوم لقائه! لو رزقك بكل هذا الحب فهو رحيم. تذكر هذا. أحمد.. أمسك بيدي واقترب مني. ثم قال: ليس لك خيار فيما كُلفت به، كلفك به العليم الخبير.

- أعرف.

- خلق الله بداخل كل إنسان نورًا مضمورًا وسط ميادين النفوس. بعضنا يفتي موتًا فلا يجد النور، وبعضنا يفتي حيا فيتدفق النور من ثناياه. أنت مُعلم مهمتك أن تُخرج النور من مطايا النفوس، وكلما أضأت نفسًا سينعكس ضوءها على نفسك أنت، كلنا في رباط واحد منذ الأزل ولكن النفس تلبي إلا أن تصرم ما ربطه الله. من هو الشيخ يا أحمد؟

قلت مسرعًا: هو من ذلك على راحتك لا من ذلك على تعبك.

- هو أنت يا مُرمي.

قلت في تردد: سيدي..

- إياك أن تنسى أن الله يجتبي من عباده من يشاء، لا حول لك ولا قوة في هذا، فلا تغف بعد اليقظة، ولا تستسلم والقتال لم يبدأ بعد.

- أي قتال؟

- كل يوم وكل حال فيه مجاهدة بداخلك وخارجك، لم تحجب عن ربك قط، لذا اخترتك أنت.

عدت إلى بيتي المظلم وحيدا أو هكذا شبه لي. لم أوقد أي شمعة، بحثت عن أي ضوء حولي أو بداخلي، ولا أدري هل وجدت أي شيء حينها.

الوصول الأول

عدت إلى الإسكندرية بدون الشيخ أبي الحسن الشاذلي. لأول مرة أواجه هذه الغربة وحيدا. ولكن نفحات رضا الله كانت تقوي عزيمتي، فكنت أحمد غير الذي أعرفه. تجتاحني الأيام وتعريد بي ولا تخترق قلبي ولا تؤثر في كأن ضربة الخنجر وخز إبرة، وصرخة الألم همس أنين. كنت مسيرا في مسلك مكتوب علي، وكنت أهرول إليه بعزيمة وحماس. ربما بدا للبعض أنني لا أعرف ولا أتوقع العواقب. وربما لامني الصديق قبل البعيد على أنني لم أتربث ولم أحترم. ولكن كنت أندفع كما الأمواج، مأمورا مكلفا بخطوات محددة.

عندما تدفقت الكلمات من فمي ذهلت، وعندما طلب مني الشيخ أن أتكلم وألا أصمت أبدا لم أفهم معنى كلماته. وعندما كنت أنتظر الفتح قل صبري وتكاثر حيرتي كما الغيوم قبل المطر ولكن القطرات بدأت تتساقط

فتوقظ النفس النائمة وتزعج الوهم المستقر. أدركت أن فتح الله عليّ كان في كلماتي التي أقولها؛ في المعاني التي تصل إلى القلب، في شعور خفي يأتي بلا موعد، فتصطحبه لذة مختلفة كطعم العسل وهو يسري في العقل المفزوع، أو كنبع من الماء يخرج من الآكام. راحة مختلفة تمر عليّ ثم تختفي، يقين ما يأتي إلا ليرحل ولا يكاد يستقر. ولكنه كلما مر غريل الكون من حوله كأن العالم كله أصبح ملك يدي والزمان في قبضتي. من الصعب أن أشرح لك، ولكن الكلمة فتح، والصدق فتح، واليقين فتح، هل تسأل عن كراماتي يا أخي؟ لا كرامة لي سوى أنني حاولت الصدق مع نفسي قبل غيري، أحياناً أخفق، وفي بعض الأحيان أنجح.

عدت إلى الإسكندرية غير التي تركتها. ذاع خبر وفاة الشيخ وبكى الناس. ثم بدأ بعض الفقهاء الهجوم على أفكار الشيخ وتلاميذه. خرج الشيخ تقي الدين يدعو إلى نبش قبر العارف بالله ابن الفارض ويكفره، خرج يدعو أهل مصر إلى طرد كل أهل التصوف. كل من صمت وقت شيخي وجد صوتاً عند وفاته.

نشر الشيخ تقي الدين رجاله على بيوتنا حتى قبل أن أعود. ترك تلاميذه أشغالهم وتفرغوا لسبب الصوفيين وضريهم. هاجت الإسكندرية وماجت. وعبد الباري صديقي - لسبب لا أعرفه - لم يتعرض لنفس السب ولا الاضطهاد. بل خرج الشيخ تقي الدين وبرا عبد الباري، قال إنه غيرهم، هو شيخ بحق وله كرامات، هو فقير ويشفي المرضى ويفك كرب المظلوم. عدت إلى الإسكندرية لأجد نفسي غريباً مرة أخرى، بل مضطهداً هذه المرة. عانقتني زوجتي في وجوم ولكنها قابلتني بثبات لم أتوقعه، كانت محاربة ولم تنزل. وعند العودة جامني هائف بكلمات كنت أردها بقية عمري: أحوال العبد أربعة لا خامس لها: النعمة، والبلية، والطاعة، والمعصية. وكانت

أحوالي الأربعة مجتمعة، وأنا مقيد بحالي ووقتي.

قالت لطيفة ليلاً: أحمد.. لم يعد لنا مكان هنا.

نظرت إليها بلا كلمة. فأكملت: متعرف ما أقصد. غدا تفهم قصدي.

وفي اليوم التالي فهمت ما تقصد. عندما ألقى الرجال عليّ الحجارة وسبوني أنا وأولادي في الطريق إلى مسجد العطارين فهمت ما تقصد.

وقف رجال الشيخ تقي الدين يهددون بقتلي، وانجست الشتائم من أفواههم بلا توقف.

عدت إلى بيتي فقالت لطيفة: ألم أقل لك؟ تغيرت الإسكندرية علينا كنت تعطي دروسك في قوص، يمكننا الذهاب إلى هناك أو القاهرة أو دمياط أو أشمونين أو بهنسا، اختر أنت المكان، أو ربما من الأفضل أن نتوقف بعض الوقت عن إعطاء الدروس ونهتم بالتجارة وتربية أولادنا يكفي من رحلوا يا أحمد. أقسم إنني أخاف رحيل أحد ممن أحب بعد هذا.

نظرت إلى عينيها ثم قلت: أنا لن أترك الإسكندرية؛ لا الآن ولا بعد أعوام.

فتحت فمها فقلت وأنا أريت على يدها: تعالي نجلس مع الأولاد.

امتسملت لقراري ولكنها لم تتقبله.

في ليلة عودتي نفسها جاعلني رسالة من الشيخ العدوي أنه يريد أن يراني. انقبض القلب وضاق الصدر. ولو كان هناك إنسان في هذا العالم لا أريد رؤيته بقية عمري فهو الشيخ العدوي. كنت أتوقع أنه يريد أن يعتذر ولم أتأكد أنني أستطيع أن أسامحه. وعده بلقاء في الصباح ولم أخبر لطيفة.

لم تلتق أعيننا ولم أقوْ على هذا. قبضت على شفتي وأطرقت وهو يتكلم
بلا توقف ثم قمت قائلاً: لنسير معاً يا شيخ على شاطئ البحر.

سار بجانبى وأنا أحاول أن ألهي نفسي عن غضب هائل يجتاحها، تمنيت
أن أرهق من السير حتى يخمد الكره ولكنه قال فجأة: أريد أن أصارحك يا
أحمد..

توقفت ونظرت إليه، فقال في خجل: لحظة دفعت بهم، لاح على بالي
موتهم جميعاً وتمنياتها، ولكني لم أكن أريد موت علي. هل تفهمني؟

تجمدت مكاني كأن الصاعقة تمكنت من كل الجسد وفثنته.. لم أنطق.
فقال هو: أفهم لو كنت غاضباً مني، لم أقصد موته ولكنني تمنيت في لحظة
الغضب. صوته كان يستفزني، ضحكاته تشعل نيران الحقد. أريد أن أصدق
معك حتى يعفو عني ربي. أكره الأطفال وأكره علياً بالذات أو هكذا شعرت.

لم أنطق ولم أمتطع أن أرفع عيني إلى عينه. تمثل أمامي عدوي وميافي
ينغرز في رقبتة في مخيلتي، ففزعني خيالي غير المنسجم مع عقيدتي
وقناعتي.

قلت بعد برهة: وماذا تروم؟

- أريدك أن تعفو عني.

- يعفو عنك الله.

- وأنت يا أحمد؟

قبضت يدي وخرجت رجفة من كبدي ثم قلت: سأحاول.

- هل تسمح لي بحضور دروسك؟

قلت مسرعًا: أخاف أن يلهيني الغضب عن ربي. أعذرني هناك الكثير من الشيوخ تستطيع أن تحضر دروسهم.

- تمنعني من درسك يا أحمد؟ أي شيخ صوفي أنت؟!

لم أمتطع الإجابة ولم أجد الشيخ لأحكي له. كنت في الأربعين بكبد لا يبرحه الألم بعد، ونفس يستعصي علي ترويضها.

قالت وهي تخلع عني عباءتي: ماذا بك يا أحمد؟
لم أجب.

وضعت الطعام أمامي فلم أكل.

اقتربت مني فأبعدتها في رفق ثم ذهبت إلى خلوتي. سبحت باسمه في ظلام الليل، تلاشت النجوم من حولي ولم أر سواه هو، كان قريبًا، لأول مرة أقرب منه هذا الاقتراب. همست: تركت نفسي إليك فلا قدرة لي. وجدت ساعة ثم سمعت طرقها على الباب، قالت في قلق: أحمد..

فتحت الباب وقلت: اتركني اليوم يا لطيفة. ماقضي الليلة هنا.

نظرت إلي في ذعر ثم قالت: حسنًا كما تريد.

أدارت ظهرها لي فناديتها: هل تخافين؟ مم تخافين؟

أحاطت جسدها بذراعيها كما تفعل وهي حائرة ثم قالت: لا أعرف، ينقبض قلبي هذه الليلة.

أمسكت بيدها ثم قلت: اتركني بعض الوقت ومألحق بك.

قالت لأول مرة: لا تتركني أدام وحدي اليوم.

فقلت في حسم: لن يحدث.

لكنني كنت منزعجا من كل البشر وأردت أن أختلي به هو ليدرك حجم عجزني وتفتت هشاشة القلب. كلما لجمت النفس وروضتها تصارعني كاشرس الوحوش. كنت أفضل البقاء أيا ما في خلوتي، ولكن الدنيا تجذبني لمسئوليات واحتياجات من أهلي فلا مفر. اليوم عدت إلى حجرتي وأنا أجر رأسي جزا.

استلقيت بجانبها، وجدتها تزعم النوم، وما إن تمددت حتى وضعت رأسها على صدري وأحاطت بطني ونامت.

ترقرقت كفي على القلب المذبوح فلم تبرحه، فأبقيت كفي على قلبي حتى لا أصرخ. أصبح النوم أقسى عقاب يبعث بالهواء الوخم، ويصيب الجسد بسقم لا علاج له. حلمت بالشيخ العدوي، في حلمي كنت أضربه بالسيف مرة واثنين وثلاثا، أفزعني العنف بداخلي حينها. أسمع في حلمي نداء ولدي، ثم أضرب رأس العدوي فأسمع صيحته من الألم. انبجست الدماء وتفتق الرأس واحتضنت عليا ولدي، والرجل يستغيث: قتلني يا أحمد. في أحلامك تقتل يا شيخ. تحب الدماء وتريحك. دماؤه كأنها حقيقية تنتشر على جسدي، ثم تصل إلى القلب، فيفزع قلبي والدماء تغمره ولكنه يطلب المزيد لا فطام من طعم الدماء في فمي، كنت أموت ألفا. لم يكن فقط حلقا، كان شرا بداخلي لم أدرك حجمه ولا أين اختبأ، وكان حسرة على ولدي ورغبة خفية في الانتقام.

سمعت لطيفة أنيني فأيقظتني، لم أجب ولم أفتح عيني، ولكنني استيقظت من حلمي وغفلتي.

كنت أحمد.. وحيدا وسط البشر تطمرني ظلمة بديعة ومسجن متقن. كنت أحمد.. طفلاً ضعيفاً، لا عذاب يودي بقلبي بعد، ولا ماضي ينكأ جروحي.. كنت ثالثاً بين خبايا نفسي لا أتوقعها ولا أعرفها. انتصف الليل.. وضعت يدها على كفي وهي تقول في تردد: أحمد.. أمسكت بيدها وقبلتها قللاً: نامي حبيبتى..

- ما بك؟

- شيطان ينفذ الصدر بين الحين والحين لا تشغلي بالك.

أغمضت عينيها ولم تحاول أن تفهم أكثر. تعرفني وتعرف ما تتوقع.

صرخت نفسي بينما صمت اللسان، سمعت تأوهات الصدر، علت حتى صُفْتُ أذناي، استغفنت به هو: كنت أظنني وصلت إليك.. اجذبني فلا حيلة لي. أو لا تجذبني فلا حيلة لي أيضاً. افعل بنفسى ما تشاء. أسلم لك اليوم بلا انتظار وبلا ترقب.

خرجت دمة من مقلتي إلى كفي، وتسلل بعض رباها إلى أغوار قلبي، نمت أو سهوت.. لا أتذكر شعرت بثقل على كفي كأن يدا تمسك بيدي، تحيط كفي. تسريت مياه رطبة صافية إلى شراييني، كأن الجسد ينهض، بل يرتعد بصحوة مختلفة ونشوى من نوع لا يمكن شرحه ارتعد الفؤاد مما رأى ولكنني لم أتحرك فتحت كفي لأقبض على اللحظة ولم أستطع بقيت مكاني أحاول استعادة ما حدث ولم أتمكن راحة واطمئنان، يقين ومسور صوت في حنايا الأضلع يضيء مساعدى بنور ليس كمثله نور. انطلق النور مهرولاً فازاً بين جوارحي وكأني مت للتو أو ولدت من جديد.

لم أجرؤ على التحرك ولا استعادة ما حدث. هل هذا إنسى أم ملاك، أم نفحة من رضاه؟ من أمسك بكفى؟ ومن وضع الضوء داخل الصدر؟ من أين

هذا الأمان وسط كل اليأس؟

اعلم أيها السالك الغريب أنه جذبني إليه باسمه القهار فقهر النفس
واختطفها ثم أفناها بين يديه، ثم جذبني باسمه الحي حتى مات كل
مفقود وبقي الواحد الموجود، وجذبني باسمه الله حتى أقيم في حضرته
غير مكترث بجنة ونار.. والشرح معدوم، والفهم محذور، والكلمات زففات
تخرج من الأحشاء.

نمت في اطمئنان يحاكي ألوان الجنة ونفحات قربه.

إليك أنت.. يا عالم الأسرار هناك مر بيني وبينك. كنت أبحث عنك بلهفة
التائه ويأس الخلف، ثم بحثت عنك بشوق المحب ومعرفة المطمئن.
ملككت مسالك الوجد والأسى، ثم ملككت مسالك الحيرة والضياع، ثم
ملككت مسالك القرب والسكن. يقولون: كيف تحب ربًا لا تراه؟ ولكنهم لا
يعرفون رؤيتك ولا حولك. كنت أرى السعادة في الأشياء من حولي؛ أناس
أنتمي إليهم، وطن يتسرب من بين يدي ويتلاشى، حرب وخير وشر وفساد
ورحمة. ولكنني بحثت هنا، داخل الفؤاد، ما كذب الفؤاد ما رأى. كيف أصف
لك يا ماريو؟ هل متعرف لو لم تتذوق؟ قالها الشيخ العارف ابن مشيش
لشيخه في الماضي، اليوم فقط أدركت معناها: وحب الله قطب تدور عليه
جميع الخيرات، وأصل جامع للألوار والكرامات. ثم حدث ما كنت أنتظره
عندما توقفت عن الانتظار. ممضي عندما توقفت عن النداء، ولجأت إليه
لجوء المضطر لا لجوء الفزع والرعب. اقتريت بعجزى فأدركني بقوته.

يومًا كنت أحارب اللجج بباعي القصير ثم تمنيت الموت حينها رغبة في
توقف العذاب. واليوم تركت الأمواج تحملني، فترققت ورفقت بي، فتمنيت

لقاءه شوقًا لا خوفًا، مكنونًا لا رغبة في توقف الألم.

سمعت كلماتهم جميعًا، رأيتهم أمامي يحدثونني أنا، كأنهم جاءوا من أجلي أنا.. كل من سلك الطريق قبلي ومن بعدي.. كنت مكلفًا لا أعرف بالضبط بماذا. وكنت أسير في مسلكي إلى الغاية كما شجرة الزيتون لا شرقية ولا غربية.. رأيت نوره طبقات طبقات بلا نهاية. أيقنت وشاهدت وكفى.. لا تسأل يا أخي عفا لا يمكن وصفه.

تغير حال الإسكندرية وحال مصر سقطت دولة وكانت تبدأ أخرى ولم تستقر بعد. جاء فتولي جديد للإسكندرية، يقولون إنه جاهد في المنصورة وأتى بالبطولات والتضحيات. ذاع صيته وذاعت أخبار تقريره للفقهاء والقضاة. أما أنا فعاداني صديق وعاداني عدو. بعض الفقهاء والقضاة أصبح مهمهم هو أحمد أبا العباس الفرسي وخروجه من مصر وصديقي عبد الباري كان عداؤه أخطر وأشد قسوة على نفسي. ذهبت لزيارة عبد الباري. زيارة الصديق كانت واجبة عليّ ليس فقط لأنني أكره العداوة، ولكن لأنني كنت أحبه. في الماضي ضحكنا معًا في زمن قلت الضحكات، وقفنا مذهولين معًا لا نفهم أحيانًا كلمات الشيخ، فنغوص في الحيرة ليلة أو اثنتين نقرأ ونتناقش، سافرنا معًا وتبادلنا الرحال مرة ومرتين. تعلمنا معًا أن نربي أنفسنا، فكيف لنا أن نخزن الحقد؟ استغفرت ربي وذهبت إلى عبد الباري في بيته البسيط، استقبلني بهدوء وجلس أمامي، قلت له إن وقت الحزن تختلط علينا الكثير من الأشياء، وإنني أريد لنا ألا نضل الطريق، فطريقنا طريق تخلّ وليس طريقًا للكسب أو الرياضة. نظر إليّ مليًا ثم قال: تخلّ إذن يا أحمد.

تذكر أنك حملت رواية ماريو وأبو العباس حصريا ومجلانا من على موقع

مكتبة بيت الحصريّات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميّزة
والجديدة والنادرة.

أطرقت وابتسمت ثم قلت: أحاول يا أخي.

- جئت إلى الطريق قبلك.

- أعرف.

- أنا أحق بخلافة الشيخ.

- يفعل الله ما يريد. نحن تعلمنا أن علينا تكليفاً في هذه الدنيا، وهذا
التكليف هو أن نعلم ونُذلل على السبيل إلى الله لا أكثر. لا نبغي فيه حب
الناس ولا نسعى إليه.

- توقف عن دروسك وعن التفاف مريدي الشيخ حولك.

- أكون قد خالفت وصيته وأنا لا أمتطيع.

- بل تجد هوى في نفسك للخلافة، تريد أن تكون قطب الزمان والولي
والحكيم. لا امتطعت أن تحارب نفسك ولا أن تسمو بها.

قلت في صدق: أحاول ولا أدري لو امتطعت.

- تتوقف عن التدريس ثم تخبر المريدين أنني أحق بخلافة الشيخ، أو
تنسى أننا كنا أصدقاء.

- لا أمتطيع أن أكون خليفة له ولا أجرو. أعطي الدروس ولا أريد سوى أن
أحمل المعرفة من يد ليد. أدرس وتدرس، بل ندرس معاً في نفس المسجد
نفيد الناس، ولا نبغي شهرة ولا حياء من الخلق.

- الإسكندرية لا تسع عبد الباري وأحمد. ضاقت علينا مقاً.

- أرض البدن هي التي تضيق على الروح، أما أرض الله فدومًا واسعة.

- ارحل من هنا.

- كلفني بها شيخي.

- ارحل من مصر كلها تسلم

- لو كنت تتكلم عن سلامة البدن فلا شأن لي به، أما سلامة القلب فهي كل ما أبغي أمد يدي إليك يا أخي.

نظر عبد الباري ليدي الممدودة ثم قال في جئت تريد الحرب لا السلام.

قلت في إصرار: جئت أبغي الصداقة والسلام. أريدك معي .. ولا تطلب مني أن أتخلى عن وصية أبي وشيخي، فلا أمتطيع.

فتح باب البيت ثم قال: لم يعد لك مكان هنا يا أحمد.. لا في بيتي ولا في الإسكندرية.

أصاب الحزن قلبي وكنت أرتع فيه وأمسكن، بل جاءني هاجس وطنين في أذني ساعة أو أكثر هناك قبح داخل البشر يحزنني ولا فكاك منه. كيف لي أن أصفح وأنفاسي عن هذا؟ وهل أمتطيع؟ رددت كلمات سمعتها مرارًا من شيخي وسمعتها هو من شيخه: اهرب من خير الناس أكثر مما تهرب من شرهم، فشرهم يصيبك في بدنك، وخيرهم يصيبك في قلبك.

ولكنني هفوت أو كنت. ترددت في إعطاء دروسي، وبقيت الكلمة في حلقي مخنوقة تكاد تحتضر. وجدت في نفسي بعض الغضب فخجلت أن أعظ الناس بما لا أملك. استغفرته وملت إليه ثم جاءت البلية أو أوشكت.

كنت شاردًا، تارة أفكر في قلبي الذي لا يغفر للعدوي.. وتارة أفكر في
فؤادي الذي لا يصدق نهاية الصداقة، وتارة تؤلمني أضلعي وأنا أفقد
الشيخ والأب الذي حملني من البحر إلى البر في ساعة أو كاد. كنت في
الخان مع أخي والشهود يكاد يسكن خاطر. قال لي بصوت عالٍ: هذا
القمح يريد شراءه تاجر من قوص.

قلت بلا تفكير: نعم.

- هل نبيعه كله له؟

- لا بأس.

- جاء القمح أمس من بلبيس.

فقال محمد أخي: هل عاينته يا أحمد؟

قلت وأنا أقوم لأحمل معه القمح: لا بأس نبيعه للتاجر.

بعنا القمح لتاجر قوص ورحل. لا أتذكر لو كنت عاينت القمح قبلها بيوم أم
لا. شردت وجذبتني الدنيا. غفلت فتعصرت. كان مهتلئًا بالسوس. كيف
استقر السوس في القمح في ليلة واحدة؟ وهل غير أحدهم قمحًا. لم يكن
هذا هو شاغلي. شاغلي كان أن التاجر اشترى منا قمحًا ثائفًا ودفع فيه
الكثير ورحل عنا.

لم أدرك كل هذا إلا عندما أمسك أخي ببعض الحبات ثم قال لي في فزع:
انتهينا يا أحمد.. ميقولون: أبو العباس وأخوه يبيعان القمح التالف
ويخدعان التجار.

هرولت أبحث عن التاجر لأعطيه المال فلم أجده. شددت الرحال إلى
قوص والمال في جيوبي، والياس يقترب ولا يخترق قلبي.. ولأول مرة

أسهو في طريقي أو أنام فأصحو لأجد الأموال قد سرقت. رأيت السارق يجري فجريت بأقصى سرعة لألحق به، ولكنه تلاشى من أمامي. كان البلية استحكمت وسيطرت، وكان فضيحة أبي العباس لا بد أن تنتشر.

جلست في الصحراء ألاجيه.. إلهي استرني ولا تفضح عبدك الغافل. إلهي، قد أحاطت بي خطيئاتي فاغفر لي، وهب لي علقًا يوافق علمك، وحكمًا يصادق حكمك، واجعل لي لسان صدق بين عبادك، واجعلني من ورثة جنتك... وارفع الحجاب فيما بيني وبينك، واجعل مقامي عندك دائمًا بين يديك وناظرًا منك إليك، واسقط البين عني حتى لا يكون شيء بيني وبينك....

تمثل أمام عيني ما هو قادم أن يتهموني في صدقي كان بالنسبة لي أقسى من تقطيع جسدي من خلاف وهل هذا يا ترى لأن الأنا لم تزل تعطو بين جوارحي لِمَ أهتم بأحكام البشر، ولمَ أهتم بالفضيحة لو أنه هو يعلم. ولكنني أخطأت وغفلت، كنت أعرف ذلك.

رددت وأنا أكلمه: اللهم لا تعذبنا بإرادتنا وحب شهواتنا، فَنُشْغَلْ أو نَحْجِبْ أو نفرح بوجود مرادنا، أو نحزن أو نسخط أو نسلم تسليم النفاق عند الفقد وأنت أعلم بقلوبنا، فارحمنا بالنعيم الأكبر والمزيد الأفضل، والفوز الأكمل، وغيبنا وغيب عنا كل شيء، وأشهدنا وإياك بالإشهاد، وانصرنا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

عند الفناء كنت أشرح درمي في كتاب إحياء علوم الدين، ولا يستمع لي سوى ابني الشيخ محمد وأحمد ومسيحة عجوز لا تخاف من تهديد الفتولي. التف المریدون حول عبد الباري، أو بقي بعضهم يتعبد في بيته، ومن يعرفني حاول المساعدة ربما، ولكن يد الفتولي تبطش بلا تمييز والفقيه

يُكْفَر كل يوم أهل التصوف أجمعين، أما عبد الباري فاستمر في درسه في الإسكندرية. كنت أسمع الكلمات تتناثر من حولي عنه، البعض يقول: عبد الباري شيخ يبطل السحر ويعرف الكلمات التي تبعث على السعادة، لا يقبل المال ولكنه يتقبل الهدايا. هو قريب من الله أنا متأكد. له كرامات ومعجزات.

أغمضت عيني وعبس وجهي، ما ألمني لم يكن كون عبد الباري يخطب في الناس بقدر ما ألمني ما يفعله بالكلمات والعقول ألمني ما ميظنه الناس خطأ عن أهل التصوف كنت أقول عند سماعي: كل شيء بيد الله ليس لأحد وساطة بينك وبينه. شيخك من يوصلك إلى الطريق ويفتح الباب، أنت من تدخل، لا حجاب بينك وبينه سوى نفسك.

كنت أتكلم عن الكرامات فأقول: بل أكبر الكرامات أن تكون في الظاهر ممتثلًا لأمره، وفي الباطن مستسلفًا لقهره، وإن شئت قلت: الصدق في العبودية والقيام بحقوق الربوبية. الكرامة هي أن تطوي عن نفسك أوصافها، أن تبدل خلقًا ذميًا بخلق حميد. كنت أقول في حسم: ليس الشأن من تُطوى له الأرض فإذا هو بمكة أو غيرها من البلدان، إنما الشأن من تُطوى عنه أوصاف نفسه فإذا هو عند ربه هل جاهدت نفسك؟ ما أسهل ادعاء المعجزات وكثرة الصلوات! وما أصعب هوى النفس وتمكن الكبر والحقدا!

ينظر إلي الناس في دهشة من جرأتي على الكلمات وأنا منبوذ من أصحاب الحكم في البلاد ومن الوالي نفسه، أجلس داخل الفناء أدعوه. طوال عمر الماضي، أربعين عامًا ظننت فيها أنني قادر ربما حتى تمكن العجز واستقن ولكن صاحبه يقين من نوع مختلف بأنه يعرف كل شيء. تمتعت: لو أريدني أن أتكلم تُحلل عقدة من لساني، ولو أغلقت كل الأبواب بيدك تفتحها. يا

رب، افعل بي ما لا يفضبك.. أنا طوع يدك.

وجد عبد الباري في مُتولي الإسكندرية الحاتم بن قيزم صديقًا يحمل الكره نفسه والحقْد على أحمد. فلا أحمد يدق بابه ولا يطلب رضاه. يستفزه اعتزاز الصوفيّين بأنفسهم، ويستفزه أكثر الفرسيّ الغريب الذي يسير بين أنحاء الإسكندرية دون أن ينحني احترامًا للفتولي. حتى من اتبع أبا العباس في البداية خاف من حضور مجلسه. بطش الفتولي عظيم، والبلاد تمر بحروب جديدة، والتتار أقسى من الصليبيين.

عرف الفتولي أنني لم أزل أختلي في الفناء أخرج صباحًا وأتكلّم مع من يريد أن يسمع، تشوش كلماتي كلمات عبد الباري وتُفضّب الفقيه تقي الدين.

خرج الرجال بالعصيان الغليظة، والأطفال بالأحجار ورالي. قال الرجال بأعلى صوت: من يتبع أبا العباس فهو هالك، يدعو إلى الكفر والبدع.

أما الأطفال فمكتوا ورالي يلقون عليّ الحجارة، وهم ينعتونني بالشتائم ويحطونني على ترك الإسكندرية. والكلمات تحبس في أحشائي مُنتظرة الخروج، تزداد كل يوم كأ مطار الإسكندرية، تتجمع كالبحيرات المرة والحلوة. أنا أحمد الذي لم يكن يوحا يحب الكلام أصبح يتوق إليه. أريد أن أشرح الطريق والتجربة والجهاد الأكبر أريد أن أحكي عن النفس والعجز والسر والحب. أتمنى أن أتكلّم عن القلوب والنوايا والحفاظ على العهد.. ضاقت الإسكندرية حتى كادت تخنق صدري. توقف التجار عن التعامل معي. ذاع صيت الشيخ عبد الباري بعد أن صادق مُتولي الإسكندرية. ثم أصبح يده اليمنى في الإسكندرية. فهو مهيب من كل العامة والفقهاء. ابتعد الناس عن أبي العباس خوفًا وحيرة.

جاملي أخي يشكو حال التجارة التي كسدت، ويحطني على ترك مصر كلها.

ولكني كنت مكلفًا بالبقاء هنا، مأمورًا بإتيان هذا الثغر وهذا البحر.

ربما في غيبتني لم أدرك حجم المكائد ولا عددها. الفقيه تقي الدين وعبد
البارئ وفتولي الإسكندرية. عصابة عليّ أنا، نظموا الخطط كما ينظم الشاعر
كلماته وينسقها.

اليوم أمسك غلام بحجر كبير وألقى به بكل قوته ليصيب رأسي، عرفت
بعد ذلك أن عبد البارئ وعده أنه لو قتل أحمد فسوف يعتني به هو وأهله
طوال عمرهم، وسوف يحصل على ثواب الله. فوز عظيم في دنيا بخيلة لم
تُعط الغلام سوى البؤس والقسوة. اجتمعت كل الدنيا في قبضة الطفل،
وألقى حجره كأنه يلقيه على الشر الذي يحاصره. فشق جبهتي حتى
سمعت دوي الضربة ترج جسدي رجًا. تحملت من قبل ضربات الحجر ولكن
هذا الحجر كان أقوى من احتمالي. دارت الدنيا حولي، أمسكت بعيني
كأنني أحاول أن أحفظ ضومها. ثم سقطت على الأرض والدماء تتحرر من
جسدي. لا أدري كم مر عليّ، فيبدو أنني غبت أو كنت.

ثم التفت إلى جده قللاً: هل سيساعده أحد يا جدي؟

- لا، ألا يدعي الكرامات؟ فلتساعده الكرامات إذن. لا تلتفت لهؤلاء، حاربهم
طوال عمرك.

هز الطفل رأسه بحماس ومار مع جده.

حملني أخي إلى بيتي، فما إن رأني لطيفة حتى بدأت تضمد جراحي بلا
كلمة. فقال أخي محمد: يا اختاه، أقنعه أن يترك الإسكندرية، ضاقت الدنيا
هنا.

فرددت: حاولت ولكنك تعرفه لا يستمع لأحد. حاول أنت.

فقال محمد وهو يتكلم مع لطيفة: ميموت عما قليل.

فتحت إحدى عيني ثم نظرت إلى زوجتي وأخي، حاولت القيام فلم أستطع، الألم يضطرم في رأسي.

قالت وهي تضع الوسادة وراء ظهري: ستكون بخير.

ابتسمت لأنها حاولت أن تبدو ثابتة أمامي، بينما أصابعها ترتعش كالسمك الرعاد.

مر كفها بتلقائية على خدي كأنها تتأكد من أنني لم أزل أنبض بالحياة ثم قالت: أحمد أبو العباس لديه أمالة ميقويه الله حتى يؤدي أملته. نور وجمال يستكشفه داخل البشر تتذكر.

قالت جملتها الأخيرة بهمس. فابتسمت من جديد وسط الألم.

ثم قامت في نشاط مفاجئ وقالت لأخي: أجهز لك الغداء يا أخي. لا تبتئس من الفقر. الإسكندرية كلها خيرات ولكننا ننتظر ونصبر. فمن يبحث يجد كما يبحث أبو العباس داخل القلوب عن المرض ويعالجه فيصبح البصر حديدًا.

ولكنها خافت، بل جوف الخوف نفسها كالحروف الفارغة ع ثم ط.. لم تنم. لو أظهرت الشجاعة فقد أعياها الضنى والأرق. بعض الأطباء تقول إن ضربة الرأس تُميت بعد يوم أو اثنين. يفرغ الدم من الجسد الهزيل في صمت وتأثر. كل حين تنتفض من مكانها بجاني ثم تحيل كل جسدها إلى وجهي وتنظر إلي في انتباه لعني تركتها كما فعل الأب والابن من قبل. تتساءل: هل يستغرق في نومه أم ينجي الملائكة؟

الوصول الثاني

أكملت كريستينا بعض أجزاء الحكاية، قالت لي:

عند الفناء قال له أحد الحضور: يا شيخ شتاء الإسكندرية كله مطر وريح وعواصف، لا بد أن تعطي درمك في مسجد العطارين كما كنت تفعل من قبل.

لم يجب. حزنت بعض نفسه على مؤامرات الصديق قبل العدو، وعلى اجتماع الخلق على الأذى قبل المنفعة. ولكنه ردد: وكان أمر الله قدرًا مقدرًا.

ليلاً وهو يُسَبِّح بعد الصلاة دخل عليه بعض طلابه وقد عزموا أمرهم، يعود الشيخ أبو العباس لدرومه في العطارين يدرس في وقت مختلف عن عبد الباري، لا يمكن منع الشيخ من دخول المسجد وللناس الحرية في حضور هذا الدرس أو ذاك. فتح مسجد العطارين أبوابه لأبي العباس من جديد. لم يستطع عبد الباري أن يمنع الناس من الاستماع. الصدق يتخلل كل الصخور على ما يبدو. من ينجذب لهد الباري غير من ينجذب لأبي العباس، ومن يتفكر في كرامات الشيوخ يجد أن أبا العباس يدعو إلى معرفة النفس والله، ويرى في اليقين أكبر الكرامات. البعض تخيفه الكلمات وتزعج اعتقاده الراسخ وطريقه السهل، والبعض يجد فيها ما يبحث عنه. ومن يحضر درس أبي العباس ولو مرة تلوح الطمانينة حوله ولو ساعة. واستمر أبو العباس يدرس ويعلم المريدين ويتاجر في القمح مع أخيه. اختفى مُتَوَلِي الإسكندرية وجاء غيره، وكلما جاء مُتَوَلٍ وطلب لقاء الشيخ كان يعتذر قائلًا: لا طاقة لي بالرياضة ولا أصحابها. لست ممن يلعب به، والله إني ألقى الله، ولا يراني المتولي ولا أراه. كلماته لا تترك الأذن، يخطب في الناس: أوقات الهد أربعة لا خامس لها: النعمة والبلية، والطاعة والمعصية.

ولله عليك في كل وقت منها سهم من العبودية، يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية. فمن كان وقته الطاعة، فسبيله شهود المنة من الله عليه، إذ هداه لها ووفقه للقيام بها. ومن كان وقته المعصية، فسبيله الاستغفار والتوبة. ومن كان وقته النعمة، فسبيله الشكر وهو فرح القلب بالله. ومن كان وقته البلية، فسبيله الرضا بالقضاء والصبر. والرضا رد النفس عن الشهوات؛ والصبر مشتق من الأصاب، وهو الغرض للسهم، وكذلك الصابر ينضب نفسه غرضاً لسهم القضاء، فإن ثبت لها فهو صابر وكان يعرف أن أوقته لم تزل بين نعمة وبلية وطاعة ومعصية. هو جهاد مستمر. وأي غبار يحجب الرؤية ويقطع الموصول. يبتعد عن الغبار قدر استطاعته ولو مر خاطر طرده. أيام الإسكندرية انتعشت بعد أن قرر السلطان بيبرس البندقداري أن يعزز الحصون، ويبني أسواراً جديدة للمدينة، سوف يقلل الضرائب ويهتم بأهل الإسكندرية. ولكن شيخ السلطان، الشيخ الخضر كان هو الرجل المهيمن على السلطة في الديار المصرية، السلطان يطيعه بلا نقاش. والشيخ الخضر بن أبي بكر بن موسى المهراني لا يريد رجلاً في كل البلاد تبلغ محبته قلوب الناس. وللشيخ الخضر بعض الضعف أو الكثير منه. تردت الكلمات بين الطلاب يحكون عن شيخ السلطان، وعن شففه بحب نجمة خاتون، يقولون: جمالها يذهب العقول ويسلب الرجل علمه. انزعج أبو العباس، بدا الغضب عليه وتحكم فيه. لم يعجبه شرود الرجال وتفكيرهم في نجمة خاتون حتى قبل أن يروها، ولم يعجبه الغيبة والنميمة. نهاهم فلم ينتهوا. استغفر ربه وبدا لهم عليه، حتى قال ياقوت: سيدي هو زمن يُسلب الرجل فيه فطنته لا تغضب منهم.

- لا أغضب منهم يا بُني، بل يصيبني الحزن على من يشارك فؤاده صورة ورمم، بينما هو بين يد الرحمن فقال ياقوت: ليس خطأهم هم بقدر ما هو خطأ الشيخ الخضر يا سيدي. فقيه مثله وشيخ لا بد أن يكون مثلاً يُحتذى

به. عندما نزل قدم الكبير ماذا نتوقع. هي الشابة الجميلة التي تسلب الرجال علمهم، تسرق الأذهان فيتركون الصلاة والصيام بحثًا عنها. نجمة خاتون كما الساحرة تُضل الرجل وتسلبه ذاكرته.

نظر له في عتاب ثم قال: لا أحب أن تحكم على الناس، فنحن لا نعرف خاتماتهم. لا تسئ الظن بأحد قط.

قال ياقوت: معك حق يا سيدي.

جاءت الرسالة إلى الشيخ الخضر من القاهرة، نجمة خاتون تربده في قصرها. امتنشق عطر الرسالة وابتسم ثم قال لحاملها: إن الشيخ الخضر لا يأتي لأحد. من أراد منه شيئًا يأتي إليه بنفسه.

مر يومان وبدأ القلق يساوره. هذه ليست فقط أميرة من البيت الأيوبي، هي نجمة خاتون.. مَنْ تجذب الرجل فينسى زوجته وجاريته، ثم ينسى حربه وذاته، ثم ينسى أطرافه وجوارحه، ثم تصيبه بهيئتها فيمرض حتى الموت. غاب الرسول ولم يأت الرد. بعث هو رسولًا من عنده يهدد، قال الرسول: من يُغضب الشيخ الخضر ينتهي به الأمر محطًا كما الأصنام.

تجلت له نجمة خاتون بعد مبعة أيام، طرقت الباب ودخلت وحدها، وقفت أمامه برهة ثم خلعت خمارها، فكاد يسجد أمامها من فرط الانبهار. اجتمعت كل الأزهار على وجنتيها وكل السيوف في جفنها الناعس ورموشها الطويلة، كاد شعرها يمتد ليحيط كل قصره. حتى الشيخ الخضر لم يقو على النطق. ولكنه احتفظ بما تبقى من رمق وحيائها وطلب منها الجلوس.

جلست بين يديه ثم اقتربت لتقبل يده، مسحت بيدها الناعمة على كفه الخشن فارتجف، وقال في رقة: أملك سيديتي..

- جنتك أبغي السكينة والأمان. حرمت منهما دهرًا.

لامس ثغرها كفه ثم نفخت في ضعف شعرة ثارت من إصبعه وتركت يده.
لا تدري كم مر قبل أن يسجد الشيخ بين يديها، وهو يكاد ينصهر بين
أضلعها. غاص داخل صدرها طالبًا النجاة وتمتم: لك كل ما تريدين.. كل
السكينة وكل الراحة. تستحقين وأكثر.

توغلت بأصابعها داخل شعره الأبيض ثم قالت: يقولون دوالي عندك. وها
أنت تخدعني بكلماتك المعسولة.

- أعطيك حجابًا لا مثيل له. يحميك من كل شر.

- الشر بداخلي يا شيخ.

- لا أشعر سوى بالجنة بين أضلعك يا سيدتي.

- تريد أن تأخذ ما ليس لك.

ابتعدت في رفق فدفع بها إلى أحضانه مرة أخرى يبحث عن جسدها داخل
ثيابها، فيمتزج ملمس الحرير ما بين جلدها وثوبها فيختلط عليه الأمر.
يعتصر ذراعها فتأوه ولكنه لا يبالي. ترفع يدها وتومئ للغلام أن يدخل،
فيدخل غلام قوي يدفع بالشيخ بعيدًا عنها في حسم. قال الشيخ ودار
الشهوة تدفع به فيحارب كما الفرمان: إياك أن تعبثي مع الشيخ الخض
أفقدك عقلك لو تدربين.

- أعطني ما أريد أعطيك ما تريد. جنتك أبغي السكينة.

بلغ ريقه وصمت ينتظر أن تهدأ ضربات قلبه ثم قال: اطلبي من غلامك
الرحيل. ليس لك مواي هنا. لو أردت النجاة ليس لك مواي.

ابتسمت ثم قالت: يقولون إن السلطان يقف أمامك كالابن الشقي أمام أبيه،
يستمع وينفذ.. جنتك بطلب..

- ماذا تبغين؟

- السلطان قبض على زوجي ظلماً. عبد الملك زوجي، طوال عمره في
خدمته ولكن الواشين كثر.

قال وكأنه وجد مفتاح السعادة: أعرف وببيرس ينوي الإفراج عنه...
قاطعه: بيبرس! كانه أحد أصدقائك يا شيخ.. حسناً.. سمعت أنه يريد أن
يُبرئه من تهمة الخيانة.

- نعم.. تريدان عودة زوجك، هل هذا ما تريدان؟ اصرفي العبد..
اقتريت منه، الصقت جسدها بجسده ثم قريت فاهها فكاد يلتهمها بفمه.
قبلة غير كل القبل، لم يذق طعم الوجد بعد. حتى هو.. لم يدرك حجم
الإغواء إلا بين ثناياها. همست في أذنه وهي تقبل رقبتة: عبد الملك لا بد أن
يموت. لا يمكن أن يبرئه السلطان يا شيخ.

فتح فاه وتوقف عن تقبيلها فأكملت: فرج من الله وجاء لنا. تُحرض
السلطان على قتله وأتزوجك، وأنت تعرف كم رجلاً في الديار المصرية
يتمنى نجمة خلتون.

بقي صامتاً، فرفضت ثيابها ورأى أمامه ساقها كالسما في صفاتها، ولكن
علامات السوط لا يمكن تجاهلها، قالت في أمسي: عذبنني ويعذبني منذ سبع
سنوات لأنني أتمنع عنه. تنقذني أكن لك زوجة.

- ولكنه..

- هو فعل هذا وأكثر عبد الملك يستحق الموت. وأنا أمتحق الخضر زوجا.
قبل أن يمد يده ليمتلكها، تلاشت من أمامه في لحظات كما الفيمة والمطر
في أرض قفر

كانت نجمة خاتون فتاة صغيرة عندما قررت أمها أن تزوجها من الأمير
يوسف العدوي، أحد الأمراء الأيوبيين. ضمنت الأم مقعدًا في حضرة
السلطين والأمراء، وتخلصت من طفلة لا تبعث إلا على الكره، لا تنفذ أوامر
ولا تتعلم من الكبار. وفي هذه السن أدركت حسناتها وقدرها، ولكن الزوج
العجوز مات في المنصورة شهيدًا، ولم تنجب له نجمة خاتون. لم ترحمها
والدتها ولا تركتها تنعم بالإرث، استولت على الأموال ثم زوجها من رجل
ثانٍ، أول ما رآها خر راقفا أمام حيلها وجمالها وبهائها، ولكنها كرهته كما لم
تكره أحدًا من قبل، بصقت في وجهه عندما حاول أن يعاشرها عنوة،
فضربها حتى رقدت على مخدعها شهورًا بلا حركة. لم ينل منها شيئًا حتى
طلقها، وبقيت حرة لأول مرة. اتخذت الشراب صديقًا يعطيها الراحة
والنشوى بلا مقابل، لا يسأل ولا يحكم. ثم كان تعرفها على الحشيش ولكنها
فضلت عليه النبيذ الأندلسي. ولم تستطع التخلص من سطوة أمها حتى
أعطت نفسها لأحد الأمراء طواعية، وطلبت منه أن ينفي أمها خارج البلاد،
ثم تزوجته وحملت منه ولم يكتمل حملها ولم تنجب، من جديد بعد برهة
كرهته، ومات عشرته هو الآخر فضربها، وأهانتها وقررت التخلص منه. أمها
القادم هو الملك الظاهر ركن الدين بيبرس نفسه. فلا يوجد في مصر من
يستحق أن يجلس على عرش السلطنة سوى نجمة، هي نجمة في السماء،
صارعها الحظ كثيرًا ولكنها تصنع القدر وتطوعه. متصل إلى بيبرس هذا
أكيد. يقولون نجمة عقيمة، يشتمون ويغلون ولا تبالي. فكم من زوجة

أنجبت العشرات ثم كان مصيرها الإهمال والخسوف. أما نجمة فجماها من الجنة ويدها تدفنان وتعالجان كما شيوخ الطريق. ولكن زوجها يقف علاقًا للوصول إلى الملك نفسه. كان أكثرهم قسوة ودهاء. ولم تستطع التخلص منه. لا يموت ولا يفنى ولا يسافر يخنقها كما أمراض الصدر. يضربها إن خرجت ويحبسها إن تمنعت. ما دام هو موجودًا فلا طريقة للوصول إلى بيبرس. ولكنها لا تعيا الحيل. مفتاح الملك مع شيخه. وشيخه اليوم ذائب في رحيق صدرها.

حكى ياقوت العرش لماريو

تريد أن تعرف كيف واجه أبو العباس الشيخ الخضر؟

أقول لك يا ماريو، أخبرك عن نفسي وعن الصفعة التي لم تؤثر في لأول مرة أشعر بهذا الزهو وهذه الطمأنينة لأول مرة أتمنى لو استطعت أن أنتشر حول أبي ومعلمي كالشبل حول الأسد انتفض صدري بالفخر بشهاب الدين أبي العباس أحمد الفرسي، أنا الحبشي ابن الفرسي. رأيت الشيخ الخضر يدخل بردائه الأبيض وعمامته الكبيرة الخضراء وحوله الحاشية بالسيوف والوالي يتراجع خطوات هيبة منه. وقف أمام أحمد الفرسي وضرب بعصاه على الأرض كأنه يهش بها كل الخير ثم رأيت أمام عيني جبلًا ثلثًا اسمه أبو العباس، وجبلًا آخر يتناثر كالغبار الصمت له هيبة ورونق لم أعرفه إلا هذه الساعة. صاح الخضر بأعلى صوته، رفع العصا مهددًا ومكث أحمد بثبات العابدين. انبثقت النيران من جوارح الخضر وتسلسل الضوء من قلب أحمد. لم أتلع الحديث، تلبت قلب والدي، تواصلت به في تلقائية واندماج لم أعرفهما من قبل. كانت قريتي مسيحية في الحبشة، عشت بينهم أعوامًا أعرفهم وأحبهم. أصبح أحمد يدافع عن جيراني وأهلي وعن ميادين

الأندلس وعن مساجد تهدمت باسم الرب وكنائس تهدمت باسم الرب.
أصبح أحمد أمي وأبي وقريتي وكل المدن وكل العالم. أبو العباس
الفرمسي.. كالمنطقس ينشر الخير على البشر أجمعين.

أصبحت كلمات القسيس تحمي كل الحضور كلماته موجهة لي أنا ياقوت
ولجمال الدين، ولأحمد.. تشدد وتشجع، لا ترهب ولا ترتعب لأن ربك إلهك
معك حيثما تذهب. معك حيثما تذهب يحفظك في الطريق.. أكاد أقسم
إنني لو قُلت حينها وضللت وقطعوا أطرافي من خلاف لم أكن لأبالي.

هرولت بهجة ابنة الشيخ إلي وقالت في فزع: كيف تتركهم يأخذون أبي
إلى السجن؟

بقيت ساكنة خجلًا وألقا فقال أخوها جمال الدين: وما نذب ياقوت يا
بهجة؟

قالت: لأنه كان معه. خُذني إليه.

قلت وأنا أتحاشى النظر إليها، كنت قد أتممت العشرين ربيعًا، وكانت في
الخامسة عشرة: سيدتي.. أنا سأذهب إليه مع محمد جمال الدين وأحمد.. لا
أظن المكان يناسبك..

قالت في غضب: تريد أن تمنعني من رؤية أبي. أنت تخبرني لو...

قاطعتها أمها: تعالي هنا. اتركي ياقوت هو يعرف ما يفعل.

قالت في تذمر: هو دومًا يعرف ما يفعل.

ثم دخلت حجرتها وبدأت في البكاء.

خرجت بعد ساعة أو أكثر وكنت واقفاً أتكلم مع أخيها، التفت إليها ثم أبعدت عيني عن وجهها البهي وقلت: سيدتي هل تسمحين لي بالكلام معك؟

نظرت إلى وجهي لحظة ثم قالت: طمئني على أبي.

فقلت في حسم: أعدك أن روحي فداه وأنه سيكون بخير هو بخير رأيتهم وتكلمت معه.

رفعت رأسها ونظرت إلي ثم قالت: كلني أصدقك.

فقلت في حماس وعيني تلتقيان بعينيها لأول مرة دونما قصد ولا نية: أبي وشيخي صدقيني.

قالت وهي تمنع رجفة خرجت أيضاً على سهوة: أنت يا ياقوت..

ثبثت عيني على الأرض ثم قلت: أنا ماذا؟

- أحياناً تبدو أقوى منا جميعاً كأنك لا تقلق مثلنا، لا تحسد مثلنا، لا تذهب أبداً.

- هذا مستحيل. دنوبي أمامي طوال الوقت.

- هذا أيضاً لا يحدث لنا. فلا نرى الذنوب ولا ندركها. هل ستأخذني إلى أبي؟

صمت برهة ثم قلت: أعرف أنني لو فعلت سيفضب مني ولا أريد إغضابه، ولكنني سأذهب إليه وأعود إليك أحكي لك كل شيء لو سمحت لي.

قالت في تذمر وبعض الطمأنينة: أسمح لك.. ليس لي اختيار.

قلت بلا تفكير: لو وثقت بي يا سيدتي..

فقلت مسرعة بلا تردد: أثق بك دوماً.

حكى لي كريستينا ونحن في الطائرة..

خبر إفراج السلطان نفسه عن الشيخ أبي العباس وصل لنجمة خاتون. وقبل أن ترى أبا العباس أمرها بشجاعته. نفذ لها الخضر ما أرادت، وبقي أن تعطيه ليلة من الحب كما خبر إفراج السلطان نفسه عن الشيخ أبي العباس وصل لنجمة خاتون. وقبل أن ترى أبا العباس أمرها بشجاعته. نفذ لها الخضر ما أرادت، وبقي أن تعطيه ليلة من الحب كما وعدت، ولكنها أرادت من ينتمي إليه الخضر أرادت ببيرمس نفسه. وخطتها محكمة، مستلجاً إلى السلطان لأنها وحيدة، وما إن يرى جمالها حتى تأمره كفيده. هذا كان. ولكن جاء الفرسي ليغير كل خططها، أصبح هذا الشيخ الزاهد نزيل الإمكندرية هو شغلها الشاغل، يقولون إنه يملك البهاء والجلال، لم يزل جميل الوجه شديد البنية كل من رآه قال إن النور يشع من روحه، فلا يوجد أجمل من الفرسي في كل مصر رجل. وقد احتاجت كل حياتها إلى رجل ربما لا يروقه، من يدري؟ وكيف لها أن تعرف لو لم تجرب. هرولت إلى الإمكندرية بحاشيتها واخترقت مسجد العطارين بلا تردد، نظرت إليه من وراء ستار وتناثرت رقائق القلب حول عينيه الثاقبتين ونظرته الهائلة ووجهه الجميل.

راقبته بعينيها، خفق القلب من بهائه وجماله. لم يتعد الخمسين، عيناه تضيئان بصفاء القناديل المجلوة بعناية. كيف تصل إليه؟ هذا ليس الشيخ الخضر أدركت هذا بفطنتها، لن يسجد أمام صدرها. لا بد من خطة محكمة. ولا بد أن يأتي إليها أبو العباس بنفسه. ولم تذهب هي إليه، لو كان هناك طريقة ليأتي هو إليها؟ بدأت في الاقتراب من تلاميذه، تسلب من الواحد

بعد الآخر علمه. تضل بعينها وجسدها فيلهت الرجل وراءها طالبا اللذة
والجاء، فهي تملك الاثنين. يتوقف عن حضور دروس الشيخ، وإذا حضر
يحضر وخاطره معها هي فيسلب العلم والمعرفة.

همس ياقوت في أذن أبي العباس بعد حين وقد أدرك ما يحدث: سيدي..
تذكر أنك حملت رواية ماريو وأبو العباس حصريا ومجانا من على موقع
مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة
والجديدة والنادرة.

كان يعرف ماذا ميقول.. قال ياقوت: تسلب الرجل عقله كما الساحرة. كأنهم
لا ساروا في الطريق ولا تكلموا بالحقائق.

يصيب الرمد أعينهم فلا ضوء يخترقها، ويصيب السقم أجسادهم
فينكرون طعم الماء.

أطرق برهة ثم قال: هي نجمة خلتون.

قال ياقوت: لو تكلمت معها. ربما تهديها إلى الطريق المستقيم.
لم ينطق..

فقال ياقوت في حماس: أبي هذا ابتلاء غير كل ابتلاء.
ردد: لا إله إلا الله.

فقال ياقوت في رفق: هل مستقبلها يا شيخ؟

- هي متسعى إلى مقابلي.. هذا ما تبغي.. يفعل الله ما يريد

لم يأت إليها أبو العباس راجيا. ولم يتبق لها إلا الذهاب إليه بنفسها..

اخترقت مجلسه في مسجد العطارين.

قالت في صوت قوي والشيخ أبو العباس يلقي درسه والطلاب حوله: أنا لا أحبه ولم أر منه سوى القسوة والظلم. كل أيامي عسيسة ليل لا ينقضي.
نظرت إليه وخفق القلب، تجلى جماله أكثر عندما اقتربت، عمامته البيضاء تنسجم مع لحيته الطويلة وكأنه جاء من الجنة. أغمضت عينيها لحظة ثم فتحتهما.

قال في هدوء وهو لا ينظر إليها: هل تكلمت معه في هذا الشأن؟

جفلت قلالة : معذرة!

- أمالك لو تكلمت معه. كيف تكرهين دون فهم واستفسار؟

- قلت له ما بداخلي: نعم.

- وماذا كان رده؟

- هو لا يجيب، هو غالب لا وجود له. لو كان موجودًا لما ترك الدنيا بكل هؤلاء الوحوش.

- ولو لم يكن له وجود فلم تلومينه كما يلوم الولد أمه على تأخر إطعامه، وكأنه يتوقع عنايتها ويألف رعايتها. كأنك تتوقعين منه شيئًا يا ابنتي.

- أين كرامتك يا شيخ؟ هيا أخبره بمشاعري واطلب منه أن يجيبني.

- أنا عبد فقير غريب مثلك. هو يستمع إليك دون ومييط، رحمته أوسع من رحمتي. لا أنا أعرف سر القدر ولا عقلي يصل إلى الغيب.

جلست وعيناها لا تفارقان عينيه ولكنه أدار عينيه، فقالت ساخرة: ماذا تريد في المقابل؟ هل تريد أن تعرف ما أعطيته للشيخ الخضر؟ كلكم

سواء. بيدكم السحر لا أكثر تعشقون الجسد وتذعنون أن أرواحكم طاهرة.
هو لا وجود له.

بقي صامتًا، فقالت في فزع: تكلم.. أخبرني ماذا تعرف عن الشيخ الخضر؟
هل أخبرك بنظراته أم لمساته؟ هل تريد أن...

مكث صامتًا يستفهم هاج المجلس وماج وهو لا ينطق. قالت في صوت
مخضب بالدماء: أكرهه. ريك الذي يعطي سره لشيخ مثل الخضر قاس يا
مُرسي!

انتفض المجلس وهم الرجال بطردها ولكنه أشار إليهم بالرجوع، ثم قال:
غضبك يدل على عشمك به. هو صبور على العباد، حليم يا ابنتي. افتحي
أذنيك مستسمعين.

- كل إرادته ألم وخراب.

- لو رأيت إرادته خيرًا يزول الألم.

- أتريد أن تعرف من أكون؟ أميرة جميلة وكل من حولي اخترق قلبي
فحطمه، وانتهاك جسدي ففتته. أنا لست أنا، لا حب بداخلي. لا أعرفه.

- ولم تتركين مفتاح القفل في يد غيره؟ أغلقي قلبك وجسدك عمن سواء
تسلمي.

قامت وصاحت وهي تتوق إلى ضربات الرجال في المسجد، تتمنى من
يثبت كلماتها: أبو العباس يقول إنني لو تكلمت معه يزول الألم.. ولو جعلت
الشيخ الخضر يتكلم معه نيابة عني .. يفوض داخل صدري كما البرغوث!

ضحكت بعصبية كأنها فقدت عقلها فقام أحد الرجال ليطردها، فقال أبو
العباس في رفق: الألم مصاحب للقيد، والقيد جزء من الدنيا، حاولي التحرد

بالتسليم، ثم القيام معه بعد ذلك.

- أنت لا تغضب أبدا؟

قال: ولكم غضبت وطلبت مغفرته، لا حدود لعطائه، ولا خيال لنا يدرك قدر حلمه وصبره. الحرص والشح من صفات النفس.

- لا أعرف الرحمة لأطلبها.

- تطلبينها من ميت عاجز. اطلبوها ممن يملكها كلها، ويفيض بها على الجموع كما رياح الفجر.

صمتت ثم تراجعت إلى الورااء وخرجت. ولكنها أتت إلى مجلسه مرة أخرى بعد يومين. قالت في تحد: تكلمت معه ولم يجب. ليس له وجود.

صمت برهة ثم قال: لِمَ تكلمت معه إذن؟

- لأنك طلبت مني هذا.

- ولمَ تطيعين رجلاً لا تعرفينه؟

- ماذا تقول؟ من أنت؟

- عبد عاجز فقير أتيت أنت إليه. تسألين ما لا يعطى.

- دلني على الطريق ولك ما تريد.

- من يدلك على الطريق ويطلب الدنيا فهو يقولك إلى الوهم.

- ماذا تطلب؟

- ليس لنا حول ولا قوة وليس للنفس الناقصة أن تحكم على من ليس كمثله شيء.

- ما زلت أكرهه.

- ما دمت تشعرين به فهذا أول الطريق.

- وبخني أو ضمني إليك.. افعل شيئاً أعرفه.

- ما تعرفينه ليس له وجود، كلماتي للفناء وكل الأشياء خيال وصور
تحجب الوجود عنك. الصبر على الألم يمكن النفس ويقويها. ثم يأتي
اليقين ومع اليقين لا حزن أبداً.

- لا أفهمك ولكني أتشبث بك كالغريق.

- تشبثي بمن ينقذ الغريق بلا طلب. افتحي أذنك لتسمعي صوته.

- وهل تسمعه أنت وتراه؟

- قالتها السيدة العارفة بالله: لو لم أكن أراه لما عبدته. أراه بيقين.

- أحسبك يا شيخ.

- خلقت من أجله فلا تتشبثي بغيره.

حملت فيه وقلبها ينتفض بين أضلعها. أغمضت عينيها وهي تراه بين
ذارعينا هي فقط. أبو العباس لها شاء أم أبى.

بقدر نفورها من الرجال بقدر شهوتها إليه، وبقدر راحتها عندما يسجدون
بين كفيها بقدر رغبتها في المكوث بين يديه ساعات.

سارت وراءه بخفة حتى لا يشعر بها، تأملته وكأنها تتمنى نفحة من كنز
روحه النقية. جلس على الشاطئ وأغمض عينية وكان رموشه تدغدغ
الأطراف، ولحيته الطويلة تمحو كل جراحها. شعرت بارتجافة رموشه وهو
يستغفر ويسبح.. طوال عمرها لم يسيطر عليها رجل. حتى جاء أحمد..

الشيخ الزاهد.

فليذهب كل المال إلى الجحيم والرياسة وحتى السلطان. فنيت في عشقه
وتاهت. يقولون العشق ضلال حتى عشق يعقوب ليوسف رآه أبنائه ضالاً
لأنه يرمي بكل الجوارح للتيه، ولا يبقى سوى فؤاد مغرم متسعر.

قالت في رجاء: لقد توصلت إليك ألا تتخلي عني.

التفت إليها فجأة فتسمرت مكلها ثم قال في صوته الهادي: أسفي على من
يتمسك بالصور ولا يشاهد رب الصور. وأسفي كل الأسف لمن لا يترك
الزمام لنفسه تتذوق الحنان من الحق فيفرغ كل همها. لو فتحت عينيك
إليه تدركين. الرضا من داخل ميادين النفس، والاكتفاء ليس بالعلائق ولن
يكون. كل ما تبحثين عنه بداخلك، الراحة هناك ولكنك تنوھين في شبر
ونصف هو البطن أو النفس أو الجسد قالت بلا مقدمات: أحبك. بل
أعشقك. اجعني جارية تحت قدميك. لو أنقذتني من مصير مظلّم، من شك
وكفر تكون قد أخذت في ثواباً لا أطلب منك إلا ما حله الله.

توقعت أن يثور أو يتركها، ربما يفكر في الأمر؟ لا تدري، ولكنه صمت برهة
ثم قال: ما الذي ترومين إليه؟

- السكينة. الأمان.. خلوة مع رجل أريده، لا رجل يعاملني كالخرقة الباهتة.
لا تعرف كيف قاميت طوال عمري.. يا أحمد.. حتى اسمك بين شفقتي
يشعري بالراحة.

- هل جريت الخلوة معه هو؟ جري ثم تعالي واحكي لي. لا جود يأتي من
فقير ولا راحة إلا بمشاهدته. يظن البشر ويتوهمون أن السعادة والطمأنينة
تأتي من أشياء حولنا وهي نفحة من قوته لا أكثر. لو سلبك كل شيء عالق
في الدنيا واستقر هو في قلبك فقد اجتباك.

- لا أشعر به. أشعر بك أنت فقط.

- لأنك تحصرين كل خيالك في الحروف ولا تدركين من يكتبها. أحبي الأصل لا الفرع..

- ظننتك مستركني أو توبخني. ظننت.. ربما بداخلك تريدني كما أريدك.. هذا شرع الله. تزوجني. أعرف أنك تريد إنقاذي وتستطيع. ثم تعلمني بعد زواجنا كل شيء. لو قالوا لك نجمة ستكون جارية تحت قدميك.. لو قلت لك إنك لو رفضتني فسأعود لمجوني وشرودي وحيرتي. أنت الأمل لي..

- أقول لك افتحي صدرك لتستقبلي حبه فتقولين لي أنت وتستطيع. ثم تعلمني بعد زواجنا كل شيء. لو قالوا لك نجمة ستكون جارية تحت قدميك.. لو قلت لك إنك لو رفضتني فسأعود لمجوني وشرودي وحيرتي. أنت الأمل لي..

- أقول لك افتحي صدرك لتستقبلي حبه فتقولين لي أنت الأمل! لا حول ولا قوة إلا بالله.

ردها مرات ثم قام ومار في بطنه بعيداً فصاحت ودموعها تنهمر: وأنا أقول إني أحبك يا زاهد يا ولي. في دينك للحب قُدسية، هكذا تقول...

تمتم: وما الكون إلا محب ومحبوب، هو محبوب واحد لا غيره. سادعو لك بالهداية يا ابنتي في كل صلاة.

نظر إلى الرمال فحدقت إلى لحيته الطويلة التي اختلط بها الأبيض والأسود ومدت يدها تتمنى أن تلمسها ولم تفعل، فقال: لا تدرك الأبصار الهواء لكونها سابحة فيه، فمن كان في قبضته شيء فإنه لا يدرك ذلك الشيء عقلنا محدود وهو بلا حدود.

- ألن تتهمني بالكفر؟

- لا أجرؤ، ربما تكون نهايتك أفضل من نهايتي. من يدرك حدوده يفز بالرضا.

أغمضت عينيها لحظة تتصوره بين ذراعيها ثم نظرت حولها فلم تره.

ذهب الشيخ الخضر إلى قصر نجمة خاتون في القاهرة فلم يجدها، قالوا: سافرت إلى الإسكندرية تحضر مجلس الشيوخ. عبس وجهه وتوجه إلى حيث استأجرت بناية في غرب الإسكندرية، حاول مقابلتها فرفضت، فبعث من يهددها. قال إنه بر بقسمه وهي لم تبر بقسمها فبعثت تقول له إنها لا تخافه ولا تعرفه ثم هرولت إلى لطيفة زوجة الشيخ أبي العباس تبكي وترتجف وتطلب منها أن تبقىها في البرج في الدور السفلي مع كل المساكين الذين تعطف عليهم لطيفة من النساء وتحميها من مخطط الخضر. استأجر أبو العباس منذ زمن بيتًا داخل قلعة قديمة، الإسكندرية ممتلئة بقصور القدماء وقلاعهم، يُبعث التاريخ ويحضر واقفًا مع كل حجر، لم يزل يحمي ويتخذ البعض بيتًا. في البرج بيوت متعددة. استأجر هو أحدها، ثم استأجر آخر أسفل البرج لكل من يأتي ليزوره أو يحتاج إلى حماية أو ملاذ. الطعام دومًا موفور والبيت مفتوح حتى أوقات الضيق والفقر. كيف مستغني نجمة خاتون عن قصرها لتعيش مع المساكين في أسفل البرج؟ لا أحد يفهم. تدعي أنها تخاف القتل على يد الخضر. وسط ذهول لطيفة وافقت، بل ذهبت بنفسها لتنظف لها حجرتها، منذ وقعت عيناها عليها وهي تشفق على حيرتها ويأسها. فدخلت نجمة خاتون البرج حيث القرب من أبي العباس، دخلت مع جاريتها وتقربت من لطيفة حتى تسالت للبيت العلوي، كل يوم تساعد لطيفة أو تحكي لها والدموع تتساقط من عينيها ولطيفة

تصبر وتسمع وتشفق. وطلبت مساعدتها وشرحت لها ما كان في الماضي وأنها ثابتة، اليوم تصلي معها وتمتنع عن الخمر والحشيش وكل ما يفضب الله. اليوم تتغير لا حاولت رؤية أبي العباس ولا سألت عنه، ولكنها تقلد لطيفة وتتعلم منها. تحضر مجالس العلم وتستمع إلى القرآن.

لكل رجل مفتاح ولو كان مفتاحه زوجته فلا بأس، تصادقها وتتحبب إليها. تبدو صادقة ونقية تساعدنا بإخلاص وتستمع إليها في إزعان ولا ترتاب ولا تتسامل.

أصبحت تستطيع أن تتسلل إلى البيت العلوي، تنظر من خلف باب أو من زاوية نافذة، تراه مع أولاده وزوجته لم تعد تطيق مرور يوم دون النظر إليه كل هذا الضو على زوجته وأولاده، لكم تحسدهم! فليعطها نبسة أو نفحة، أي شيء لتشارك زوجته الطاف روحه الطاهرة.

تري نجمة خلتون ما لا نلتفت إليه من خلف حجاب، وتحقق إلى يده التي تحيط بكف زوجته وهو يحييها وعيناها تلمعان كأنهما غسلتا بماء معين عندما تلتقي بعينه. تذكرت زوجها هي وهو يدفع بها إلى البئر يمزق الجسد والروح. لِمَ يعطي الله كل هذا الحب للطفيفة ويحرمها هي؟ وكيف للطفيفة ألا تريد أن تشارك غيرها في هذا العطاء؟ لِمَ تبخل به؟

تلاحظ أدق التفاصيل، يده وهي تزيج الفبار عن خد زوجته، عينيه وهما تتساملان عن صحتها، ابتسامته وهي تمسك بيده كأنها تصل ما كان موصولاً منذ زمن بعيد.

أغمضت عينيها ألفاً ثم تقهقرت داخل حجرتها. للغم رائحة تصل إلى حدود الغرب. بعد برهة دقت لطيفة باب حجرتها فارتدت خمارها كأنها قامت من

الصلاة للتو، ثم وضعت بعض المياه على عينيها وفتحت الباب وقالت:
سيدتي..

- جئت أطمئن عليك. كلني شعرت بك في بيتنا. هل تحتاجين إلى أي شيء؟ أي مساعدة في القراءة؟ هل كنت تبكين؟

قالت في صوت وهن: كنت أصلي وأشكو له. باعطني أمي كما البغال وليتها اعنت بي كما يعتني ابنك ياقوت بالحيوانات.. هو ليس ابنك أليس كذلك؟ ولكنك ترعينه.. هل يمكن أن تشعمني رعايتك؟ لم أذق طعم الحنان إلا على يديك.

ربتت على كتفها ثم قالت: اصبري يا ابنتي. ميعوضك الله بخير من زوجك إن شاء الله.

قالت نجمة وهي تنظر إليها: فلتدعي لي أن أتزوج زوجًا مثل زوجك.

بلعت لطيفة ريقها في تردد ثم قالت: أدعو الله أن يرزقك الخير.

تمتت نجمة خاتون لنفسها: تقولين هذا لأن زوجك يفيض بالعطاء. كاذبة! تقولين هذا وأنت مكتفية موصولة.

- بم تفكرين؟

- يا سيدتي.. بل سأقول: يا أمي.. مع أنني أكبر من بهجة. يا أمي أحتاج إلى حنانك.

مدت ذراعها فعانقتها لطيفة في شفقة ثم قالت: أنت هنا في أمان.

قالت فجأة: ثري هل حدث بينك وبين الشيخ أي خلاف طوال عمركما؟

قالت متجاهلة الكلام عن زوجها: أخبريني كيف أساعدك في التعلم؟

- أعني.. هو دالقا يحضو عليك؟ لِمَ يحرمني الله من الولد والزوج؟

- حرمله عطاء خفي..

- ولكنه أعطاك أنت الاثنين..

تجهم وجهها وابتعدت قليلاً والصدر يظلم كأن غمامة ترابية ترمو عليه ثم قالت في صبر: أحياناً عزة النفس والكبر يجعلاننا نظن أننا نستحق هذا وذاك، ولكننا كلنا نحتاج إلى رحمته وكفى. خفوت النفس يؤدي إلى فتح الأبواب.

- معذرة يا أمي.. أحبك يا سيدتي، أقسم لك ولا أحسدك ولكنني أصدق معك.

قالت وهي تبتسم: لا تشغلي بالك بما أعطى غيرك ولكن بما أعطاك أنت.
- لا شيء..

- ولكنني أرى الكثير

- تشفقين علي لا أكثر

- لم يزل قلبك يحتاج إلى مفتاح وحب.

- يحتاج إلى حب.

حينها قامت لطيفة من عندها وقلبها مقبوض. استغفرت ربها وعادت إلى حجرتها. لأول مرة تدخل القلب ريبة.

أصبحت نجمة خاتون تنتظم في حضور دروس الشيخ أبي العباس، وتنتظم في الصلاة وقراءة القرآن مع زوجته. ولكنها كانت تنظر إليه من

وراء الستار وقد أمسك بشغاف القلب كأنها لعة حلت بها، فأصبحت أميرة بين عينيّه، لا تريد سواه في هذا العالم لو أراد المال فليدّها الكثير ولو أراد الجمال فقد أوتيت منه أحمالاً، ولو أراد العشق فهي تعشقه عشقاً يستعصي على الشعراء، ولكنها تدرك أنه لا يريد من هذا قوته وجلاله هما ما يقفان حلالاً دون وصولها إليه الوصول إليه عن طريق الله، فلتدع الله حتى ولو كانت غاضبة منه، أو فلتشترط على الشيخ أن يتزوجها لتهدي ألا ينقذ البشر من الشرور؟ فلينقذها من شر نفسها فلم تعد تستطيع أن تنقذ نفسها. هاج الشيخ الخضر وماج، دخل عليها في البرج وهددها فوقف له أبناء الشيخ في عدم حضوره. لم يستطع أن يعدي عليهم هذه المرة. ولكنه أذرهم بالبؤس القادم فنجمة خلّون له.

غاصت في حضن لطيفة وهي تبكي وترتعد قلالة: سيقتلني ويعذبني لو أخذني أتوصل إليك أن تحميني.
فقالت لطيفة في قوة: سأفعل. لا تخافي.

جلست القرفصاء على الأرض أمام لطيفة ثم قالت: سيدي امسح لي أن أحكي لك عن نفسي.

ابتسمت لطيفة في عدم ارتياح وقلبها منقبض والسهم نافذ، ثم قالت: احكي لي وأنت هنا بجانبني لا تجلسي على الأرض أمامي يا أميرة.

قالت: مقامك عال يا بنة العارف بالله سيدي الشاذلي، وأنا من أكون؟ ضالة في دنيا كلها فجور. هل تسمحين لي أن أقبل يدك لأتبرك بك؟

أمسكت بيدها فنزعته لطيفة مسرعة ثم تركت مقعدها وجلست على

الأرض بجانب نجمة خاتون وقالت: احكي لي.

ترقرقت الدموع في عين نجمة خاتون، حكّت منذ البداية، كيف حرمتها الأيام من الحنان والحب وكيف قست الأم ثم استباحها الزوج وكيف غدر بها القدر. حكّت وحكّت ثم توقفت وقالت في خجل وهي تحني رأسها لتقبل يد لطيفة: أخطأت، أذبت كثيرًا ولكنني أريدك أن تساعدني على التوبة، أنت الوحيدة القادرة على هذا. ملتوقف عن شرب الخمر ومأصلي كما علمتني، وملتبع كل أوامرك أنت سيدتي مقامك عندي عالٍ. اعتبريني خادمك هنا... ولكن أبقيني بجانبك.

لم تجب لطيفة وقبضة الصدر تتوغل.

- أنا نجمة خاتون أريد البوح لك أنني أعشق وليس للعشق دواء يا سيدتي. أنت تعرفين. يقذفه الله في القلب بلا إنذار. أعشق أبا العباس أحمد الفرمي زوجك.

تحول الالتباس إلى ماء بارد يجمد العروق، ولم تنطق. التقت أعينهما، دارت بعينيها على وجه نجمة الساطع وجسدها المتناسق وجمالها الخارق، رأت فتاة تصغرها بخمسة عشر عامًا تتأجج بالحياة.

أمسكت نجمة خاتون بيدها ثم قالت: لو تركتني في بيتك جارية لك لا أكثر. لو تركتني في بيتك أتعلم منك وأقضي معه يومًا كل عام، يومًا واحدًا كزوجة له.. تكونين قد أنقذت نفسك من الفناء.

- تريدان الزواج من زوجي؟

- أتمزق شوقًا إليه كأن الدنيا ليس بها إلا أحمد.

- أحمد؟

- أقصد أبا العباس الشيخ العالم. ما أريد أن أطلبه منك هو أن تعطيني
صدقة لأنك كريمة، ليلة كل عام معه كزوجة لا أكثر وأخدمك طوال العام
وتعلميني وتربييني. لو لم أتزوجه كيف أحمي نفسي من الشيخ الخضر؟
سيأخذني هذا أكيد، وحينها سيقضي علي. أنت تنقذين روحا يا سيدتي.
لم ثجب.

فقالت نجمة: أتكلم معك كامرأة تحب وأعرف أنك تفهمين.

قالت في بطن: أفهم.. نعم لأنني أحبه وعشت معه خمسة وعشرين عامًا أو
يزيد. ومن تحب يا أميرة الأميرات لا تشارك امرأة رجلها. لا تستطيع.
قالت نجمة خلتون ودموعها تنهال على خدها: مسترकिनني للدمار. لن
تصدقني.

- الصدقة ليست بالروح.

- تعرفين أن لا حيلة لي في حبه. لا أطلب منك سوى يوم كل حين أقضيه
معه، أريد أن أراه حولي حتى دون أن ألمسه.

لو كان للغضب وللنيران أن تندلع لصفعت نجمة خلتون من أجل وقاحتها،
ولكنه ابتلاء وعليها الصبر والحلم، رددت الاستغفار ثم قالت في هدوء:
وجودك هنا يا ابنتي لا يجوز. اذهبي إلى بيتك، لو كنت تخافين من الخضر
فلا بد أن هناك مخرجًا آخر.

تذكر أنك حملت رواية ماريو وأبو العباس حصريا ومجلانا من على موقع
مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة
والجديدة والنادرة.

قامت ثم قالت: تطردينني يا بنة الشيخ؟ يقولون عنك: إنك ورثت رحمة

والدك لو خرجت من بيتك يقتلني الخضر.

قالت لطيفة مسرعة: من أنا لأطردك ابقي يا ابنتي كما تشائين.. ولكن الشيطان دخل نفسك وموف يؤذيك أنت.

قالت وهي ترفع يديها: أنت تنتصرين، بالطبع تنتصرين هل يستطيع تركك لو خيرته؟ لا لن يفعل أنت ابنة شيخه وأم أولاده ولكن هل فكرت يا سيدتي في قلبه؟ هل ماورك شك أنه يريدني كما أريده لأنه رجل وليس ملاكاً؟ هل فكرت في أن قلبه ربما مال إلي كما ملت إليه؟ ربما لم تشكّي، ولكنني أريد منك بل أرجوك أن تفكري فيه هو.. تلاحظيه. لو شعرت أنه يريدني، يحبني كما أحبه ماذا ستفعلين؟

قالت وخداها يشتعلان: الشيخ أبو العباس ليس مجالاً لهذا الحديث.

- أقسم لك يا سيدتي أنه يحبني.

- كفك ذنوباً أشفق عليك من إثم هذا القسم.

فقالت نجمة وهي تضغط على شفتيها وتقوم لترك الحجرة: أنت القوية وأنا الضعيفة. أنت المنتصرة وأنا المهزومة. أنت لديك كل شيء كل شيء.. وأنا أمامك لا أملك أي شيء.

ثم تركت الحجرة، ولم تترك البيت.

قامت لطيفة من مكانها في بطم، تسلل الومواس أو كاد. كان خوفاً من نفسها أكثر من أي شيء. نظرت إلى نفسها لأول مرة منذ أعوام. لم تكن تهتم بجمالها على قدر اهتمامها بالتعلم والخيال والرمح. أمسكت بخصلات شعرها البيضاء بين أصابعها، انقبض القلب مثل قطرة ماء واحدة. تسرب

حزن مختلف ينبع منها هي وليس من أي شيء حولها. تارة تجد في نجمة خائون شيطاناً يريد الدمار وتارة تشفق على حيرتها ووهمها، ولكن بعض الكلمات كنار الغضا تبقى حتى ولو غرقت كل النفس في طوفان نوح ذكرت نفسها أن الخوف نابع منها وليس لشيء حدث، وأن الارتباك من مرور الزمن وخصلات الشعر البيضاء إحساس يأتي لمن لم يدرك أنها بضعة أيام تقل كل ساعة ولا تزيد أحمد لم يزل بجمال الماضي. مستقيم الظهر شديد البنية، عزيز الروح كان لا بد أن تضع الحذاء على شعرها ولكنها لم تهتم كان لا بد أن تتزين أكثر وتلبس أفضل ولكنها لم تهتم هل أخطأت؟ لم يطلب منها أي شيء ولم تكثرث بالمظهر بعمر الجبال ويبدو هو بقوة الفرص الحر. نفست يديها كأنها تطرد الومواس وذهبت تصلي وخاطر الحزن كما أوجاع الكلى، يهدأ ثم لا يلبث أن يضرب بكل قوته. ينبض في بطنه فيصيب الأحشاء ثم يشق الحشا في غلظة.

ليلاً شعر بها قال: لطيفة لم لا تصلين معي؟

مسحت دمعة خرجت من القلب ثم قالت: كنت ماقوم ولكن الجسد متعب.

- روحك دوماً أقوى من كل الأرواح.

أمسك بيدها، احتضنت يده برهة ثم تمتعت: يفعل الله ما يشاء. أنت أحمد حبيب العمر والشباب، هذا لن يتغير مهما حدث. القلب سيصفح ويفتح أبوابه لك..

صمت برهة ثم قال ووجهه عابس: أراك تتعذبين، ليس مع الله من يخاف يا بنة شيخي.

- تذكرني أم تذكر نفسك؟

- أنا لا أنسى يا زينب ويا لطيفة.

أطرق ثم شبح ولم ينطق.

لامت اللسان على الكلمات وخشيت أن يكون قد غضب منها أو أساء فهمها
لم تقو على إغضابه طوال تلك السنوات، فقد كاد الندى يتيمم بين راحتيه،
وكلما مر العمر أدركت حجم البركة التي تحل بها وهي معه ولكن الكره
تغلغل وكاد يستقر هالتها الكلمات كأن البنت تدق الباب وتقول: هل يمكن
أن أسرق قلبك بضع يوم؟ أو أنفاسك ساعة ثم أعيدها إليك؟

لا تدري لو كان لا بد أن تتكلم معها أكثر توضح لها جرم الكلمات أم لا.
انعقد لسانها من المفاجأة، ولم تعد تعرف ما الواجب عليها، هل تصر على
طردها من البناية؟ أم تحاول جهاد النفس والشفقة أمام بنت لم تصل ولم
تهدا.

قالت: لم أر في جمالها ولا شغفها ولا يأسها وحزنها.

لم يجب. استمر في التسبيح.

بلعت ريقها وقالت وهي تخاف من الإجابة: أكرمتني طوال عمرك.

- بل أكرمك الله على يد عبده. نصلي الفجر ثم نتكلم.

- أخاف أن أواجه الله وقد شغلني شغل عنه. كل نساء الإسكندرية من كل
طائفة ومذهب تتمنى زوجًا مثل أحمد.

- واجهيه في كل أحوالك. هو يعرف.

صلت وراءه ودموعها تخنق الحلق، بعد الانتهاء من الصلاة طوق كنفها
بذراعيه فسكن رأسها على صدره. مر بيده على شعرها برهة ثم قال: هل

تعلمت من والدك قراءة القلوب؟

- أنا لست والدي.. يخطر الخوف على بالي وتدخل الوسواس نفسي وتخرقها اختراقًا.

- يقول الشيخ: ما دام خطر الخوف ولم يسكن فلا بأس.

لثمت صدره في بطن.. فقال: أحبك.. منذ وقعت عيناي عليك.

- دوام الحال من المحال..

همس كأنه يقرأ قلبها: لا شيء يدعو للخوف.

قالت بلا تفكير: مر العمر يا أحمد.. هل تفضل أن أخضب شعري بالحناء؟

خجلت من سؤالها التافه ولكنه ابتسم ثم قال: أفضل أن تبقي بين ذراعي.

قالت وكأنها لا تفهم: سأترين أكثر وأخضب شعري بالحناء و..

قاطعها: لا تفعلي.. اهدني.. الفرع لا داعي له. أنت جميلة اليوم وأمس وطوال الدهر.

ضغط بذراعيه على رأسها لتغوص داخل صدره. مكثت حتى استقرت بين يديه ومكنت ثم غفت فلم يتحرك حتى استغرقت في نومها، حملها إلى مخدعها ووضعها في حرص وقبل جبينها. سمع آهات، أضغاث أحلام، ضمها بشدة حتى تأوهت، ثم قبل زاوية شفتيها فنطقت اسمه، انصهر جسدها داخل جسده. تلالأت نشوتها الممتزجة بخوف لا يخمد. ضمته إلى صدرها برهة. ثم قبل خدها وقام ليفتسل وخرج لخلوته.

أضرمت النيران في أحشائها، نجمة خلتون، كانت تعرف أنه مع زوجته

يضعها كما كانت تتمنى هي. يطمئنها بينما هي تشتاق وتحترق. يا أحمد..
عضت على شفثيها وتسللت إلى البيت ليلاً تستنشق نَفحاته ربما، ثم
تمتمت: يا رب اجعله لي. ما انتظم في الصلاة، وما امتنع عن كل ما يفضبك.
أدعوك لأول مرة.

غطت وجهها ولم تنم. قالت جاريتها: سيدتي، لم أرك بهذا العذاب طوال
عمرك.

- كان عذابي بدأ ولن ينتهي.

ارتدت نجمة خاتون رداءها الأحمر الحريص تركت شعرها يتدلى على كتفها،
وضعت الخنجر في سروالها. فليعرف أحمد، فليفهم أنه هو النجاة. أليس
من أحياء نفساً فكأنما أحياء الناس جميعاً؟ فليحي نفسها. فليساعدوها على
معرفة من تكون. لكم مجد الرجال أمامها، ولكم أغرقوا جسدها بالقبلات
ولم تشعر بهم كلهم. ثم جاء رجلٌ أعلم بأحوال السماء عن أحوال الأرض،
فغمرها كما مياها زمزم المباركة. فكادت تجن به، بل فقدت عقلها حقاً.
بدون أحمد لن تصل إلى السعادة، ولا إلى الله، ولا إلى نفسها ولكن ما
يؤرقها هو هذه الرغبة المتأججة فيه هو فقط، في أن تصبح له تطيع كل
أوامره، تخدمه بقية عمرها فليتركها تُبجل جسده فريماً يُظهر روحها من
يدري يستحقها هي، يستحق أجمل نساء الكون. وسوف تتفنى متصلي
وتصوم، مستقوم بالفرض والنوافل، متعطي ما تبقى من أموالها للفقراء،
متفعل كل ما يطلبه. أليس من واجبه أن ينقذ حياة إنسان؟ في يده أن
ينقذها أو يتركها تموت مدى. فقد أقسمت أن تقتل نفسها أمامه اليوم.
وضعت الخنجر على طرف معصمها وضغطت فالتبثقت الدماء مسرعة. هي
لا تمزح، متذبح نفسها أمامه كالقربان حتى يعرف أنه تسبب في الإلقاء بها

إلى الجحيم. يا أحمد.. ألا تعرف ما هو العشق؟ ألم تشتق حتى تمزقت
أحشائك كيف تكون قريباً مني ولا أمتطيع حتى أن أضحك إلي؟ أماركع
بين يديك وأطلب المغفرة.. يا أحمد.. لكم صورتك في خيالي تستقبل
قبلائي المتلهفة. لا زوجتك تحبك كما أحبك ولا أولادك ولا مريدوك لا أحد
يملك هذا الشغف ولا هذا التوق.

اقتربت من الباب. تنفست نفساً طويلاً ثم وضعت يدها عليه لتدفع به.
فتحته في بطمه وشفاتها ترتعشان وعيناها مسبلتان.

أغمضت عينيها ثم فتحتهما، فقد هالها ظلام الغرفة، بحثت عنه بمقلتيها،
كان جالساً في أحد الأركان وخلفه شمعة واحدة، يجلس على ركبتيه كأنه
وسط صلاة. لم تتأكد إذا كان يصلي أم لا.. ولكنها سمعت صوته مع أنه كان
يهمس.. في الظلام يسطع كل صوت وابتهاال.

كان يقول:

يا رحمن يا رحيم، يا من هو هو هو يا هو، أمالك بعظمتك التي ملأت
أركان عرشك، وبقدرتك التي قدرت بها على خلقك، وبرحمتك التي وسعت
كل شيء، وبعلمك المحيط بكل شيء، ويارائك التي لا ينافعها شيء،
وبسمعك وببصرك القريبين من كل شيء، يا من هو أقرب إلي من كل شيء،
قد قل حيالي وعظم افترائي، وبعد مُنالي، واقترب شقالي، وأنت البصير
بمحنتي وحيرتي، وشهوتي وسومتي، تعلم ضلالي وعمايتي وفاقتي، وما
قبح من صفاتي، آمنت بك وبأسمائك وصفاتك وبمحمد رسولك. فمن ذا
الذي يرحمني غيرك! ومن ذا الذي يسعدني سواك! فارحمني، وأرني سبيل
الرشد، واهدني إليه سبيلاً، وأرني سبيل القي، وجنبي إياه سبيلاً،
واصحبني منك بالحق والنور، والحكم والفصل والبيان، واحرمني بنورك.
وضعت الخنجر على معصمها وضغطت على يدها وصاحت: يا أحمد... لا

تتركني أموت ضحية لك..

لا تدري بالضبط لو وصل صوتها إليه أم لا. ولكنه أكمل.. وهو ينظر إلى الأفق:

يا الله يا نور، يا حق يا مبين، افتح قلبي بنورك، وعلمي من علمك، وفهمي عنك، وأسموعي منك، وبصُرني بك، إنك على كل شيء قدير.

أغمضت عينيها ثم فتحتهما لا تدري هل تتخيل هذا النور الذي يحيط به، وكيف يصبح للنور حيْزٌ ومكان، وكيف يكون النور ملموسًا كالزجاج الرقيق الذي يحجب الرؤية والحركة؟ لا بد أن الخيال يلعب بها أو ربما أصيبت بالجنون وانتهى الأمر. مرت القشعريرة في كل جسدها، مدت يدها فارتطمت بالزجاج.. أو هكذا توهمت. ضغطت على الزجاج لتكسره فلم تستطع، تمدد كأنه يبتلع الغرفة، نادت اسمه فلم يصل إليه كيف لم يسمعها؟ الحجرة صغيرة، هل استغرقه هواه بربه حتى غيبه عن كل ما حوله؟ ربه؟ أليس هو ربها أيضًا؟ نظرت إلى الجرح في معصمها ثم صاحت بأعلى صوت: ستقتلني يا أبا العباس.. انت تقتلني

ردد:

كم من قلوب قد أميتت بالهوى

أحيا بها من بعد ما أحيّاها

تمتت نجمة في عذاب: أمّني يا رجل مرة ومرات، استمع إلي!

هوت إلى الأرض ودفنت رأسها بين يديها. نزعَت أطراف رداها الأحمر من على كتفها، تريد أن تتحرر من كل شيء ولا تستطيع. صاحت مرة أخرى:
أحمد..

هل يجوز أن يكون لا يراها.. لا يسمعها؟ مع من يغيب؟ كانه ليس في هذه الدنيا استغرقه الحب، يقولون الحب يسكر ويفيب صاحبه لو تحكم واستحكم. ولم لا يفييها حبها هي؟ لم لا يترك بداخلها سوى الهم والإحباط؟ يا أحمد! يا أبا العباس! يا مُرمي! كيف لا تسمع؟ هل تسمع؟ مدت يدها من جديد حاولت أن تحرك قدمها لتتحرك ناحيته فلم تستطع. سقط الخنجر من يدها، حملت في نقاط الدم على معصمها، تقهقرت إلى الخارج في بطاء، لم تعد ترى أمامها. في المدخل المنكسر أصبحت كل الشموع المضيئة داكنة سوداء بلا بريق.

في الصباح جمعت نجمة خاتون أشياءها وخرجت من بيت الشيخ بلا كلمة، ولا سلام على أهل البيت. كتمت جوى وتسعراً وإخفاقاً وحرناً وعزمت أمرها على أن تلجأ إلى من هو أقوى من الشيخ وأعظم، لن ترضى بأقل من السلطان. ولكن القلب لم يزل مُعلقاً برجل واحد دون كل البشر ومنذ متى يتحكم قلب نجمة أو ينطق؟ السلطان بيبرس هو الغاية.

حكى ابن عطاء الله السكندري لما ريو..

هل دخل قلبي الرضا؟ لا تسأل أسئلة أصعب من نفسي الضيقة. كنت أخاف، والخوف يتغلغل بخفة المطر وبسرعة الأشهب، هو خير رفيق للوسواس وعندما يتغلغل يقبض على النفس. أخاف أن أغضبه فأعيد وضوئي مرة بعد مرة. اليوم لن يتقبل صلاتي، كيف يتقبلها وأنا لست واثقاً من وضوئي؟ عرفت الله على قدر مقامي، ولكنه بالنسبة إلي حينها كان يغضب سريفاً ولا يفر الزلات. ربي الذي عبده كنت أعرف رحمته، ولكنني

أيضا كنت أخافه، ارتعب من ذلة عظمت أو صغرت. تتعهد زوجتي وتقول
في ارتباك وهي تخاف إغضابي: يا أحمد، يا بن عطاء الله لقد توضأت للتو
فلم تتوضأ من جديد؟

كنت أقول وأنا أغرق رأسي في الماء: لم أركز في وضوئي أول مرة.
فتقول في صوت خافت: رأيتك وأنت تتوضأ غسلت رأسك.
- ربما لم أغسل ذراعي في هذه الحال.

أصبح الذهاب إلى المسجد عبئا وإعياء. إعطاء الدروس مكان جدي اختبار
وابتلاء. ترى يا جدي هل أصابك ومواس مثلي؟ صاحب الوسواس صداع
لا قبل لأحد به، يمسك بالجانب الأيمن دوفا وينبض كما مطرقة إبليس. هل
كنت راضيا؟ للحق لم أكن متأكدا أنه هو يرضى عني، ولذا انتشر السخط
بين أوثاقي وجوانيحي، مسخت على الشيطان، كرهته كرها يملأ السماء
حتى إنني قررت الحج، لأرجم الشيطان فقط. ترددت كلمات جدي على
مسمعي: أحمد بن عطاء الله فقيه وقاض في الثغر. هو فخر الإسكندرية
كلها.

كنت أريد إرضاء الله نعم. لا أكذب ولا أفترى على أحد، أقسط في الميزان
وأتجنب الظلم..الظلم.

التفتضت من نومي فقالت زوجتي في قلق: ماذا بك؟

لم أجب. ارتديت ملابسني وخرجت من بيتي إلى مسجد العطارين.
فلأستمع إلى أبي العباس الفرمسي. فهم يقولون إن العارفين لهم علامات
وأحوال! أي أحوال وأي علامات؟

مكث الرجال يستمعون إليه في حماس، يجلس أبو العباس بينهم في

تواضع لم أر مثله حتى إنه لا يجلس القرفصاء، ولا يجلس على خشية، بل على الأرض مباشرة وهم حوله.

اختبات خلف العامود، لا كنت أريده أن يعرفني ولا تأكدت أنه يتذكر طفلاً مر أمامه وهو مطروح على الأرض منذ زمن. استمعت. الصدق يصيب القلب لا محالة.. فوجدت أبا العباس يتكلم في الأنفاس التي أمر الشارع بها، يقول: الأول إسلام، والثاني إيمان، والثالث إحسان. وإن شئت قلت: الأول عبادة، والثاني عبودية، والثالث عبودة. وإن شئت قلت: الأول شريعة، والثاني حقيقة، والثالث تحقق. أن تتحقق بالله هو أن تشاهده شهود عيان، والمشاهدة بالبصيرة في الحياة الدنيا والبصر في الآخرة.

استمعت في وجل وإعجاب ملتبس بالتحامل، ولكنني لم أستطع أن أنكر لنفسي حينها أن الرجل إنما يفترق من فيض بحر إلهي وممد ربياني. تلاشى كل حق على أبي العباس في لحظات. ذهب كما الغبار ولكن الحيرة لم تتلاشى.

عدت إلى منزلي وقد انهزم الكره أمام الحب، ولكن كبر النفس أكبر عدو. كيف ينتقل القلب من الرفض للإعجاب في اليوم نفسه؟ فلم أجد في شيئاً يقبل الاجتماع بالأهل كعائتي، حاولت زوجتي أن تدخل حجرتي مع ابني فطلبت منها أن تتركني وحدي. ووجدت معنى غريباً لا أدري ما هو، فخرجت من البيت إلى مكان خلاء، وانفردت في ذلك المكان أنظر إلى السماء وإلى كواكبها، وما خلق الله فيها من عجائب قدرته. سهوت برهة عن الوسواس وعن وجع رأسي. وعزمت أمري على لقاء أبي العباس.

استأنذت في الدخول عليه في مسجد العطارين فاذن لي. فلما دخلت عليه هب أبو العباس قلائفاً وتلقاني ببشاشة وإقبال حتى ذهشت خجلاً، واستصغرت نفسي أن أكون أهلاً لذلك، كنت في العشرين وهو في

الخمسین، ولم أر هذا التواضع طوال عمري. فكان أول ما قلت له بلا تفكير بتلقائية وصدق: يا سيدي أنا والله أحبك.

فقال أبو العباس: أحبك الله كما أحبتني.

جلست بين يديه ثم قلت: حدث في الماضي ما حدث. من جدي ومني..

ابتسم لي أبو العباس ثم قال: جدك فقيه الإسكندرية. وأنت ستكون مثله.. ابن عطاء الله فقيه الإسكندرية..

- كأنك كنت تعلم ما نقول عنك..

- أتمنى أن تحضر مجلسي، تستمع إليه ولو لم يعجبك لا بأس. على طالب العلم أن يختار أيضًا ولا يطيع أمر عبد من العباد بل الله الواحد القهار.

كيف تحيطه الهيبة وهو يخبت النفس هكذا؟ وكيف تبدى لي كأنه بجلال الملائكة وهو يجلس بين البشر بلا حكم عليهم ولا مسافة بينه وبينهم؟

أصبحت أحضر مجلسه ولا أبرحه. حتى قال له ابنه جمال الدين محمد: هذا فقيه الإسكندرية يا أبي يحضر مجلسك بانتظام. يريدون أن يصدروا ابن عطاء الله في الفقه.

- والله لا أرضى له إلا أن يفتي في المذهبين.. التصوف والشريعة والفقه. ابن عطاء الله كاللؤلؤ المكنون. لا يدري ما بداخله من كنوز..

ربما يا ماريو لا تفهم ما حدث لي، ولكنني سأخبرك، يقول أبو العباس:

للحكمة بذر ونبات، ووقت البذر غير وقت النبات، وقد يبذر فيك بذر

الحكمة ويبقى النبات موقوفًا على مجيء محابة ماطرة، فإذا جاءت

أظهرت من الأرض ما كان فيها كامنًا، فتبقى الودائع مطوية في العباد حتى

تجيء أوقاتها. هل تفهمني يا أخي؟ ولكن ليس للومواس أن يترك النفس

بهذه السهولة فقد مكن واستقر. أخبرته عن الوسواس وعن الصداق الذي لا يتركني فقال في حسم: نحن قوم نلعب بالشيطان ولا يلعب بنا.

حاولت وجاهدت ولكن الوسواس لم يتركني مع أن وجع الرأس تحسن تدريجياً. بعد بضعة أشهر سألتني عن الوسواس فقلت: على حاله يا سيدي. فقال: لو استمر خوفك من غضبه ولم تدرك حبه ورحمته فلا تات إلى هنا.

وكلت أقسى كلمة سمعتها من أبي العباس، ولا أظنه قد طرد أحدا من مجلسه من قبل. صفعتني كلماته وأفاقني.

خفت من أن يحرمني الله من مصاحبته، وجدت في كلماته الطمأنينة وأنشدت بين يديه قصيدة له هو قلت بها:

وكم من قلوب قد أميتت بالهوى..

أحيا بها من بعد ما حياها.

ردد البيت مرة ومرات ثم قال: شيخك هو الذي أخرجك من مسجن الهوى، ودخل بك إلى المولى، الزم يا ابن عطاء الله فسوف تخرج النور من حولك..

أتريد أن تعرف كيف تركني الوسواس؟ لقد نسيت الشيطان وتذكرت حبه هو الكريم، طغى علي الحب فهزم كل الحق، أدركت حينها كيف جعلك في العالم المتوسط بين ملكه وملكوته ليظلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته،

وأنتك جوهر تنطوي عليك أصداف مكوّناته. أحببت حب الله لي وأتلفت كبر النفس وغرورها. وثقت في عبادتي واستمعت للكلمات حتى إنني رأيت الدين ملساً سهلاً جميلاً، لا خوف فيه إلا من الظلم والتعدي، ولا عذاب

سوى لمن تحكمته فيه أهواؤه. كنت أردد: يا بن آدم خلقت الأشياء كلها من أجلك، وخلقتك من أجلي فلا تشتغل بما هو لك عن أنت له. وكلما تملكنتني

اللهفة للوصول مريفا، كنت أسمع شيخي يقول: لن يصل الولي إلى الله حتى تنقطع عنه شهوة الوصول إلى الله.

وجدت نفسي وعرفتُها فتجلى لي ربّ رحيم كريم جبار عظيم ودود جميل. نظر إليّ أبو العباس كما تنظر السلحفاة لأبنائها وتربّيهم بالنظرة والإيماء وقال: كيف حالك؟

فقلت وكنت أعني كل كلمة: أفتش عن الهَمّ ولا أجده.

تذكر أنك حملت رواية ماريو وأبو العباس حصريا ومجلانا من على موقع مكتبة بيت الحصريّات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميّزة والجديدة والنادرة.

أكملت لي كريستينا الحكاية ...

مرت ثلاثة أشهر لم تتغير طقوس الدنيا ولا شففه ولا شوقه لزوجته، ولكن الحاجز الدقيق كان مستقرًا، تراه شيخًا وليس أحمد، لا تعرف كيف نبع الشعور ولا كيف استقر ربما ما تدركه هو عين الحقيقة، من يدري، ربما أصبح مقام أحمد يبعد عن مقامها، ربما توارى داخل زهده ومعرفته فلم الوصول إليه بهذه السهولة. ولكنها اندهشت عندما طلبها إلى مجلسه في المسجد ولم ينتظر حتى يعود إلى البيت.

ذهبت إليه وقلبها يخفق رهبة، جلست بين يديه وحدها، صرف كل الحضور ثم قال: لا يدخل عليّ أحد وابنة شيخي عندي.

حتى ابن عطاء الله اضطر أن ينتظر خارج الحجرة.

انحنى تقبل يده فنزع يده مسرعًا ثم قال: لا تعالى هنا بجانبى.

همست وهي تمسك بيده وتقبلها رغما عنه: لا أقبلها ذلًا يا أحمد. بل لأنك أقرب إليّ منى.

رفعت عينيها إليه ثم قالت: والدي يقول دومًا أحمد أعلم بأحوال السماء عن أحوال الأرض.

قال في هدوء: وكان يقول أيضًا: إن البصيرة كالבصر أقل شيء يؤثر فيها. كنت أحارب كل يوم..

نظرت إليه لا تفهم ما يعني ثم قالت: أحمد.. يشبه الملائكة أعرف.

فقال: ظننت أنني قضيت على نفسي ثم تملكني غضب الزهو فهفوت.
- أحمد لا يخطئ.

- كل البشر يخطئون، لا بد من الكلام حتى لو كانت الأحرف ثقيلة على اللسان.

بقيت ساكنة متحيرة فأكمل: الفيرة حجاب، والحسد حجاب، والكبر حجاب.

قالت بلا تفكير: هل تعرف كم أحبك؟

- لم تنطقها كثيرًا لأنك قلت من أكثر من عشرين عامًا إن الكلمات جوفاء أمام تدفق الفؤاد وصدقتك.

- لم أحتج إلى نطقها كنت داخل خلجات النفس.

ابتسم ثم قال: واليوم أطلب صفحك.. وصفح الله.

خفق الصدر وقالت: لماذا؟

- حجبني الأنا عن ربي وتسلس الغضب مقترناً بالكبر فقلت لنفسي كيف تشكين في؟ كيف يخطر ببالها أي غدر؟ كيف ظنت أن مُريد والدها ينقض العهود؟ كيف ترالي أهلاً للخيانة؟ اعتقدت في نفسي ومموها فغضبت منك.. قرأت نفسك وعرفت خاطرك فأصابني الغم. قالت لي نفسي: بعد هذا العمر تتوقع مني هذا هكذا قلت وهكذا ومومت لي نفسي فحُجبت أو كُدت، فهرولت إليه نادماً. كأنني كنت أقول كيف تتوقع هذا من أحمد؟ إذا كان الرجل العادي ربما لا يخون ولا يفدر، فكيف يخطر ببالها أن أفعل أنا. كأنني أعطيت نفسي منزلة غير كل البشر وكأنني لم أقتل النفس بل أبقيتها نائمة فاستيقظت أكثر شراسة من قبل. كدت أحجب حينها لو تُدركين. وندمت واستغفرت.

همست: كنت تقول إن خاطر الخوف غير استقراره يا أحمد. يا صديق الروح قد فاض قلبي بغزارة عطالك حتى إنني لفت العين التي تسهر غيرة عليك، والقلب الذي ينتظر همساتك ولمساتك. كان ومواس نفسي وليس ومواسك حتى ولو قرأت ما في نفسي فلا تلمني على فراستك. لم أنطق بشيء لك.

ابتسم: أعرف ولذا أطلب الصفح منك.

أمسكت جفنيها وجلست بين يديه.. مرّ وقت ثم قالت: غضبت مني لأن يقيني في حبك قد ترحزح وأني احتجت إلى الكلمات لأفهم وأثق، انتظرت كلمة أو كلمتين، أن تقول أنا لا أحبها ولا أريدها زوجة.. ما أتفه الإنسان يتشبث بالعلائق بينما اليقين يأتي من الأعماق. ربما أنا من أطلب صفحك يا سيدي..

- ظننت أنني قتلت النفس ثم لاحت لي كرباح الفور تشير الغضب

والإعجاب لحظات، ربما.. فطلبت منه المغفرة.

قالت: سيدي.. أعماني الطمع فأردت أن تكون لي وحدي، ثم غضبت لمجرد هائف أصاب النفس بلا حقيقة ولا وجود.

- كلنا له هو ولكنه خلقني لك وخلقك لي هدية وهبة منه إلى حين. كيف لي ألا أقبل هدايا الكريم. وأين البركة فيما أقتنصه من دون إنده؟

أمسكت بيده ثم قالت: أصبحت أشعر أنك لست معنا، تهيم في الله وليس في دنيا أو آخرة. ابتعدت عن الدنيا وذنوت منه كأن الذنوب مشروط بالبعد..

قبض على يدها وقال وهو يقبل كفها: هذا ليس بيدي.

قالت في يقين: أعرف هو تكليف منه هو.

تنائر الحاجز وهذا الغضب النابع من الأنا ولكنه كان قد ابتعد عن الدنيا أكثر مما توقعت. يخلو بنفسه أكثر يقرأ ويعلم، يسبر الأغوار ويُرشد التائه على قدر قوته. يجلس معها نعم، يبادلها الحب بشوق ويحتضنها، ولكنه رحل عن العالمين، كل ما حوله سواء. رهبت الاختلاف ثم اعتادته فقد رآته من قبل في والدها.

اعتذر لابن عطاء الله على التأخر قائلا: إنها ابنة شيخي لا أمستطيع أن أقطع كلامها.

قال ابن عطاء الله: خفت أن تتغير علي يا سيدي..

فقال أحمد: أنت منبع نور وجمال تذكر هذا. بعض الناس خلقهم ليضيئوا كما المشكاة، زيتونة لا غربية ولا شرقية. والله ليكونن لك شأن عظيم.

لم يزل عبد البارئ يؤذي الشيخ، ولم يزل تقي الدين فقيه الإسكندرية
والشيخ الخضر يتريصان به، لم تزل الشتائم تنهال عليه، ولكن أهل
الإسكندرية تحمي به كما تحمي بالأسوار الحجرية، يستمعون، يتنهدون،
يفهمون، ويتفكرون، أصبح يرحل من بلد إلى بلد، من أقصى الشمال إلى
أقصى الجنوب، ومن أقصى الشرق إلى أقصى الغرب حتى سمعه كل أهل
الديار المصرية، ولكنه دوماً يعود إليها الإسكندرية. ذاع صيته خارج
حدود الديار المصرية، فتمنى لقاءه كل زاهد وجاءه الناس من كل البلاد
يستمعون إلى كلماته يقولون قائلنا الفرسي ورحب بنا ولي الله العارف بالله
ومن الله، الواصل له والموصل به يعبر رجل البحر فقط ليصافحه، وآخر
ليعاقبه ويلقي بهومه على صدره ويشكو له دوماً يستمع ويصبر ويرحم
ويطمئن

مفر ماريو الأول

ماربوروما 1933- 1903 حكى ماريو لكربستينا

كنت مهووماً بالمياه، صوتها يفتق الوجدان فتنبعث أنفاس غير الأنفاس،
ونشوة كما البرق والرعد، تريك وتبجل، وتدفع بصيحات الطفولة الجريئة.
لمعت عيني وأنا أنظر إلى النافورة العملاقة وتركت يد أمي وجريت
لاحيتها، فصاحت مؤببة تطلب مني أن أعود. لو وقعت في النافورة أغرق
ولا تتحقق أي من أمنياتي، كنت في الخامسة، حينها تجمدت نظرتي على
تمثال عند النافورة، الإله نبتون، إله البحر بجسد فارع قوي مثالي، أشفقت
عليه حينها، ما الذي قيده داخل هذا الحجر؟ ما الذي ربط رجله ويديه
حتى يبقى بهذا ينظر إلى المياه ولا يفوص بها؟ قالت أمي في إعجاب: هو
إله البحر

حينها تمثل أمامي نبتون حزينًا مع قوته. ينظر إلى النافورة ويعجز عن أن يقول أمنيته.

كانها قرأت أفكاري، قالت: لأنه ليس حقيقيًا يا ماريو. تمثل صنعه فنان مثلك، يرسم مثلك. ماريو سيكون أعظم من نيكولا سالفي الذي نحت تمثل نبتون لأنه أبني.

كلمات أمي دون أن تدري كانت كحمل ينوء به الجبل. زادت من ريكتي وحيرتي، فقلت في حسم وقد تذكرت حكايتها عن القديس كريستوفر: سأركب البحر عندما أكبر وأعبر إلى بلاد سانت كريستوفر وميحميني، أليس كذلك؟ هل يعرف سانت كريستوفر نبتون؟

أطرقت أمي ثم قالت: سانت كريستوفر يحمي كل المسافرين حكيت لك عنه. هو قوي قوة لا مثيل لها، مات شهيدًا من أجل دينه، ولكنه سيحميك وأنت تعبر البحر.

قوة نبتون ثم سانت كريستوفر كانت كل ما أفكر فيه. كنت أريد هذه القدرة. للقوة بهاء وطمأنينة لم أملكها حتى وأنا طفل.

قالت أمي في حماس: هيا أعط ظهرك للنافورة وتمنّ أمنية.

قبضت على العملة بين يدي ثم ألقيت بها وقلت بصوت مسموع: أتمنى أن أقابل قديسًا وأن يحميني في رحلتي، وأن أعبر البحر وأن تكون قوتي بقوة نبتون.

- لك أمنية واحدة يا ماريو.

- لو قابلت القديس يعطيني القوة، ولأقبله لا بد أن أعبر البحر أليس كذلك؟ فهو يأتي ليحمي المسافرين.

ابتسمت ثم قالت: أذكى ابن هو ابني.

أتذكر يدها وهي تقبض على يدي الصغيرة، لاحظت أن باعي قصير وأن العملة لم تصل إلى النافورة، فبكيت طوال اليوم، ولكنها أمسكت بي ووضعتني أمامها ثم قالت وعيناها تخرقان عيني: يوماً ستحقق كل أمنيك أعدك بهذا. متقابل القديس.

وقد حدث.. أو كاد.

عبرت البحر إلى مصر، يقولون من يرد الرخاء والفضى يعمل في مصر تجود على المسافر دوماً، ولكن ملكها أيضاً يحب العمارة. رحلت بعد أن أتممت العشرين بقليل، وأصبحت من مساعدي مهندس قصر الملك في مصر. كنت أعمل بلا سؤال أو تذمر. فيلوتشي بيك مهندس القصر الإيطالي وأستاذي، كان يرفع كفه فافهم ما يريد أن يقول، دوماً يردد بين الحين والآخر: أهم ما أحتاج إليه في مساعدي الطاعة، لو أردت أفتح لك أبواب مصر كلها، فباب الملك بيدي أنا مهندس القصر.

كنت أهز رأسي وأطيعه.

يصف لي أحلامه والقلم في يدي فأرسم، رسمت ورسمت كل إشارة وكل حركة أنظر إلى عيني، ويجمع قلبي بلا رفيق ولا رادع. يعدو كما الخيل الحرة داخل صحراء لا نهاية لها.

أحياناً عندما تملكني الحرية وتنفتح أبواب لم يفتحها لي كان يزجرني ويؤذني ثم يقول: من أتى بك إلى هنا؟ كم رأيتك؟ هل كنت تحلم بالعمل معي؟

فأطرق خجلاً ثم أنفذ ما يريد وألجم لساني وأزبل حبر القلم.

حتى غامرت بكل شيء..

وقفت أمامه وقلت في خجل: أستاذي لا تغضب مني.

فقال مؤنباً: وماذا فعلت؟

- لم أفعل شيئاً بعد، ولكنني أنوي أن أقدم على منصب كبير مهندسي
وزارة الأشغال (الأوقاف) في مصر.

فتح عينيه ولم ينبس كأنني قمت وصفعته على وجهه. قال بعد برهة: قلت
لك من قبل إن مصيرك بين يدي وإن الطاعة هي السبيل إلى الوصول إلى
أي شيء في مصر. طاعني أنا مُعلمك، وها أنت تخون المُعلم والعلم.

قلت بلا تردد: أعتذر لك.

- بل تنور علي.

فرددت في ثبات: أعتذر لك يا سيدي.

- لو أردت أن تقدم لهذه المسابقة أحطم كل مستقبلك هنا. تستقيل من
منصبك معي وتعود إلى بلادك من حيث أتيت. تغامر.. ولن تفلح.

رددت كأنني لا أسمعه: أعتذر لك يا سيدي.

كنت أحكي لك عن مغامرتي عندما اندمجت في زخارف المماليك
وحياتهم، وتعلمت العربية وقرأت بلا توقف. أعلنت وزارة الأشغال عن
منصب هو حلم عمري كله، منصب كبير مهندسي وزارة الأشغال المصرية.
لا تسخري مني، كنت كاثوليكيًا تدرب في روما وقضى في مصر بعض

الوقت يرسم قصورًا ويزخرف للملوك. ولكن الحلم لا يبرح الوجدان لو تعلمين. غامرت بكل شيء حتى بعلمي. رأيت نظرات الاستهزاء في عين الإيطاليين قبل المصريين، ماريو يريد أن يصبح أهم معماري في مصر كيف له أن يفعل هذا؟ هو في الثلاثين أو أقل. هو مسيحي كاثوليكي، أصلًا هو إيطالي، ألا يوجد في مصر من يستطيع أن يقوم بهذا العمل؟ حتى أسألتني وجدوا في الحلم وقاحة تستحق العقاب. فلو بقيت طوال عمري أعمل مساعدًا، هذا جازل ومأكون تلميذًا نجيبًا، أما لو أردت أن أسلك مسلكًا مغايرًا، فالدنيا لا تستقيم. ولكنني كنت مدفوعًا وفقًا بلا إرادة من ناحيتي ولا قدرة على المكوث مكاني. استقلت من منصبي وجلست ثلاثين ساعة أرسم بابًا لوزارة الأوقاف كما تتطلب المسابقة.

الباب.. لا بد أن تعرفي يا كريستينا أن شففي بالعمارة المعموكية أصبح أكبر من شففي بعمارة النهضة في إيطاليا. وعندما صممت بابًا لوزارة الأوقاف تركت قلبي وأغضت عيني وأنا أرسم، ثم فتحتهما بعد أن أخرجت من قلبي صورة فيلوتشي. كنت حزينًا حتى ولو فقدت كل شيء. ثلاثون ساعة متواصلة لا أتحرك، أغفو بين طيات الأوراق وخيالي لا يمل ولا يرنو. امتثل أمامي مسجد السلطان حسن، ثم مسجد قايتباي، ثم كنائس في بلدي، امتثل أمامي طفل يريد الحرية ولا يجدها، عبر البحر بحثًا عنها فازداد قيده، وها هو اليوم أمام الباب السحري. يقولون نفتح لك الباب لتكون كبير مهندسي وزارة الأوقاف، افعل ما شئت.. وعش كما تشاء.. لو أجبت عن السؤال الإجابة الصحيحة.. لكن ما هي الإجابة الصحيحة؟

تقدم إلى المسابقة أهم المعماريين وكنت شابًا أجنبيًا بالكاد يفوق في بحر العمارة الإسلامية حينها. رسمت الباب وأنا أنوي أن أستلهمه من عمارة الماليك، ولكنني بعد برهة وجدت نفسي أدور بقلمتي على الأوراق تارة في خط مستقيم وتارة في دائرة ومرة في مدخل أتمنى العبور منه. سهوت أو

كنت فلم أسيطر على نفسي كعانتني ولم أذكر كلمات فيلوتشي ولا
نصالحه. كنت شابًا يلهو بشفف مع من يحب بلا قيود وبلا وخم، أرتع بين
انحناءات الأمواج والرمال الصافية. أنا والقلم كنا واحدًا نفعل ما نشاء
كيفما نشاء. عرفت نفسي أو كنت.

كل حين تأتي روزا زوجتي وتردد في شفقة: أرهقت نفسك يا ماريو.. خذ
بعض الراحة ثم غُد إلى رسم الباب.

للحق لم توقظني ولم أكن أريد سماع أي صوت. كنت في غيبة كما
الصوفيين بين طيات الوجد. كنت حُرًا.

سمعت الصوت من الأعماق يأتي: فإذا ما نلت منه وصولًا، فاقرع الباب
قليلاً قليلاً.

زخرفة الأبواب هي البدء، هي أول طريق للدخول، تفتح بابًا لتدخل على
حببتك وبابًا آخر لتبتعد، هذا باب تمر به عبر الأوطان، وهذا تهرب به إلى
عالم مختلف، وذاك باب يصل ما انقطع، وهذا باب إلى نار مضرمة، وآخر
إلى شوق لا يخمد إلا بوصل لا ينقطع، هذه مياه تلج في الأحشاء، وهذه
أزهار لا يعرف أحد متى تنبت وأين. هالني ولع الرسام بأفرع الشجر
والأزهار، ودمجه بينها وبين الأشكال والدوائر ما الذي يجذبه إلى الأشجار
سوى أنها لا تخلف الميعاد، ولكنها أيضًا لا تخضع لترتيب البشر، مرة تصاب
بمرض فلا تنبت، ومرة تذبل ولا تموت. تحتاج إلى اهتمام دائم كما النفس.
هؤلاء يتخذون الرسم بابًا إلى عالم الأرواح. وليتني أفهم عالمهم.

ولكنني سمعت الصوت لي وحدي.. مرة بلفتي ومرة بلغة لا ألقنها بعد..
أقرع الباب قليلاً قليلاً..

هو باب إلى بداية الرحلة وآخر إلى بداية الوصول. في الرحلة لا نهاية ولا

بداية ولا ضيق ولا اتساع كلما أبدع الفنان تحرر من القيد وكلما عبر أبواباً
مألوفة اتسعت رؤيته كنت أبحث عن الحرية. وأردت دخول هذا الباب
ولكن علي صناعته أولاً..

ثلاثون ساعة بلا انقطاع أرسم في باب وزارة الأوقاف. ولكن الصوت
المنساب من بين الدوائر بعد حين.. أقرع الباب قليلاً قليلاً.. إذا ما نلت منه
وصولاً..

صوت كنغمة أغنية لا تترك أنني غنتها أمي وأنا طفل، فلتسامحني أمي
على أنني رحلت بلا وعد بالرجوع. ولتسامحني أكثر أنني دخلت السجن
بعد ذلك في مصر فلم أستطع أن أودعها.. نغمة الأغنية لم تتركني، كنا
نسمعها صغارا: كنك يا حبيبة قلبي بركان ثلاث تعالي نسير معا.. تعالي معي
نتسلق إلى أعلى، فتشاهدين على العالم وأنا أراك أنت فقط.. قلبي يفني لك،
ويريدك إلى الأبد.

ضفطت على جفني المسهد والكلمات تتشابك أمام عيني.. وأنا أراك أنت
فقط.. أنت تشاهدين على العالم.. وأنا أراك أنت فقط.. فونيكولي.. فونيكولا..
إلى أعلى، إلى أعلى لنصل إلى أعلى، إلى القمة هيا...

اطرق الباب قليلاً قليلاً..

بعد عام سألت مدرس اللغة العربية لو سمع هذا البيت من قبل، فكر قليلاً
ورده ثم قال إنه لا يعرفه.

الغريب أنني بحثت عن قائل هذه الكلمات كما بحثت عن طفولتي، فلم
أعرفه إلا بعد أعوام. أما طفولتي فلا أتذكر منها سوى يد أمي التي تمسك
بيدي، وتدور حول آثار روما قليلة: ماريو سيكون أعظم معماري في العالم.
ابني أنا.. لا تجعل أحلامك بطول هذه البناية، اجعلها تصل إلى السماء.

فلِمَ لمتني يا أمي عندما رحلت؟ خضت بحرًا لأصل ولا أدري لو وصلت
عند الانتهاء من رسم الباب لمسابقة وزارة الأوقاف، لم أشعر بيدي حتى
ظننت أنني فقدتها، وتشوش البصر حتى أمسكت بي زوجتي تطلب مني
أن أبقى جالسًا وأغمض عيني برهة قبل القيام. كانت حياتي تتوقف على
هذا المنصب. أصبحت الدنيا متمثلة في هذه المسابقة وهذه المغامرة وهذا
الشعور اللذيذ بالحرية.

وفزت في مسابقة وزارة الأوقاف. أصبحت كبير المهندسين، وأخذته أنا. لم
ياخذه تركي أو سوري أو مصري أو فرنسي. أنا الذي درمت ما أحب
واندمجت في العشق حتى الشكر فأصبحت الزخارف كأنما من يد حبيبة،
والمقرنصات ليالي كلها أمرار بين الهالمين. شجعتني نجوم السماء، ورأيت
القمر يهمس لي: أنت المقصود فلا تجزع.

أمي.. تبعت لي خطابين كل أسبوع تتبع خطاي كأنني ذهبت إلى المدرسة
لأول مرة، كنت ابنها الوحيد وحلمها وندياها، تعلمت أمي الرسم لتصبحني
في الرحلة، وعندما قابلت روزا زوجتي في كنيسة مان جوزيف في
القاهرة لأول مرة، قررت لحظتها أنها لي. كنت الفقير وكانت الفنية، كنت
من عائلة مجهولة وكان والدها مستقرًا مزدهرًا في مصر منذ أعوام. كانت
مصرية وكنت إيطاليًا، وربما كانت إيطالية وكنت مصريًا. ما أعنيه أننا
اختلفنا حتى ونحن من البلد نفسه، ولكن الله رزقني يا كريستينا بامراتين
في حياتي تعطيان بلا مقابل، تحبان بجود وكرم. المشكلة أن وجود أكثر
من محبوب مشكلة! منذ البدء امتشعرت المنافسة. أصبحت خطابات أمي
بعد زواجي كلها استغاثة وفزع، تقول: ماريو حبيبي ألن تعود إلى وطنك؟
سأبقى هنا وحدي بقية عمري .. مكلتك بجانب أمك..

كنت أهدنها وأشعر ببعض الذنب، طلبت منها الحضور إلى مصر ولكنها رفضت. لكنها استمرت ترسم لي مستقبلي بإتقان وشفف. وكنت طريقتها في التعامل مع أزمة زواجي في مصر هي أن تتجاهل وجود روزا على قدر استطاعتها. فخلت الخطابات من السؤال عنها، كانت الخطابات كلها لهفة وبعض الخوف. في الماضي نصحتني أن أقنع فيلوتشي بيك أنني مدين له بكل شيء وأن أطيع كل أوامره. وفعلت بعض الوقت، وعندما تمررت صمتت، لم تلمني، بل بعثت تطلب صورة من تصميم الباب، بعثت إليها، فرحت وبعثت خطابًا تنبأ لي بأن أصبح أهم مهندس عمارة في العالم. أمي كانت تحملني بين راحتيها ثم ترتفع بي إلى السماء.

تنظر إلي روزا في امتعاض بين الحين والحين، ثم تقول: أمك لا تحبني. فأردد: بل تحبك جدًا جدًا.

هي آخر جدًا التي تؤدي دومًا إلى مشاجرة بيننا، تتهمني بالكذب ثم تتمتم ببعض الكلمات وتدخل حجرتها وتغلق الباب. يا أحمد.. طرق باب روزا صعب عندما تغضب.

سفر ماريو الثاني

هناك لحظات في عمر الإنسان تغير مصيره. ما فعلته لا تسأليني عنه الآن فلن أستطيع أن أشرح لك. الوقت يريك أحيانًا، وأحوال الدنيا تدفع بنا دفعة إلى العصيان ولكن كان علي المخاطرة، لم يكن هناك بد من الفوص في البحر. عشقت العماليك ثم الفاطميين، رأيت ما لم ير أهل البلد، رأيت الإتقان المصاحب للبقرية، لدي حس للفن أو هكذا أدعي..

جازفت بكل شيء حتى بعثت بمستقبلي. في بعض الأحيان يتغير

صديقك عليك، وأحيانًا لا تعرف أين الصديق. وهل للصديق أن يكون موصولًا موجودًا كل الوقت؟ لطالما أقمت أفضل صداقات عمري بين أناس ليسوا معنا. لا تتهمني بالجنون.

كنت كبير مهندمي ووزارة الأوقاف وأنا في الثلاثين، فزت أنا بالمسابقة كنت حينها أظن أنني فزت ولم أدرك أنه هو اختارني من بين البشر كنت أظن أنني أبحث عبر البحر ولم أدرك أنه كان يبحث عني عبر البحر هل تفهميني؟ قالوا لي: يا ماريو الإسكندرية بلا مسجد يسع كل الناس. هي بلد الأولياء ولكنهم تحت الأرض وليس فوقها. من يستطيع أن يستحضرهم؟ أنت فوكل ببناء أكبر مسجد في الإسكندرية لأهم ولي بها أبي العباس الفرمي. وكنت أرى الإسكندرية لؤلؤة تنتظر من يعيدها إلى الصدف حتى لا تهلك وسط طمع السامة وتغيرات الأزمنة أحببت المدينة لأنها كانت تحتاج إلي، ولأنها بلد أبي العباس الفرمي أليست بلد الفرمي؟ أم كان غريبًا مثلي؟ لو كان كل من في هذه المدينة يقسم ويعرفه فلا بد أنها بلاده.

أبو العباس الفرمي.. ترى ماذا يريد القديس أن أبني له؟ هل يحب العمارة المعموكية أم الأندلسية؟ بحثت في لهفة وإحباط عنه فلم أجد من يدلني عليه. كلهم يحبونه ولا أحد يعرف من أين أتى ولا ماذا قال وفعل، وكنت أحتاج إلى الصدق لأبني مبنى يحيا بعدي كما مباني المماليك. أرهقني البحث حتى قال لي أحد مساعدي: يا سيدي ابن مبنى لولي وهذا يكفي. ولكن الصدق دومًا باب الحرية. فتح لي الباب لأنه يريدني أنا. اختارني الفرمي لبناء مسجده. هذا ما اكتشفته بعد حين، لا توجد مصادفة. القدر يأتي به الله من خلال مخلوقاته.

سألت وبحثت بين الطلاب المصريين والمعماريين المخضرمين. لا أحد

يعرف شيئًا عن الفرسي غير أنه ولي، تنهال عليه الأماني من الأفواه كل يوم، وكلهم يتكلمون معه ويشكون إليه، ولا يحاول أحدهم أن يسمع صوته أو يسأله عن حاله.

كنت أبحث عن أبي العباس الفرسي. أريد أن أعرفه حتى يتسنى لي بناء هيكله.

لو أردت أن تعرفه سيريد أن يعرفك هو أيضًا، ولو بحثت عنه فسوف يأتي إليك حين يحين الوقت. وقت البذر غير وقت النبات هكذا قال الفرسي. بدأت في أول مشروع لي في الإسكندرية، ستة عشر عامًا وأنا أرافق أبي العباس.

ستة عشر عامًا وقت طويل لو قضيتها مع نفس الإنسان تحاولين معرفته وصداقته، وأحيانًا لا يجيب وأحيانًا يذهلك بجوده وحميميته. ولكنني رسمته منذ بدأت العمل في مسجده كان لا بد أن أراه وأن يتمثل أمام عيني كلما حدثني أحد عنه أضيف خطأ إلى لوحتي حتى اكتملت بعد ستة عشر عامًا ها هي بين يديك. صورة صغيرة بقلم رصاص ولكنها له لأحمد أبي العباس الفرسي بلحيته البيضاء، ووجهه الهادي وعينيهِ المضيئتين وعمامته البسيطة وابتسامته التي لا تفارقه.

عند البدء في بناء المسجد كنت أتعلم اللغة العربية. وجاءتني رسالته الأولى مع مدرس اللغة العربية. كان يرتدي طربوشًا مهندمًا ويعتني بشاربه المبروم أتم عناية، يجلس أمامي ثم يقرأ من الأشعار القديمة ولا أفهم شيئًا. قلت يومًا: هل تعرف أبا العباس؟

فنظر إلي في ذهول ثم قال: ولي الإسكندرية؟ بالطبع أعرفه.

- وهل يوجد أي كتاب عنه؟

صمت برهة ثم غاب أسبوعًا وعاد بكتاب لطلاف المنن لابن عطاء الله
السكندري، فتح الكتاب وقرأ:

الحمد لله الذي فتح لأولياته باب محبته، وأنشط نفوسهم من عقال
القطيعة، فقاموا بوجوب خدمته، وأمد عقولهم بنوره، فعاينت عجائب
قدرته، وحرس قلوبهم من الأغياص ومحا منها صور الآثار حتى ظفرت
بمعرفته.

فإني قصدت في هذا الكتاب أن أذكر جملاً من فضائل سيدنا ومولانا
الإمام، قطب العارفين، علم المهتدين، حجة الصوفية، مرشد السالكين،
منقذ الهالكين، الجامع بين علم الأسماء والحروف والدوائ المتكلم بنور
بصيرته الكاملة على السرائر كهف الموقنين ونخبة الواصلين، مظهر
شموس المعارف بعد غروبها، ومبدي أسرار اللطائف بعد عزوبها، الواصل
إلى الله والموصل إليه شهاب الدين أبي العباس بن عمر الأنصاري الفرمسي
فتحت فمي في فزع ثم قلت: لا أفهم كلمة واحدة.

فقال المدرس: طلبت مني مسيرة الفرمسي. هل تريد أن نقرأ هذا الكتاب؟
- تشرح لي كلمة كلمة..

ما إن طلبت أبا العباس حتى لبي النداء، جاء وتواصل معي بطريقته
الخاصة، وتواصل القلوب أعرق من تواصل العينين.

كنت أحكي لك عني أنا. نجحت واكتفيت وأصبحت أسقى بماء بارد من
الوجد وسط الألوان والمشكاوات والأعمدة والمنابر ادخرنا أنا وروزا
زوجتي بعض الأموال، صممت فيلتي أمام أهرامات الجيزة، وكلي إعجاب
بمعماري قديم بنى مبنى بروحه وليس بعقله ولا يديه فبقي. عم الرخاء،
وأصبحت أستطيع أن أبعث لامي بالأموال وأؤمن مستقبل ابني أيسلاندرو،

وسار العالم طوع إرادتي، فهدولت إلى الدنيا أناجيها كما يناجي الطفل
الأزهار والطيور.

ثم جاءني خطاب أمي كله حزن، قالت: ماريو.. إياك إياك أن تتدخل في
السياسة، ابق على الحياد في هذه الصراعات، الحرب على الأبواب مرة
أخرى أريد أن أراك وأرى أليساندرو قبل اندلاع الحرب أنا عاصرت حربًا يا
بني، يا ماريوني يا حبيبي، لكم أتمنى ألا تعاصر أي حرب يوم بدء الحرب
سيتوقف الزمن والمكان، ومينتهي عالمنا ويبدأ من جديد دوننا. هي محو
يا ماريوني، يا طفلي. ابعت لي أليساندرو، أريد أن أراه، من يدري متى
أموت. حفيدي حبيبي، أم أن زوجتك لا تريده أن يأتي لزيارتي؟

قرأت الجواب لروزا وأليساندور وتركت الجملة الأخيرة، ولكن روزا طبقت
شفتيها ونظرت إلي في تحد. ثم قال أليساندرو في حسم: أنا ذاهب إلى
روما.

فقالت روزا وكانت حاملاً في شهرها السابع: ولو اندلعت الحرب؟

- سأعود. لا توجد مشكلة يا أمي.

رحل أليساندرو ولكنه لم يعد.

جاءت الحرب مصاحبة للغم والفقد. لا تسأليني عما حدث لي في هذا
العام. ولكنك تعرفين، لم يكتمل حمل روزا كما كل مرة. أيقنت أن ابني
أليساندرو سيكون وحيداً بقية عمره، هذا لو عاد من روما. لن أحكي لك عن
الفقد. ولكنني سأحكي لك عن محو الأحلام، ومرعة الريح وإتقانها في
إزالة السحاب. جاءت الحرب ففقدت عملي، هكذا بكل سهولة. أصبحت
عاطلاً بعد أن كنت كبير مهندمي الأوقاف. توقف العمل في مسجد
الفرسي. وكل ما ادخرت، كل أموالي، كلها وقعت في يد الإنجليز. أو فلنقل

ضاعت كل أموالى ومدخراتى.

سرعة زوال كل ما ربت لمستقبلى رجّت الكون من حولى، ولهفتى على
ابنى كانت تضل عقلى تماثا. مكنت فى شرفتى أحملق فى الأهرامات، ولم
أدرك حينها أن المصائب ما إن تبدأ حتى تستمر تباغا. دق الضباط
البريطانيون باب البيت، فتحت زوجتى فدخلوا دون تحية، فتشوا فى كل
مكان، ثم دخلوا الشرفة، وجدوا بجانبى راديو تحفظوا عليه كآلة أداة
الجريمة، وكتبوا فى محاضرهم وجدنا راديو ربما يكون جهاز اتصال لا
ندري. تحفظوا على الراديو وعلى. وجدتنى أمستل حافلة متجهة إلى فايد،
إلى معسكر اعتقال.

اليوم ماريو رومى مسجين فى الأربعين من عمره هنا فى معسكر فايد فى
مصر. جمع الإنجليز شباب الإيطاليين وحجزوهم فى معسكرات خوفاً من
ولائهم للدوتشي موسيليني. ماريو اليوم بلا عمل ولا أموال ولا مستقبل.
سمحوا لروزا بزيارتي بعد شهر. نظرت إلى فى عتاب وتفجر غضبها فى
وجهى بلا توقف: ابنى.. أنت السبب فى ضياع أليساندرو. أنت.. شجعته
على الرحيل والحرب على الأبواب.

صاحت بأعلى صوتها، فتجمع الحراس المصريون يشاهدون مشاجرة بلغة
تعجبهم نغمتها ولا يفهمونها. صحت أنا الآخر: بعد شهر تأتين للومى! هل
تفكرين فى؟ هو ابنى أنا أيضاً.

أخذت تدور حول نفسها كأنها هى التى تم مسجنها هنا. ثم نظرت إلى
وقالت: جئت لك بالبرتقال والمربى كما طلبت، مارحل الآن.

أمسكت بمعصمها ثم قلت: ابقى بعض الوقت، لا أدري متى أراك مرة أخرى.
غطت وجهها بكفها ثم قالت فى يأس: سأبحث بجواب للدوتشي

موسيليني.

نظرت حولي في خوف، ثم أشرت لها لتخفض صوتها. فقالت هامسة:
مأطلب منه أن يبحث عن ابني.

تعرفين يا كريستينا لليأس قواعد الخاصة، ولكن فكرة زوجتي فاقت كل
إبداع، قلت في مرارة: روزا نحن في حرب، الآلاف يختفون وقت الحرب.
صاحت ابل صرخت: إياك أن تقول هذا، إياك، ابني لم يختف، هو فقط لا
يعرف كيف يبحث لنا خطابًا لأننا هنا في مصر والبريطانيون لن يسمحوا
بهذا، إياك أن..

قلت مهدئًا: حسنًا لن أفعل.

ثم وضعت يدي على كتفها فأزاحتها، وقامت وكل جسدها ينبض بالفقد،
وخرجت من عندي.

اقترب مني الحارس المصري مرمي، هكذا يطلق على نفسه مرمي. على
اسم بلدك يا أحمد يا أبا العباس. يظن أن مرمي هو اسمك وليس البلد الذي
أتيت منه، لا بأس. قال مرمي الحارس: زوجتك غاضبة.

قلت بالعربية: هذا واضح.

نظرت إليه، ثم قلت وأنا أخرج بعض المال من جيب: أريد مساعدتك، ما
علاقتي بالحرب وأنا هنا في مصر؟ مسجني هنا ظلم، أنت تعرف، أنا مهندس
فقدت كل شيء.

قال في ريبة: ماذا تريد؟

- أريد الهرب.

فتح فمه، فقلت مسرعًا: كل ما أملك أعطيه لك لو ساعدتني، لا مشكلة بينك وبينني. اقترب مني.

همست في أذنه: أنا أبني مسجدًا لشيخ كبير اسمه أبو العباس الفرمي.

فتح فمه في وجل، ثم قال: الفرمي أبو العباس!

- أبو العباس الفرمي.

- لا اسمه مرمي مثل اسمي. شالله يا مرمي يا أبو العباس.

قلت في يأس: أنا إيطالي لا شأن لي بهذا الصراع، وأنت مصري لا شأن لك بهذا الصراع. لا عداة بيننا. ساعدني، لو فعلت سيرضى عنك الشيخ أبو العباس أكيد. أعرف أنك من الإمكانية.

لم ينطق. أخرجت كل ما أملك من جيوبي ووضعه أمامه قليلًا: هذا كل ما استطعت أن أهرب به داخل المعسكر.

نظر حوله ثم أمسك بالجزيئات وخباها، ثم قال: علشان الفرمي بس حساعدك.

مشكلتي يا كريستينا أنني لا أمكث مكاني مستسلفًا. كانت أمي دومًا تستغيث بالأهل قليلة إنها لا تعرف ما الجن الذي يسيطر على هذا الطفل، فيدور حول نفسه بلا توقف ساعات. لم أستطع تحمل السجن فهريت.

لم أدرك أن الهرب سهل هكذا، خبائي مرمي داخل المخلفات، كنت أنفاسي حتى الخروج من المعسكر.

خفق قلبي وأنا أتوق إلى هذه اللحظة. سأخرج من المعسكر ثم أعبّر البحر

باحثًا عن ابني. سأتحدر يا أحمد يا أبا العباس، فالقيد يكاد يذيب ما تبقى
من عقلي. عند الشاطئ التفت مرسي حول نفسه، ثم عندما تأكد من خلو
الشاطئ دفع بالحمل فوقعت على الأرض وتنفست كأنه أول نفس يخرج
مني.

ثم اقترب مني وهمس: لو مسكوك أنا لا أعرفك.

قالها وهو يبتعد عني بأقصى سرعة.

عاد مرسي الحارس إلى المعسكر وصاح: ماريو هرب. فاجتمع الجنود
البريطانيون وخرجوا بالأسلحة بحثًا عني.

حدثت في البحر ثرى كم من تله لجأ إليه، وكم من حالم حارب بين مياهه؟
اليوم البحر هو النجاة. خرجت أنفاسي متقطعة، جريت أميالًا بلا توقف
حتى أصل إلى هنا، ابتعدت عن المعسكر وها قد وصلت، ماذا أفعل الآن؟

ضربت بكفي جبهي كأنني أتأكد أنني لم أزل حيًا آه يا ماريو رومي. كل ما
مضى من عمرك سفل وكل ما هو آت عذاب، تهرب من مسجن إلى بحر وأنت
تعلم أنك لا تستطيع خوضه ولا ركوبه كأنك تقفز من طائرة وأنت داخل
قفص مقيد، أنت مقيد باليوم وبالغد، وبحرب لا قبل لك بها. آه يا ماريو..
كل ما حلمت به سُجي كالكمات الفارقة في الماء المالح!

رأيت حياتي قبل الحرب لهفة الحلم وشغف الإبداع. ركبت البحر يومًا منذ
عشرين عامًا باحثًا عن بناية غير كل البنايات، باحثًا عن جمال في أعماق
القبج، غصت وبلغت الغايات، حققت ما أريد، ثم هبت ريح فتناثرت الأماني
والأيام كأنها لم تكن رحلت من روما أبحث أو ربما رحلت لأنني كان لا بد أن
أرحل، دفعتني الشوق إلى الأمواج أو ضوء الشهب، تنفست هواء التيه،

فوصلت أو هكذا شبه لي طلبت أمي مني البقاء، من يترك الفن في روما للبحث عنه في مكان آخر؟ اليوم أعرف أن سفري لم يكن للمغامرة بقدر ما كان للبحث.

على أية حال أنا اليوم هارب من معسكر فايد الذي يسجن فيه الإنجليز رجال إيطاليا وكل من يبدي تعاطفًا مع موسيليني، أو هكذا يدعون. سجنني الإنجليز دون نذب لكوني من إيطاليا، ولكنهم ادعوا في أوراقهم أني أيضًا أملك جهاز راديو. لا تضحكي، سجن الإنجليز رحيم بالنسبة لسجون باقي الجنسيات البائسة التي تحارب مع المنهزم، لا تقفي أمام قبح الحروب.. هكذا علمني أبو العباس.. فلو تأملت الحرب هنيهة متفقدين كل حبك للبشر. ولم؟ هل يستحق البشر الحب على كل حال؟

سمعت صوت الجنود من ورائي، فلم أفكر بأمروني بأن أبقى مكاني وأنا لا آخذ أوأمري إلا من أعماق الفؤاد. صرخت بأعلى صوتي: لو اقتربت من سألقي بنفسي في البحر.

اقتربوا وألقيت بنفسي في البحر ومسحت في يأس إلى الأعماق.

ارتطم خدي بالموجة فنغزه زيد البحر كما رصاص الحرب، وتناثرت الكلمات من حولي، سمعتها لأول مرة.. مرحبًا بالموت القادم مع زيد البحر.. قلتها أقسم لك.. وقالها أبو العباس.. التقينا ونحن نغرق أو نبحث بحرية عن الأصداف ولا ندرك المسلك إليها.. رددتها.. متمنيا الحرية.

سمعت همسات الجنود بالإنجليزي ولم أكن أتقنها: هو حي.. هل أراد الانتحار أم الهرب؟

همست والسعال يخنق الكلمات: الهرب.

سحبوني إلى المستشفى كما الجرو المبتل، ثم ألقوا بي على سرير أبيض

من الحديد مبيى الصنع، لا تسأليني لم اشماز الجسد؟ لا أحب القبح في البناء، صانع السرير لم يكن فنًا على الإطلاق. أغضت عيني وتذكرت كلمات قرأتها في الماضي وأنا أتطم العريية، لم أفهمها حينها ولا أكاد أفهمها الآن.

جعلك في العالم المتوسط بين ملكه وملكوته ليعطيك جلالة قدرك بين مخلوقاته، وأنت جوهرة تنطوي عليك أصداف مكوّناته.. أين يا ابن عطاء الله قدرى اليوم؟ أخبرني يا صديق!

ثم لاح بخاطري عبارات بعينها:

أنت مسجون بمحيطاتك محصور في هيكل ذاك. فتحرر.. وهل هناك تحرر أكبر من انفكاك الروح من الجسد؟

لم أعرف هل كنت حيًا أم ميتًا؟ في المستشفى انقطع عني كل اتصال ولم أطلب رؤية أحد. كنت أغض عيني كأنني أعصر ما تبقى من حياتي، أرى أمي وهي تمسك بيدي وأتخيل سألت كريستوفر وهو يحرس عابري البحور. ثم أرى الأمالي تتناثر ثم تتلاشى كأنها لم تكن.

اقترب مني وهو يتلفت حوله كعادته ثم قال: عم تبحث يا خواجه؟

كنت أعرف صوته، إنه مرمي الحارس. أخرج ربالًا ووضعته أمام وجهي ثم قال: تحتاج إلى شراء سجائر ربما؟ أو إلى أي شيء آخر؟

ثم نظر إلي وقال: أصابعك تتحرك كأنك تحتاج إلى شيء، لا تظنني مساعدتك من أجل المال.. ها أنا أعيد إليك المال أو بعضًا منه، أنت لا تنام قط. تتحرك وتمد أصابعك كأنك تبحث عن قلم. معي القلم..

انتفضت أو حاولت ثم قلت: أعطه لي.

فأخذ الريال ثم قال: وورق.

وضع الورقة أمامي والقلم وخبأ الريال في ملبسه ثم قال: هذا عدل
ورحمة؛ أليس كذلك؟

قلت بلا تفكير: هو كذلك.

قال بعد حين: لو كنت تعرف أبا العباس الفرمي فاطلب منه أن يساعدك أو
يساعدني أنا..

قلت في صوت هادئ: اطلب من الله.

فقال: يا خواجة.. ماذا يفعل الشحاذ عندما يطلب منك شيئاً؟ يقول بحبك
لهذا الشخص، أعطني هذا وهذا. ونحن نعرف حب أبي العباس لربه وحب
ربه له. هو العارف بالله فنقول بحبك يا رب لهذا العبد الصالح أعطنا كذا
وكذا. ما المشكلة في هذا؟

قلت وأنا لا أتابع كلماته: حسناً.

- حسناً، ماذا؟

- حسناً، أتركني مع الورقة والقلم.

قال: هل مستطلب منه أن يساعدك؟

قلت في حسم: لا.

ولكن أبو العباس تكلم معي.. بعد حين.. عندما هذا الغضب، هو من بدأ
الكلام حينها. أصبحت صعبة وعشرة لو تعرفين. على أية حال.. كنت حينها
ومسجيتاً بلا ذنب وكان يمكنني التحمل لو عرفت أين ابني.. لو عرفت فقط
أنه مات فقد أرتاح. ولم أكن أملك غيره.

بعد حين دخلت علي روزا، قبلتني وأخبرتني في حزن أن هناك خبرًا لا بد أن أعرفه، ولم أكن أريد أن أعرفه.

ولكنها قالت في بعض الشفقة: ملأت أمك. جاملي الخبر في رسالة مربية من صديق.

لم أكن أدري كيف أتعامل مع الحزن ولا الفقد. بقدر تعلقي بالأوراق والأقلام، وبقدر عشقي للخطوط، وبقدر انسكاب النجوم من بين أطرافني كنت أخاف الحزن وأجهله. لم أخبر أحدًا حينها أن أحشائي تتمزق، وأن الروح مجبولة على الشقاء. ولم أنطق. قالت: اعذرني لو كنت فقدت أعصابي من قبل. ولكنني أحبك تعرف هذا. هل أردت الهرب فقط يا ماريو؟

قلت وأنا أهرب حينها من كل عذابات النفس: في أسفل الحقيبة التي سأعطيها لك رسم وتصميم لفيلا شفيق بك كما أراد. اطلبي منه أن يتوسط لي في الخروج. لم أعد أطيع الحبس. خبأت التصميم داخل الحذاء أسفل الحقيبة، لا تنسي يحتاج تنفيذ الزخارف الخشبية التي يطلبها إلى حرفيين من عائلة الأميوطي من المنيا، هم فقط من يتقنون هذا النوع من الزخرفة، ولن يصل إليهم إلا إذا أخرجني من هنا أنا أعرف كل حرفيي مص وهو لا يعرف اطلبي منه أن أخرج. ولا تنسي مكان التصميم.

نظرت إليّ كأنني فقدت عقلي ثم قالت: لن أنسى. هل أنت بخير؟ لم أجب.. تجمعت الدموع في حلقي ولم تجرؤ على الخروج. كانت مغلولة اليدين مثلي.. كلنا عاجزون على ما يبدو.

اقتربت ثم علاقتني وهي تبكي وهمست: أنا خلافة. كأنني في كلبوس.

أحطت كتفها ثم قلت: مرحبًا بك في الدنيا

ثم أخبرتها أنني أريد أن أعمل في الخفاء؛ نحتاج إلى المال. سأصمم قصورًا وفيللاً لأثرياء مصر كما كنت أفعل في بداية حياتي، وعليها أن تحمل الرسائل بالتصميمات معها داخل حقيبة الملابس القديمة، وتأخذ المال من الزبائن لتعيش به. أما أنا فجيش بريطانيا العظمى يتكفل بي.

تحسنت صحتي بعد أيام فجلست وطلبت من مرمي المجند الأوراق مقابل المال، وبدأت الرسم بلا توقف، انهمرت الأشكال المقترنة بالحيرة والأمل والإحباط كأن أيام الدنيا لا تعدل أبدًا. يوم بمائة عام، وآخر يمر في زفرة نفس، يوم يخرج القبح من انحناءات الجوارح، وآخر ينسحب في ابتسامة من ثغر عذب. تارة أحمد الله أنني لست شاهدًا على الحرب، وتارة أفقد الأمل في أن أرى ابني الوحيد.

أصمم فيلا لأحد أثرياء القاهرة تدور بي الدائرة، وأقرأ كلمات بحروف تبرق كما ومضة البرق من بلادي، ظننت أنني فقدت عقلي أو تركته هناك. أمي ماتت ولم أودعها. طلبت مني ألا أرحل ولكنني رحلت مدفوعًا بحلم أو وهم أو عين الحقيقة، باحثًا عن مسكن أو نجاح أو مال أو ربما طمأنينة. ما الذي يلقي بمثلي إلى وسط البحر؟

أقرع الباب قليلًا قليلًا.

لم أكن أعرف من يبعث لي الرسائل حينها ولا من يناديني.

كل ليلة أتلهف إلى خبر عن ابني، بعثت روزا رسالة لعوميليني نفسه تطلب منه أن يترك ابني يعود إلى مصر لكن ربما لا يكون حبيشًا، وربما يكون قد مات أو قُتل ليلاً أنتفض من نومي وأقوم أبحث عن القلم وأرسم. غصت في أوراقك يا أحمد، ولكنني لا أدري لو تحررت مثلك ومسكن قلبي

الرضا منك. لو فقدته ماذا سيحدث؟ كم من شاب مات في هذه الحرب،
وكم من أب فقد أولاده. فلم أرى نفسي مصدر الكون وأهم من كل
النفوس؟ ولكنني خفت وفزعت وتعميت التحرر من الهم قبل القيد.

صباحاً رأيته يتنفس في مؤخرة عنقي فكنت أصفعه ولم أفعل، ولكنه كان
يشاهدني كل يوم كأنني شاشة سينما، مرمي الحارس. قال لي فجأة: ترسم
بسرعة جدًا.

لم أقوَ على إغضابه فهو من يأتي لي بالقلم والأوراق، وهو من يخبئ
الرسائل لزوجتي.

ولكنه يتكلم دون توقف، أحياناً أريد أن أعود إلى البحر وأغرق لأنتهي من
الكلام. لن أنكر أنني اعتدته وبدأت أفقده لو غاب. قال اليوم: هل تعرف ما
حدث أمس في الإسكندرية؟

فقلت: ماذا حدث؟ لم يصل روميل بعد.

التفت حول نفسه كعادته ثم قال: أنت تساند موسيليني؛ أليس كذلك؟
فقلت في صدق: لا شأن لي بالحروب، أريد الاطمئنان على ابني وكفى.

فقال وهو يحدق في القمر: أمس ألقت طائرة قنبلة كبيرة على الإسكندرية
كلت مستدمر كل المدينة، قنبلة كما التي نسمع عنها، القنابل التي تمحو
المباني تمامًا ولا تبقى على إنسان أو حيوان، ولكنها لم تسقط. التقطها
الشيخ القباري بيديه وأنقذ أهل الإسكندرية.. ربما لا تعرف ميدي القباري..

قلت: التقطها! كيف؟

- هؤلاء الأولياء يحرمون المدينة كما أسوار الماضي، ما تبقى في
الإسكندرية هو أسوار قديمة وأولياء.

لم أجب. فأكمل: كل يوم أقرأ الفاتحة لأبي العباس، ومسيدي ياقوت العرش،
ومسيدي البوصيري، ثم مسيدي القباري.

رددت: هم يحمون البلد..

- هم البلد. أسوار ووتد يا خواجه.

- القباري مكندري، ولكن أبو العباس مرمي، وياقوت حبشي.

- مرمي مثل اسمي، ماذا في ذلك؟

- شرحت لك من قبل أن مرمي هو صفة للمكان الذي يأتي منه، مرمية
في الأندلس.. في إشبيلية.

لم ينطق.

- أنت لا تصدقي.

- بصراحة لا أصدقك.. أبو العباس هو الإسكندرية.

- اتفق معك.

- عند أول إجازة أعود إلى الإسكندرية وأدعو لك هناك، أنت تعرف ما
يحدث في المسجد الذي لم تنته منه؟

نظرت إليه في فزع. فأكمل: يتخذ أهل الإسكندرية المسجد ملاذًا في هذه
الحرب الغريبة يختبئون فيه من القنابل.

ابتسمت. مرت أيامي حتى وإن كنت أبغي أن تنتهي، ثلاث سنوات أو أربع
وأنا حبيس في معسكر فايد. لم تهذا أصابعي عن الرسم يومًا، ثم صممت
كنيسة صغيرة وطلبت من القائد البريطاني أن يسمح لنا ببنائها هنا،
فالإيطاليون يحتاجون أيضًا إلى الكنيسة، وافق. فبنيتها بيدي مع باقي

المسجونين، ولم أهدأ، بدأت في إعداد مجلة برسموم كارتون لتسلي
السجين وتضحكه أحيانًا، وأعذب لحظات السجن كانت عندما أترك الخيال
يجمع وأتذكر البحر يتمثل أمامي، فأعبر في مخيلتي. لم أتوقف روزا عن
مساعدي ولم أتوقف عن تهريب الخطابات إليها والعمل على بناء قصور
لأثرياء مصر. أجمع طاقتي لأكمل وأنا أتمنى توقف الزمن عند الماضي.

انتهت الحرب وتم الإفراج عني، خرجت كما جئت أول مرة.. بلا عمل ولا
مال ولا ولد. احتضنتني روزا باكية وعدنا إلى بيتنا في القاهرة. لم أستطع
دخول البيت، كنت كما الحيوان المفترس الذي تحرر للتو أحوم حول
المدينة طوال الليل، ولا أنام ولا أدخل حجرة، أريد أن أشعر بالاتساع من
حولي، ولا اتساع سوى اتساع البحر رحلت في الليلة نفسها إلى
الإسكندرية، ولن أبالغ لو قلت إني مرت على شطآنها من الشرق إلى الغرب
في يوم ربما نظرت من بعيد للمسجد الذي لم ينته بعد ونطقت اسمه:
أحمد..

ثم عدت إلى فيلتي في القاهرة ونمت سبعة أيام بعثت بخطاب إلى الملك
فاروق إنني أتمنى أن أكمل بناء المسجد، وأشرف لو افتتحه سمو الملك
شخصيًا.

كنت أجلس في نافذة فيلتي المطلة على أهرامات الجيزة. كل ليلة أسامر
مصمم الأهرامات وأتكلم معه. كنت أتقن الكلام مع الراحلين وأخاف الكلام
مع من حولي وجدت في صداقة من وصل بعد عناء الرحلة الكثير من
المعرفة والصفاء دارت عيني حول المكان أنظر إلى بناء لم يقو عليه الدهن
ثم أنظر إلى الشارع منتظرًا خطابًا من ابني، أو من رجال الملك، أو من
صديق قد رحل. ابتسمت وأنا أنظر إلى الأطفال يلعبون في الشارع كأنهم لا
يدركون ثمن الحرب ولا قبح البشر تلقائية الأطفال لا بد أنها تشبه صفاء

الملائكة والقديسين والأولياء.

ثم رأيته.

ليس الملك ولا البوسطجي، بل ابني عاد.

طرق الباب كأن العمر لم يمر، والقلب لم ينفطن والنفس لم تخبث. سمعت صرخات أمه وبكاءها. وتسمرت مكاني أنظر إليه وأرى نفسي في عينيه. كنت قد ينست من عودته وجلبت الروح على الفقد. وعند العودة فزعت من فقد جديد. نطقت اسمه وأغمضت عيني، ولأول مرة أدرك أن الزمن والمكان مقيدان لنا يحاصرانا كما القضبان. تحررت أنت يا أحمد قبلنا جميعًا.

جاءتني رسالة مختومة من الملك، رسالة موافقة على تكملة بناء مسجد الفرسي أبي العباس في الإسكندرية.

جلست القرفصاء أمام مسجد أبي العباس الفرسي، لم أكن أتطلع إلى المسجد بقدر ما رأيت حياتي أمام عيني تمر في سلامة وعنف مقًا. أن ترسم فهذا إبداع ولكن أن تنفذ ما رسمته على الورقة فهذه حياة. تبتت حياتي بدوائر وخطوط وزينة وكلمات مقدمة. تبتت لي أحلامي على المحك، تكاد تصبح حقيقة ولكنها تتماص مني كل حين. يتغير الحلم بتغير الحال وتتباعد الأيام ولا تستوي، بعضها يمر كعام وبعضها يمر كالثفلة الأحداق. من الصعب الحكم على حياتي وأنا لست أهلاً للأحكام، ميادين النفوس مسالك وعرة، واللهفة والولع لا يتركان القلوب في هذه الدنيا. تكلمت معهم نعم، وتكلمت مثلهم أحيانًا. كانوا صحة وعشرة.

مسجد لم أنتهِ منه، وآخر بجانبه دفن فيه البوصيري، ومسجد دفن فيه
ياقوت العرش. لم أظن ولو لمرة حتى وأنا شاب أن هؤلاء ماتوا وما تبقى
منهم رفات؛ لأنهم كلوا دوماً بالنسبة لي رفقاء طريق، أصدقاء نتعاطب
أحياناً، يتدلل بعضنا على بعض، نضحك كثيراً ونتناقش ونحكي. حكينا
كثيراً عن حيوات عشناها، وأخريات تمنيناها. حكينا عن الوهم والقرب، عن
التعلق والصبر، عن الحروب والبشر، وعن الحب. في بلادنا يا كريستينا
لنجل الحب بين الرجل والمرأة، ولكن الحب أعمق وأوسع. تعلمت أنا نعرف
المشاعر فنحددها، بينما الحرية هي سر الوجود. لو غصنا في الأشياء
وأدركنا عجز لغتنا عن التعبير ينفك القيد.

جلست في ولع أعد الساعات حتى افتتح مسجد أبي العباس، ويومها
واجهته. كان يتكلم معي منذ زمن ولكنني أبداً لم أذهب إلى حيثما ينظر.

ابتسم لي الملك فاروق وكان ودوداً معي ثم حياني بالإيطالية فحييته
بالعربية. نظر حوله ثم رفع رقبته إلى السقف فالتشر النور بين حايا
الألوان، وتشكلت الأشكال على صحن المسجد. كان زجاج السماء يفيض
بين جوانبه، ومشكاوات الخير تنسكب من خلجاته..

قال الملك بالإيطالية: يعجبني النور المتسع في الساحة.

تمتت بالعربية وسمعتني: أتمنى أن يعجب أبا العباس الفرنسي أيضاً.

ابتسم في شيء من الدهشة، شيء من الإعجاب، ثم قال: تتقن العربية
أفضل من إتقاني للإيطالية.

ربما ظن حينها أنني فقدت عقلي أو أنني استغرقت في عملي فنسيت من
معنا ومن ابتعد فهو لم يعلق. كتبت الجرائد وتكلم الناس عن أكبر مسجد

في الإسكندرية، تكلف مائة وثمانية وثلاثين ألف جنيه. افتتحه الملك
المعظم فاروق الأول. انتهت الزيارة وكلي فخر بصنعي. خرجت وراء الملك
في احترام ثم عدت ليلاً إلى المكان نفسه أمسك بالأعمدة نفسها، في نفس
الليلة نفسها ..

نظر إلي الحارس في ريبة فقلت في فخر: هذا مسجدي أنا صنعته. ألا
تتذكر زيارة الملك اليوم؟ كنت معه.

رحب بي في شيء من التردد ثم تركني وخرج. هذا ما كنت أبغي، أن أبقى
مع أبي العباس وحدي.

قلت لأبي العباس في تلقائية: يا أحمد.. ترى أين نلتقي في المرات
القادمة؟ لا، لا تخبرني. كلني أعرف. مرحباً بالفرسي بين أمواج البحر
ورذاذ الإسكندرية وتشققات المباني القديمة. يتردد اسمك كل دقيقة حولي
فأصمت. لو قلت أنت صديقي يظنون أنني فقدت عقلي، ولو قلت إنني أتكلم
معك يظنون أنني فقدت لساني. تعال لأصافحك وأريت على كتفك وأخبرك
بما فعلت بي الأيام يا أخي.

نظرت عيني إلى الأعمدة، ستة عشر عامًا وأنا أتبعها وأجليها كأنها نفسي،
ستة عشر عمودًا كلني اختصت كل عام بعمود. جئت بهم من بلادي أنا
ولو استطعت لجئت بهم من بلاد أحمد الفرسي، ولكنني أعرف إيطاليا أكثر
من مورسيا هذه الأيام. صنعت الشكل المثمن لأحرر أطراف الأعمدة، لا
أحب السجن. قالوا لي سجن الإنجليز أكثر رحمة، ألا تعرف ماذا حدث
للإيطاليين في أمريكا؟ بل الأسوأ ما حدث من الألمان لليهود. فلم تنذر من
السجن ثلاثة أو أربعة أعوام في معسكر فايد؟ السجن بالنسبة لي هو
الحدود الضيقة التي طالما حاولت التخلص منها. سافرت وغامرت، درست
ورسمت بحثًا عن الحرية من هذا الهيكل الضيق، ثم عندما بلغت الأربعين

يلقون بي بين أربعة أضلاع بلا فكاك ولا أمل في الخروج. وحدي وكنت
أتحاشى وحدتي منذ الطفولة. أتعرف يا أحمد.. لا أحب الأضلاع الأربعة،
تخيفني كما الدنيا. لا بأس.. كنت أحكي لك يا أحمد.. يا أبا العباس القرمي
عن أعمدة مسجدك، هل أعجبتك؟

انظر هنا يا أبا العباس إلى حيث نظر الملك، ولكنك لا تأبه بالملوك، أعرف،
أنا لست مثلك، أصاب الإطاراء نفسي حتى وأنا أقرأ عنك وأعرفك.. انظر
إلى السقف، هذا السقف صنعته وأنت في خاطري يا شيخ. سقف يتوسطه
قبة متممة الأضلاع قائمة على ثمانية أعمدة من الجرانيت. هل تدري لماذا؟
لأنك تحب المباني المتممة الأضلاع كما الفناء الذي كنت تقضي فيه أيامك.
أعرف عنك كل شيء.

وفي كل جلاب من جوانبها الثمانية ثلاث كوى، نوافذ محشوة بالزجاج
الملون على رسوم وأشكال، فعند وقوع الشمس عليها ينتشر النور وينعكس
على صحن الجامع. الأضلاع كثيرة والألوان مختلفة. أردت أن أعكس
حريتك التي اكتسبتها وأن أروم إلى الخروج من سجنى بالنور الطلغي. فلا
شيء يحرر مثل النور، به تنعكس الدنيا على الآخرة والسماء على الأرض
والراحل على الباقي، ولكن العين خلانة يا أبا العباس، ألم يعطك شيخك
هذا؟ يا أحمد.. ترى متى تتكلم معي؟ وصلتني رسائل وأصحابك أعرفهم
كما أعرف أمي وزوجتي وابني. عاد أيسلندرو حيا يا أحمد لا تقلق، ولكنك
تعرف أكيد، وفتح الله علي بالعمل مستشارا لوزارة الأوقاف.

انظر إلى قبة السقف يحيط بها أربع قباب، لكل قبة سقفان، أحدهما
خارجي وآخر داخلي، وقُطر دائرته مبعة أمتار ونصف. هنا في الغرب القبة
التي تمكث أنت تحتها، أنت ومحمد وأحمد ولداك. هنا همست لي أنك تحب
النور والحربة قلتها لي أول مرة من أكثر من مئة عشر عامًا، ولكنني لم

ألاحظ حينها ولم أسمع، ماذا كنت تقول لأصحابك؟

نحن إذا أننا مريد له شيء من الدنيا لا نقول له: اخرج عن دنياك وتعال، ولكن ندعه حتى تترسخ فيه أنوار المعرفة، فيكون هو الخارج عن الدنيا بنفسه. مثل ذلك مثل قوم ركبوا سفينة فقال لهم رئيسها: غذا تهب ريح شديدة لا ينجيكم منها إلا أن ترموا بعض أمتعتكم، فارموا بها الآن، فلا يسمع أحد قوله. فإذا هبت العواصف، كان الكيس من يرمي متاعه بنفسه، كذلك إذا هبت عواصف اليقين يكون المريد هو الخارج عن الدنيا بنفسه. ترى أي عواصف تقصد؟ مجني أم حيرتي أم فزعي على كل ما صنعت وجمعت؟ أم شكى في مصير ولدي؟ فقدت أنت الولد وصبرت، سلكت ميادين نفسك يا أحمد عمرا أو دهرا..

أما المحراب فأريد أن أصنعه من الجرانيت المصري، هنا في مصر أحببت عمارة المماليك، وهنا عرفت ما وراء الحجر والحائط، الروح القوية الصادقة دوماً تتسع مهما تحملت من نفاق ومحن وغبن. للمحراب عمودان نحتا من الجرانيت المصري، وفوق رأس كل عمودين كتب الخطاط في مربع بالقلم الكوفي المتداخل اسم محمد أربع مرات. كما كتب الخطاط في الزاويتين العلويتين من المحراب في مربعين عن اليمين وعن اليسار لا إله إلا الله محمد رسول الله. هكذا هي مساجد المماليك من قبل، وهذا هو العصر الذي تعرفه، ولكن حكايتك لا عصر لها يا أبا العباس. كتب الخطاط بين هذين المربعين في رأس المحراب بالخط الكوفي: (فَلَنُؤَلِّقَ قَبْلَهُ تَرْصَاهَا)، كما كتب في نصف الدائرة قبالة وجه الإمام (فَنَانَتُهُ الْقَلَابَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحْرَابِ).

زوجتي تحكي لي عن قدامة ما يصنعه المعماري للعبادة. تذهب إلى كنيسة «سان جوزيف بالقاهرة» تحكي لي عن الألوان والأشكال، ما تراه

العين وهي بين يدي الله غير ما تراه وهي غائصة في الأشياء. لكل شكل من هذه الأشكال انعكاس على البصر يختلف باختلاف عمق البصيرة. ما تراه اليوم وأنت تعبد الأشياء غير ما تراه غداً وأنت تبحث وراء الأشياء، وما تراه بعد أن تبحث وراء الأشياء غير ما تراه بعد أن تعرف الله بالله. هكذا تقول يا أبا العباس.

تعال نصعد معاً إلى منذنتك بينما تسبح أنت في وميض الطمانينة أذكر أنا الماضي ويبقى الفناء يسيطر على الذاكرة. كنت تصعد إليه لاهثاً تارة يائساً كثيراً. المنذنة من أربعة أدوار الدور الأول مربع الشكل، والثاني مئمن الشكل كما فنار الإسكندرية فلطالما حكيت لي عليه يا أبا العباس، كنت تقف في الطابق الثاني تتأمل الأضلاع؛ هل تتذكر؟ ثم تتسلق إلى أعلى لتنعكس المرأة العملاقة على نفسك. أعرف أنك تريد شكلاً مئمناً دوماً يعطيك الحربة التي كنت تبغها طوال عمرك.

تذكر أنك حملت رواية ماريو وأبو العباس حصرياً ومجاناً من على موقع مكتبة بيت الحصریات أكبر مكتبة للكتب والروایات الحصریة والممیزة والجديدة والنادرة.

يا أبا العباس.. أنا ماريو رومي.. من بنى لك ضريحك هذه المرة. ترى هل سأدفن معك كما فعل الشيخ زين الدين بن قطان كبير تجار الإسكندرية؟ بنى المسجد ليكون بجوارك. وما أهمية الجوار لو لم يصف القلب؟ لا بأس أنت تعرف.. ترى متى أسمع صوتك أنت وأصحابك؟ أصبحتم عشرة وصحة. أكملوا الحكاية.. ماذا حدث بعد انتقال الشيخ؟ تعال يا بن عطاء الله، وأنت يا بوصيري، وأنت يا ياقوت.. أنتظركم..

الوصول الأول لماريو

حكى ابن عطاء الله لماريو

هل تتذكر يا ماريو؟ أمرني شيخي بالتدريس في القاهرة بعض الوقت..
ويومًا بعد الدرس لاح بخاطري أن أذهب إلى زاوية الشيخ صفي الدين بن
أبي المنصور بالقاهرة. كنت أسجد لربي ثم قبض الحزن على صدري،
ورددت كلمات شيخي أبي العباس القرمي: لا يدخل على الله إلا من باين؛
إما من باب الفناء الأكبر وهو الموت الطبيعي، وإما من باب الفناء الذي
تعنيه هذه الطائفة كان الإنسان بعد أن لم يكن، وميفنى بعد أن كان، ومن
كلا طرفيه عدم، فهو عدم.

كأنني أراه أمامي يبتعد عن عيني، ما كذب الفؤاد ما رأى. قبل أن أرفع
رأسي من السجود، سمعت كلام رجلين يقولان: لقد مات رجل كبير اليوم.
قلت وأنا أعرف أو أكاد: من هو؟

- الشيخ أبو العباس القرمي.

رددت ودمعة تسقط رغما عني: تدخل على ربك يا شيخي - كما تمنيت -
من باب الفناء الأكبر.

نظر إلي الرجل قللاً: هل تعرفه؟ أنت مكندري. أليس كذلك؟ تعرف شيخ
الإسكندرية؟

- هو شيخي.

تعرف يا ماريو إن لله عبادة كلما اشتدت ظلمة الوقت قويت أنوار قلوبهم.
أبو العباس منهم. انتشرت كلماته بين أحناء الفؤاد، فأعطاني الله الكلمة،
كُتبت ودرست في الفقه والصوفية كما أراد وكما نصحتني. هاجمني الشيخ

تقي الدين وبعد أعوام حدث له ما حدث من قبل وتم فضحه في الإسكندرية، فلم أتشف، تعلمت الدرس كله يعرف ما يحدث للبشر أو ربما هي حكاية واحدة لكل البشر تختلف كما المياه -من منابع مختلفة- ولكنها تبقى مياهًا. جاملي في الإسكندرية السلطان المملوكي المنصور حسام لاجين يريد نصيحتي، فنصحته بالشكر والعدل والرحمة، ولم أحاول رؤيته مرة أخرى ولا سمعت لرؤية أي ملك سوى ملك الملوك. فاض لساني وأكرمني وفاض القلم وتجمعت الكلمات وتآزرت بمعرفة تأتي من الله وليس من غيره. فلتعلم يا ماريو أن الله إذا أفناك عنك أبقاك به، فالفناء دهليز البقاء.

كنت قد كتبت شعراً عن شيخي لم أزل أرده كلما دخل علي أحد الشيوخ أو التلاميذ. مكث أبو العباس في بلدتي في الإسكندرية أكثر من اثنين وأربعين عامًا لم يسع فيها إلى رؤية متولي الإسكندرية ولا أي رجل ذي جاه من كل رباء وكل فتنة.. تعلمت منه الكثير.

يا أبا العباس تتضائل كل الإنجازات والحيوات أمام صفائك. لم تنزل تفتح أبواب المعرفة وتنسجم من بين أضلعك أنوار الجلال والبهاء. هنا يمكث ابنك ياقوت العرش يطمئن النفوس ويهذبها، يدل الناس إلى الراحة والرضا. ها هنا أسمع قصيدة من الجنة للبوصيري مستتردد إلى انتهاء الزمان ولقاء المحبوب. هؤلاء دفعت بهم إلى اليقين ففتح الله عليهم بالكلمة والسعادة والاطمئنان. أتدري ماذا فعلت بي يا مُعلمي؟ انطلقت الكلمات من حلقي بلا تنظيم معين ولا نظم كتبت عن معرفة الله وعن الرضا وعن الحب والتوكل تعلمت منك يا شيخ أن الحقائق مطوية في العباد، وأن الظاهر بسيط والخفي أعماق وأجمل ماكتب عنك لأن ميرتك لا بد أن تبقى، ولم يكن لديك وقت لتكتب عن نفسك أو لنفسك. كنت شيخي وشيخك هو الذي أخرجك من سجن الهوى، ودخل بك على المولى. أنت يا

أبا العباس القرمي من اقتبسنا من أنواره، وملكنا على نهج آثاره، أنت من
غرمت غراس المعرفة في قلوبنا، فأينعت ثمراتها وفاحت زهراتها.
العارفون مثلك يا سيدي هم من أدخلهم إليه مدخل صدق بالفناء عمن
سواه، وأخرجهم للخليقة مخرج صدق، هم باقون بنوره وسناه؛ فهم برازخ
الأنوار ومعادن الأسرار وصلهم لما قطعهم، وفرقهم لما جمعهم، وغيبهم
عنهم، وعلى أسرارهم أطلعهم، فلو قسم نور واحد منهم على أهل الأرض
لوسعهم.

حكى محمد البوصيري لما ريو

أنهمرت الدموع من عيني أيا ما حتى ظننت زوجتي أنني فقدت عقلي.
الموت قريب ولكن موت الأعبة يرج الروح رجاء. كان كاللؤلؤ المكنون أحمد،
وكان أصغر مني، واقترب الأجل وتفشى الحزن، كنت أردد كلماته أعواماً
وأنا أحاول أن أتخلى ولا أستطيع، ثم انتقل الصديق والمعلم فالقيت بكل
متاعبي إلى عرض البحر بنفسي، هبت رياح اليقين وأضاء بنوره وجلا
القلب. سمعت علشة وهي تنادي: محمد.. ماذا بك؟

ثم صرخت وناذت على الناس مستغيثة تقول: أصاب زوجي الفالج، لم يعد
يستطيع تحريك نصف جسده، تساقطت شفتيه وارتخت يده وذراعه.

التف حولي الناس وترددت الكلمات بين شفتي منتظمة كما الدر تدفق
الفؤاد بالكلمة والزممت أفكاري بمدح خير البرية محمد:

خدمته بمديح أستقيل به

ذنوب عمر مضى في الشعر والخدم

ما مضى ذهب وانتهى وما سيبقى مني هو الصدق. هكذا قال أبو العباس..
الأنوار مطايا القلوب.. وتبقى الودائع مطوية في العباد حتى تجيء أوقاتها.
ألزمت نفسي بالصوفية عملاً وعلماً وليس علماً فقط. قررت الترك فأعلنني
الله. لجأت إليه أنا أيضاً اليوم بعجز جسدي ونفسي.

فما لعينيك إن قلت اكفها همما
وما لقلبك إن قلت استفق يهم
نعم مري طيف من أهوى فأرقني
والحب يعترض اللذات بالألم
يا لاثمي في الهوى العذري معذرة
منى إليك ولو أنصفت لم تلم

كنت أفكر في شوقي إلى الحب ولاح بأفكاري حب الله فتعلمكني، ندمت
على عمر ضاع في مدح الأنعام بلا فائدة، دينار أهلكته على مأكّل وملبس لا
وجود لهما، فاليين كما الدنيا. انبتقت الأحرف من رأسي حتى واللسان
مربوط، وتجمدت الدموع في مقلتي، تكلمت مع الله ومع نبيه. همست في
خفوت: لعل رحمة ربي حين يقسمها تأتي على حسب العصيان في القسم.
كنت أمدح خير الخلق كلهم اليوم محمداً، نظمت كلمات في سيرته وجه:

ومنذ ألزمت أفكاري مداحه
وجدته لخلاصي خير ملتزم
يا أكرم الخلق ما لي من الود به
مواك عند حدوث الحادث العمم

ثم رددت في خفوت مخاطبًا حبيبي الموجود:

والطف بعبك في الدارين إن له

صبرًا متى تدعه الأهوال ينهزم

عند الفجر قمت من مكاني أصلي ناسيًا ما قد كان، خرجت بعد أن توضأت
كأنني حلمت به -محمد رسول الله- وكأنه ألقى عليّ بريقه، وكأنني شفيت
من الفالج. صاحت زوجتي: أنت تمشي يا محمد.. يا بوصيري.

ماذا أحكي لك يا أبا العباس؟ هل أخبرك أنك كنت على حق، وأن النور خرج
من بين أنحائي كما الندى؟ سمعت قصيدتي يرددنها الناس من حولي،
يهمسون بأنها كلمات من الجنة، فتح ونور. أنا العبد الفقير يكتب هذا يا أبا
العباس، كأنني أقيت بحملي إلى عرض البحر يا مرسي، وأصبحت صالحًا
لأن أحب حبًا حقيقيًا:

مولاي صل وسلم دالما أبدًا

على حبيبك خير الخلق كلهم

حكى ياقوت العرش لماريو

نجمة خلتون.. دخلت علي مسجد العطارين بعد سنوات من انتقال الشيخ
أبي العباس، انتظرت بعد أن انتهيت من درسي ثم قالت: ظننت أن حبه
سيقتلع من الأحشاء بموته، ولكنه باقٍ كما أشجار الزيتون.

قلت في هدوء وأنا أدعوها للجلوس: هو حب روحاني كما قال الشيخ
الأكبر

- نذب وأدفع ثمنه.

- بل نفحات من الجنة، غرس من الخير هو حرف في قصيدة كتبها الخالق البديع، فلا تتعلقي بالحرف وتُنسي من كتبه ألم تسالي نفسك لِمَ يبقى حب سيدي في قلبك لا يفنى باللهو مع اللاهين؟ هو حب حقيقي يا سيدتي.. ولكن المنيع حجب عنك لشدة كثافة الأشياء حولك كما الغش في النظر اغسلي عينيك لتري.. صلي معنا واذكري الله؛ فذكر الله أكبر لا تذكره خلافة أو غاضبة بل لاجئة مضطرة.

- حاول معي أحمد ولم يفلح.. هل ستفلح أنت يا عبد حبشي أسود أعجمي.

ابتسمت: ربالي أستاذي، يقول لكل شيء وقت وميعاد. يضع مره في أضعف خلقه فتبقى الودائع مطوية في العباد حتى تجيء أوقاتها. كل منا يبحث عنه وكل منا يسعى إليه، ولكن أبدا لا نتبع المسلك نفسه؛ لكل منا مسلك له مختلف عن أخيه. هل يمكن أن تخبريني ماذا وجدت في الشيخ أبي العباس ليملك قلبك كل هذه السنين؟

راقها الحديث عنه كما راقها الكلام مع الحبشي، قالت وهي تنظر إلي: عيناك بهما ثبات يريح الحيرة، وصوتك كما نبات الجنة.. ثم قالت وهي تمسك بقلبها: أحمد، حاله لا أعرف مثله، وحلمه وصبره. أمب أمامه فلا يكل له طرف، أغضب فلا يفزع، أذب فلا يفضح. لا قسوة في قلبه ولا خداع. هو.. ردد ياقوت وهو ينظر إليها: نعم هو..

- تقصد أحمد؟

- لكنك لا تصفين شيخي، تصفينه هو. شيخي يحاول أن يتصف بصفاته ولكنه إنسان، فلم تبحثين عن الصورة ولا تبغين الأصل؟ تكل عيناك من

ضوء الشمس فتكتفين بأشباح الظلام وظلال الوهم. ولو تركت الضوء
يدخل لغمرك الحنان. بعضنا يريد حلاً ملموساً كما اليد والفم، قبلة
يستنشق بها ري الحبيب، ولكن القبلة تنتهي والعناق لا يدوم، وكل ما دونه
ليس بموصول. الشوق شوق الأرواح وهذا لا يسكن بلقاء قصير بل
بالحضور والمعاناة.

- كلماتك صعبة على من هي مثلي.

- جئت إليّ لأنك تبحثين ومن يبحث يجد. هو من تبحثين عنه، من لا
يفضح ولا يقسو وحلمه يتسع ورحمته أوسع من العالمين.

نظرت إليّ برهة ثم قالت: ماذا وجد فيك الشيخ يا ترى ليزوجك ابنته ولا
يزوجها من سلطان مصر؟

ابتسمت فقالت: رأيت في لثامك الصدق يتلألأ كما حصيلات الحمام.

انحنيت أضع الماء للكلاب الضالة، فاجتمعت حولي كلها في مكينة وأمل
وأمان. نظرت إليّ في فزع ثم قالت: أنتم قوم لا تعرفهم.. لستم مثلنا.

- المعرفة تأتي بإمداده، ادعي له بأن يضم نار قلبك، هو يستطيع، وتعالى
إلى الدرر يا سيدتي فقد أوصاني عليك الشيخ.

- أوصاك.. كيف؟

- قال يا ياقوت عندما تلتقي نجمة خلتون إليك أحسن استقبالها فقلبها
مجبول على الصفاء، فإذا هبت العواصف كان الطيب من يرمى متاعه
بنفسه. كأنني أرى عاصفتك قد هبت يا سيدتي.

- هو قال هذا عني أنا؟

- نعم قال هذا.

صمتت تبتلع الحزن ثم قالت: لا تطلب مني الامتناع عن الخمر.

- من يأتي إلى الله بقلب مكسور يجد من يجبره.

- ولا تسأل عما لا يعنك. أفعّل كل المحارم يا فتى. أما زلت تريدني في درمك؟

نفضت يدي من تراب الوعاء الذي وضعته أمام الكلاب ثم قلت: هل لديك طعام لجرو وليد؟ ماتت أمه أمس.

نظرت إليّ في فزع ثم قالت: إلام تروم؟ أقول لك أفعّل كل الذنوب.

- تأتين إلى درسي على أن تطعمي الحيوانات معي بعد الدرس، وهذا الجرو لك.

قرب منها الكلب الحائر فابتعدت متقرزة، فقال: لا تخافي أحمليه واعتني به.. سأنتظرك غدا.

أحكمت زوجتي خمارها وهي تنظر إلى نجمة خاتون التي تضع اللبن للجرو الصغير وتضحك ثم ترتدي الخمار لتحضر درس ياقوت العرش.. أنا؟

استغفرت ربها وانتظرتني حتى انتهيت ثم قالت وهي تكتفم غيرتها: نجمة خاتون مرة أخرى؟ هل هامت بك يا ياقوت؟

نظرت إليها ثم انفجرت في الضحك وقلت: لا بالطبع لم تفعل.

قالت في صدق: ولكن كل من تراك لا بد أن تهيم بك يا شيخ.

- تهيم بالبعد الأسود بشفراته أم بغلظة شفثيه؟

مرت بكفها على وجنتي: تهيم بأجمل رجل في العالمين وأفضل زوج في الديار المصرية.

- ماصلي وأستغفر اليوم حتى لا يصيبني الكبر.

- ونجمة خلتون؟ ماذا تريد منك؟

- والدك يقول: عندما تهب الرياح يتخلص كل إنسان من متاعه بيده. هبت رياحها أو كانت..

- لا أثق بها.

- ريك أرحم مني ومنك. ندعو لها ونتركه هو يتصرف في عبادته.

رزقني الله بنتين من بهجة وكلاتا نعم الرزق. أما زوجة شيخي فلها هدف اليوم. أمسكت بيدها الهفيفة، ضغطت بكل ما تبقى من قوة الجسد، فرقت حملها بيني وبين العصا، انطوى الظهر على قلب صحيح لا يصيبه مرض. التفتت إلي قلالة: يا قوت خذني إلى أحمد.

- أمرك سيدتي.

قالت بهجة وهي تضع الفاكهة أمام أمها: لا تطلبين شيئاً إلا منه يا أمي.. كأنه هو ابنك وأنا زوجة ابنك. يا قوت يصيد القلوب كلها؛ قلب أبي ثم قلب أمي. أغار منه يا أمي..

كنمت ابتسامتي ثم شددت يد لطيفة زوجة شيخي في رفق إلى قبر زوجها في شرق الإسكندرية.

توقفت تلهث وأغمضت عينيها كأنها تحيك شركا للذكريات لتتصيدا بين مقلتيها، نعتت ثم أفاقت، بللت شفتيها ثم فتحت عينيها في يقظة غير مسبوقة كأنها شممت رائحة المرأة التي تجلس على القبر وتبكي. طبقت نجمة خلتون ذراعيها وتساقطت الدموع ثم نظرت إلى جاريبتها وقالت: أعطي الفقراء والمساكين الطعام الذي طهوته بنفسي، أريد لكل الإسكندرية أن تأكل اليوم وتذكر أحمد..

رفعت لطيفة حاجبا وقبضت على كفها ثم قالت: هل تلتني هنا كثيرا يا ياقوت؟

لم أجب. فعاودت السؤال. قلت في رفق: سيدتي -هداها الله- توزع الطعام على الفقراء كل جمعة.

- لم تخبرني من قبل.

- يأتي الكثيرون لزيارة سيدي يا سيدتي. كلهم ينطقون اسمه كأنه صديق حميم، أحمد، يكون عليه كأنه أب أو أم أو ابن، ثم يتوددون إليه لأنه أحب ربه، يهمسون وأسمعهم: بحبك لأبي العباس فك كرينا.. أبو العباس كان قريبا من القلوب، هو إنسان مثلهم، أدرك كيف يصل إلى الحضرة ويستقر عند ربه، فكل من حوله يحبه. هي واحدة من ألف ألف.

نطقت أحرف اسمه في صمت. بقيت الآماق جامدة، لا دموع على من يسكن الروح. ستتبعه بعد قليل، تعرف. كيف للغيرة أن تملكها في هذه السن ومع هذا الجسد الواهن؟ رددت استغفارا ثم رفعت عينيها لعيني نجمة خلتون. أحضت نجمة خلتون رأسها ثم مسحت دموعها. توقف الزمان برهة، وياقوت ينظر إلى أرملة أبيه ومعلمه، ثابته بين الشنون والأحوال، ترمق نجمة خلتون بنظرة غيرة ثم نظرة إعجاب وتقدير. أحضت رأسها مرحة بنجمة خلتون، وفاضت عليها بنظرة إعجاب وتشجيع. ما الحب إلا

ثبتت وود. انتشر الضوء حولهما، مر كما العمر على حين غرة. ثم تلاشى ولم يبق سواه، وحده الموجود، وحده البديع. برح الجمال وتخلل جبل الوريد. بلل عطش الفراق والمرض، فرددت: غريبتك في الدنيا والآخرة ووطنك معه هو. هكذا كنت تردد.. يا أبا العباس.

* * * * *

الوصول الأخير لماريو

صمتت كريستينا بعض الوقت ثم قالت: نظرت حينها لماريو وهو يحكي لي ثم قلت: ثم ماذا؟ ماذا حدث ليلاً بعد افتتاح المسجد؟ تكلمت مع أصحابه؟

تكلمت معهم ثم حضر بنفسه وحكى لي.

بلعت ربقي ثم قلت: تقصد أبا العباس الفرسي.

- أبو العباس وكل من في الميدان، حكيما ساعات، أنسوا إلي وأنست إليهم. كان يومًا لا يمكن نسياله.

لم أنطق.

اقترب مني بوجهه حتى التقت أعيننا ثم قال: هل تصدقينني يا كريستينا؟ قلت بلا تفكير: أصدقك طبعا.. لا يوجد أحد مثل ماريو رومي.

فردد مرة أخرى: صحت بصوت مسموع والجميع نائم: يا أحمد.. لم يتركني أمام باب، خرج إلي في بشاشة، صافحني ثم جلس أمامي، فناديت يا قوت العرش والبوصيري، ثم صحت بأعلى صوت على ابن عطاء الله أن يأتي، فجاء مهرولاً من القاهرة. التفوا حولي جميعاً، تسامروا وتكلمنا حتى صلاة

الفجر..حكوا لي ما حكيت لك يا كريستينا.

نظرت إليه برهة، شبكت أصابعي ثم قلت: أنت أعظم مهندس معماري في العالم، أؤكد لك..

لم يبتسم ولم يجب، بعد هنيهة قال: ولو كنت أبا العباس كنت ماقطب حاجبي وأصاب بالغم ولكني لا أرقى إليه، أشعر بالفبطة شئت أم أبيت. صممت ملتين وميتين مسجداً ولا يوجد واحد يشبه الآخر. هذا شيء أفتخر به.

حاولت الاقتراب منه ولا أدري لو لاحظ أم لا. ثم نظرت إلى وجهه وملامحه وقلت: ما الذي ندمت عليه؟

سكت، فأعدت السؤال، فقال مسرعاً: ندمت على قلة صبري ورغبتني في الوصول سريعاً كأن نقطة الوصول ثابتة لا تتغير مهما هرولت إليها، لا بد أن تصلي في ميعاد محدد ليس قبله ولا بعده وبعد الوصول؟ لا يوجد شيء كان لا بد من الامتناع بالرحلة.. السفر يفقدنا التركيز أحياناً، فنتوه بين الأسواق بحثاً عن الأشياء، ثم ندرك أن الرحلة أوشكت على الانتهاء فنهرول للحاق بالركب. ثم ماذا؟ نصل. وبعد الوصول؟

- لم يدخل اليأس قلبك يا معلمي.. أبداً.

- ولم يدخل قلب أبي العباس.

- من هو بالنسبة لك؟

- رفيق السفر قابلته وسط الرحلة فأرشدني إلى مسالك لم أدر بوجودها داخل النفس ربما.

ساد الصمت وأنا أراقبه وأتمنى فقط أن أقترب، نظرت إلى عينه المغلقة،

فقال كأنه قرأ أفكارى: انتهت مهمتى فلم يعد لى حاجة لهذه العين. يحدث أحيانا أن تفقدى إحدى الحواس، ولو حدث بعد أن تجودى بما لديك يكون أفضل.

قلت: ألا تتذمر؟ تشكو؟ تنور.. أعنى عمك يعتمد على عينيك..

ابتسم وقال: لا. لا أفعل.

ثم قلت وأنا أمد يدي وأضع أصابعى على أصابعه: أحبك.

بقي ساكنا فاقتربت أكثر استنشقت رائحته وقبلت وجنته. ابتسم ربما، لا أدري كنت أنصبب خجلا وكان تائها. أبعد يده فى بطء ثم قال: لو قلت لك أنت ما زلت صغيرة لن تسمعى، ولو قلت لك إننى متزوج لن تفهمى.

ضحكت فى تهكم قلالة: كأني أنا نجمة خلتون.. تعاطفت معها لو تعلم.

- أعلم.

- كأنك تعرف.

ساد الصمت وارتجفت فاحتضنت نفسى ثم قلت: التقى مصيرك بمصيره، وأنا؟

قال فى بطء: إما أن تختارى أن تكونى مشكاة تنير طبقات نفسك أو تنطفى شمعتك.

- توقعت أن.. ربما ..

- أين مستذهبين من هنا؟

- لا أدري، مارحل هذا أكيد. رحل كل أهلى إلى المهجر.

فقال: ووطنك، أين؟

- هنا في الإسكندرية على ما أعتقد. هذه مدينة تمكث في القلب مهما تباعدت الأجساد. ولكن علي تركها، حان موعد الرحيل.

نظرت إليه فجأة ثم قلت: مرمي.. لم تحك لي ماذا حدث له. حارس معسكر فايد.

ابتسم في حين ثم قال: مرمي جاء إلي بعد أعوام، أصبحت أعمل مستشارًا لوزارة الأوقاف، ثم سافرت إلى السعودية كما تعرفين، واشتركت في تجديد الحرم النبوي، مر الزمن واقترب الوصول جامني بعد أعوام هنا عند مسجد أبي العباس الفرمي جاء معه ولد في الثامنة، صافحني في حماس ثم أمر ابنه أن يعانقني ثم قال: هل تتذكرني؟ أنا مرمي يا خواجه.

قلت: وكيف أنساك؟

فقال في شيء من الذنب: أولاً أريد أن أشرح لك. لا تغضب من أجل محاولة الهروب التي لم تكتمل، لم يكن بيدي شيء.

نظرت إليه في شيء من التهكم ثم قلت: لم ساعدتني وأنت تعرف أن الأمل مفقود؟

تذكر أنك حملت رواية ماريو وأبو العباس حصريا ومجلانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة والنادرة.

فقال بلا تردد: كان لا بد لك أن تتحرر حتى ولو ساعة لتستطيع أن تحمل هم الأيام. ليس من الأفضل محاولة الهرب ورؤية البحر ثم العودة إلى المعسكر؟ فكر في الأمر؟ كنت حراً ساعة وهذا نعمة. ساعدتك أكبر

مساعدة. ثم من كان يأتي لك بالأوراق؟ أنا جئت اليوم لأن ابني صنع لك بنفسه هدية.

مد الطفل يده بمركب صغير من الخشب بشراع من الورق الأبيض، أمسكت المركب من يده، فقال مرمي: حكيت له عنك فصنعها لك حتى تتمكن من عبور البحر المرة القادمة عندما يسجنك الإنجليز وتهرب.

ضحكت حينها وكانني سمعته يقول، مرمي الحارس أو أبو العباس الفرمي لا أدري: يا سيدي لا تبتئس لكل سفر وصول، ربما تختلف مرعتنا في السير ولتخذ دروبًا متفرقة، ولكن لا بد من الوصول وعند الوصول نكتشف أنه درب واحد حتى ولو تعددت الصور. ولكن لا سفر دون عبور البحر. هكذا علمتني الإسكندرية.

ثم رحل الحارس ولم أراه مرة أخرى.

قلت حينها وعيناي لا تتركان عينيه: لا سفر دون عبور بحر. ابتلعت الدموع ثم نطقت اسمه: ماريو..

قال: يا كريستينا الغربة مكتوبة علينا لا محالة، ولكن لا تبتئسي، هي أرض لا أكثر لا شيء يخيف في الطين يا كريستينا. لا شيء.

لم أرماريو رومي مرة أخرى، مات بعد لقائنا بشهور. كنت غاضبة ثم مشتاقة وعند موته كنت ثلاثة. تزوجت وأنجبت، وظلقت وعملت، واستمر الوجد باقيًا.

كنت أستمع إلى كريستينا طوال الرحلة إلى أستراليا. ضحكت، ارتجفت ونأهت، نامت واستيقظت، غفلت وتنهت. هذه حكاية لا تنتهي ولم تبدأ

بعد.. سلكتنا دروبًا وتركنا دروبًا لضعف الساعي والسامع، وقلة حيلة الحاكي والحكاية. هذا عجزٌ يشي بالقدرة، وقتلٌ يشي بالحياة. وهذا حب كامن كما النبات مطوي بين طيات الدهر ينتظر مرور السحاب.

لا أدري لم بكت كريستينا عند وصول الطائرة. رافقتها وأنا أمسك بيدها الضعيفة إلى صالة الوصول. أمسكت بيدي في قوة كأنها تريد هذه الصلة معي. وكأنني آخر البشر على الأرض، وآخر من ستري. بحثنا معا عن الأوراق في حقيبة السفر. تمتت بكلمات بالإيطالية، ونددت أشعارًا قديمة لم أفهمها حينها، وبعد حين عرفت أنها تقول: أعرف مدينة تمتلئ كل يوم بنور الشمس. ثم نظرت إليّ في عجز والكثير من الحيرة كأنها تريدني أن أؤكد لها وجود الأوراق.. ولم نجدها.. وجدنا الصورة نعم.. صورة لشيخ بلحية مهندمة مرسومة بالقلم الرصاص، هي تقول إن من رسمها هو ماريو رومي. أعطتها لي كريستينا بعد ذلك. لكننا لم نجد أي رسائل، وجدنا حكاية من فم امرأة تنتظرها ابنتها في ضجر وهي تقول إنها مصابة بخرف الشيخوخة وتحتاج إلى أن تمكث في مستشفى فلا أحد يستطيع الاعتناء بها. استمرت كريستينا تمسك بيدي حتى وهي ترافق ابنتها إلى باب الخروج. همست في أذني: خذيني إلى الكنيسة الكاثوليكية.

نظرت إلى ابنتها فقالت دون النظر إليّ: لو عندك وقت خذها إلى هناك. تتكلم مع الملائكة. تؤمن أمي بالأشباح، أما أنا فأعرف أن حكايتها أوهام. لا بأس خذها لو استطعت.

كان لدي بضعة أيام في أستراليا وكنت أنوي أن أشتري الملابس والهدايا، ولكنني أشفقت على وحدتها فذهبت معها إلى الكنيسة. لم تترك يدي طوال الطريق هذه المرة كأنها تستغيث بي من قسوة القلوب وجفاف الخيال.. دخلت كريستينا وأضاءت شمعة ثم جلست، وضمت يديها وبدأت تصلي.

سمعت صوتها الضعيف يدعو وسمعت الإجابة حينها:
أحي قلبي بنورك، وأقمني بشهودك، وعرفني الطريق إليك.
وجاءت الإجابة:

ها أنا مرسل ملاكا أمام وجهك ليحفظك في الطريق.
تم الوصول بحمد الله أو كاد.

عني أنا

برفقة كريستينا أدركت أن البكاء أحيانا يكون على عجزنا، عن القبض
بأصابعنا على لحظات السعادة الفاتنة. كنت أظنها تبكي من أجل حبها،
ولكنها كانت تبكي مدينة استقرت في الفؤاد وابتعدت. عدت إلى مصر وأنا
أبحث عن شاعر بعينه ذكرته لي كريستينا يدعى «أونجاريتي»، يفصلني
عنه مائة عام، ولكن كلماته أصابت القلب لا محالة. مثلي عاش عشرين عامًا
في الإسكندرية، ومثلي رحل عنها بعد العشرين بقليل، ومثلي ومثل
كريستينا بحث عن أنقاض المدينة القديمة في أعماق البحر وعن بقايا
الأنار القديم وعما تبقى من العمر ترك الميناء وهو يبحث عن نفسه دون أن
يدرك أن ما يبحث عنه هو ما ترك رددت لنفسه حينها: فحتى لو تغيرت
المدينة ومكانها يبقى البحر يستعصي على البشر تطويعه.. كان أونجاريتي
يقصني بقصيدته ويقصدها قال:

أعرف مدينة تمتلئ كل يوم بنور الشمس

وكل الكون يفرح حينها

رأيت مدينتي تختفي.. تتلاشى

ولكنها وهي تتلاشى تترك لبرهة

قبضة من النور

المعلق في الهواء اللانهائي.

لم أزل أردد كلماته. تسلمت الرواية من أنفاس موصولة تنتشر من حولي، ولكنني لم أنته منها إلا وبرفتي حكايات لم أحكها. كنت أبحث كمن يقتفي أثر الماء، وكلما لاح له في الأفق ورد هرول إليه. ذهبت على الفور لزيارة مسجد أبي العباس الفرمي، فوجدت عند ضريحه الأمالي تتناثر والأمهات تمسك بأطفالها وتحكي له عن المعاناة والمرض، والأب يُسبِّح باسم الله ويجلس في صحبة الشيخ ساعة أو ساعتين، هذا حبيب يتوق إلى حبيبته، وهذا حائر يبحث عن بيت ووطن امتدت الأيدي لطعام المساكين، كان كل الدنيا منهم ولهم قرأت اسمه وأنا أعرفه، بيننا صحبة حتى وأنا لا أمتحها، وربما لا أكون أهلاً لها قط ثم تسلمت السلم إلى المسجد، نظرت إلى السقف الذي بناه ماريو. كان هنا. ماريو، وكان هنا أبو العباس، ترى هل ينتصر المكان على الزمان، أم تبقى الروح حرة خارج أي مكان وزمان؟ التقيا هنا كل في زمانه وكل بتكليف مختلف، ولكنهما طرقا أبواباً، بعضها فتح لهما وبعضها امتعص على أحدهما أو كاد. وحن لي أنا أن أطرق الباب لو امتطعت. أصبحت أبحث عن ماريو رومي وتاريخه، عن وجدان الفنان ورجفة العاشق. في بحري التقيت بلناس لم أتوقع يوماً أن ألتقي بهم، وأنا أسأل عن ماريو انفتحت لي أبواب جديدة، وحكايات لم تكن في الحسبان. كنت أفتح فمي ذهولاً مما سمعت، ومن تقلبات البشر وهجرتهم، ومن تغير الدهر وخداع الأزمنة. استلمت حكاية من حكاية، وغرقت في تفاصيل كانت تحيرني أكثر للبحث نفسه حكاية طويلة سأحكيها في حينها.

اليوم سأقضي وقتي مع ماريو وأبي العباس، أسمع صوته يرج أنحاء المكان وهو يقول: أنت المخاطب أيها الإنسان، فأصغ.

على هامش الحكى

ضريح الشيخ أبي القاسم القباري موجود في المنطقة التي خلدت اسمه في الذاكرة، منطقة القباري في الإسكندرية، ودفن معه الشيخ الشهير العز بن عبد السلام لجه الشديد للقباري.

أخرج أبو العباس اللؤلؤ والنور من قلوب أصحابه، كتب البوصيري قصيدته الشهيرة البردة التي تعتبر أشهر قصيدة مدح في العالم تتردد كل ساعة في مكان ما على الأرض. كتبت كلماتها في الماضي على المسجد النبوي. ألهمت كثيرًا من الشعراء، منهم الشاعر أحمد شوقي الذي حاكها في قصيدته نهج البردة.

وكتب ابن عطاء الله السكندري كتابه «لطائف المنن»، فسجل حياة أبي العباس الفرسي، وحياة شيخه أبي الحسن الشاذلي. ولولا كتب ابن عطاء الله السكندري لما عرفنا الكثير عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي وخليفته أبي العباس. ثم كتب ابن عطاء الله الحكم العطالية التي يعتبرها البعض من أهم الكتب الإنسانية على الإطلاق، ترجمت الحكم معظم لغات العالم.

استمر ياقوت العرش في طريق شيخه يهدي القلوب ويبعث فيها الراحة والأمل، عُرف بجه للطير والحيوان وكل المخلوقات. فأصبح ضريحه يُذكر الناس برحمة الله وجه لجميع خلقه.

أما نجمة خلتون فقد أصبحت تطبخ الطعام للفقراء بنفسها وتناجي ربها

أَيَّامًا وَأَيَّامًا.

وماريو رومي الصديق أبدع وأخرج النور من الأعماق، لم يزل مسجده
الذي بناه لأبي العباس الفرمي في الإسكندرية يعد أهم مسجد في المدينة،
يضيء ويبرق ليذكرنا بكلمات أنشدتها أبو العباس: قد تخللت مسلك الروح
مني فإذا ما نطقت كنت كلامي، إذا ما صمت كنت العليلا.

أنشد أصحاب أبي العباس الأشعار في حبه.

قال ابن عطاء الله السكندري:

ما زلت حتى طاوعتك نفوسنا

فأزلت عنها جهلها وعمائها

الله أبقى للبرية أحمدا

وأقامه فيها لكي يرعاها

هم يعلمون بأنه قطب الورى

ولكنما غلب النفوس هواها

وقال البوصيري:

شرف لشاذلة ومرمية مرت

لهما الرثامة من أجل رئيس

ما إن نسبت إليهما شيخيها

إلا جلوتهما جلاء عروس

وتفضى أهل الإسكندرية باسمه وامم مريده بقية العمر في الفرح وفي
الحزن وفي الحيرة واليقين، قالوا:

اقروا الفاتحة لأبو العباس
يا امكندرية يا أجدع ناس
والفاتحة الثانية لسيدي ياقوت
واللي يعاديننا يطق يموت

تمت